

جمالية الدين
معارج القلب إلى حياة الروح
فريد الأنصاري
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه أستعين

مقدمة

بأي لغة أستطيع تقديم الجمال؟ وها الكلماتُ كسيرة حسيرة! في زمن تصدرت فيه (جمالية الأشباح) على حساب (جمالية الأرواح)! وغطت الأصباغُ الكاذبةُ جمالَ الفطرة الصادق! فنَصَرَ الناسُ التمثالَ على الطبيعة! وضَلَّت الحقيقة في الظلمات..!

الجمال!.. وهل بقي جَمالٌ في عالم طغت فيه شبهات الفتن على معالم السَّنن؟! وغطى دخانُ الحرائق على الحقائق! فتعسرت الرؤية، وتداخل الحق بالباطل، وتشابهت طرائق السير على السائرين! واختلت الموازين لدى كثير من الناس! بفعل سحرة العصر وكهانه الكبار، من شياطين الإعلام، وكَهَنَةِ الثقافة، ومَرَدَةِ الإخراج والتصوير! حيث صار للدين صورة (كاريكاتورية) مرعبة! في مخيلة كثير من المستلَبين، وجموع التائهين، من المسلمين وغير المسلمين! زادها بشاعةً سلوكُ بعض المتدينين الجهلة! وخطابُهم الفج! ممن تداخلت في لاشعورهم رغبة التدين مع رغبة التنفيس عن المعاناة والألم، اللذين يعتصران قلب المؤمن في هذا الزمان؛ جراء الظلم والظلمات التي تجتاح هذا العالم المجنون! فكان تدين بعضهم إلى الانحراف أقرب منه إلى الاعتدال، في السلوك والاعتقاد! بل حتى في الملبس والمظهر! وقد رأينا منهم من لبس اللباس الأفغاني ببلاد المغرب؛ ظنا منهم أنه لباس السنة! وأنه شعار الإيمان القوي على التحديد والتعيين! فخالفوا عرف أهلهم وبلادهم، وما جرت عليه عاداتهم من الأزياء؛ وكانوا بذلك إلى البشاعة أقرب! فساعدوا أبالسة الإعلام على صناعة الصورة المخيفة للإسلام والمسلمين! وبدأت تؤثر بالفعل حتى على بعض المسلمين؛ مما اضطرنا إلى أن نُذَكِّر بأن الدين جميل!

ولقد وجدنا شرائح أخرى، ممن ضاعت منهم هويتهم أو ماتت! وضلت عنهم لغتهم أو كادت! عندما يُقَدَّرُ لهم أن تستيقظ فطرتهم من جديد، ويرغبوا في العودة إلى تحقيق الشعور بالانتماء إلى هذه الأمة؛ يجدون حرجا شديدا في أن يكونوا في صف واحد مع (الإرهاب!) ولقد لقينا منهم من يخاف حتى من المرور إلى جانب شاب ملتح، أو شيخ معمَّم يمشي هادئا على قارعة الطريق! وفي حوارات شتى وجدنا من يفزع من عقيدة

الإسلام؛ لأنها في مخيلته – كما تلقاها عن الإعلام الغربي المتصهين – عقيدة المــوت! أو (إيديولوجيا العدم!) كذا! وهو مع ذلك يعلن – بقوة! - أنه مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله, وأن محمدا رسول الله! ويكره أن يوصف بالكفر – صادقا – كما يكره أن يلقى في النار! إلا أن الشبهات تعذبه عذابا مريرا! كيف يكون مسلما؛ وهذا (الالتزام الــديني) – كما يراه أو كما صُوِّرَ له بالأحرى - هو إلى البشاعة والشناعة؛ أقرب منه إلى الجمــال والجلال!

فهل لم يعد من بد إذن؛ من إعادة (درس الدين)، وشرح أبجــديات التــدين في الإسلام للعالمين؟ والكشف عن حجاب النور الذي يجلل حقيقته للناظرين؟

لا شك أن من واجبات الدعوة إلى الله أن ينهض أهل الفضل والعلم بإنجاز شــتى ضروب البيان، مما يحتاج إليه إنسان هذا الزمان، الذي وقع ضحية التغريب والتخريب، في السلوك والاعتقاد! ووقع أسيرا بالشبكة التي نصبها كَهَنَةُ الإعلام، وسَحَرَةُ الفضــائيات! (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ!)(الأعــراف: 116). وما أحسب هذا ببعيد عن معنى (فتنةِ القَطْر) المذكورة في حديث رسول اللهε، فيما رواه أُسَامَةُ بن زيد رضي الله عنه: (أَنّ النّبيε أَشْرَفَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ([1]). ثُمّ قَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَىَ؟ إِنّي لأَرَىَ مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلاَلَ بُيُوتِكُمْ، كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ»!)([2]).

إن هذه الفتن التي شبهها النبيε بقطر الأمطار، النازل بالشبهات والشهوات على البلاد والعباد، قد حجبت الرؤية، وغمرت العالم بضباب كثيف! فأنى يصــفو النظــر؟ وكيف يتضح الإبصار؟

من أجل هذا وذاك؛ كانت هذه الورقات في (جمالية الدين)!

وعندما نقول هنا (جمالية الدين) فإننا نعني أن الله Ψ الذي جعل الدين جمــيلا، قَصَدَ أن يكون التدين جميلا أيضا، قصدا تشريعيا أصيلا، بمعنى أن ذلك قُصِدَ منه ابتــداءً، وليس صدفة واتفاقا! فالجمالية: هنا متعلقة بتلك الإرادة الإلهية الجميلة الــتي قضــت أن

---

[1] الأُطُم: بضمتين، هو: كل حصن مبني بحجارة على هيئة مربعة. جمعه: آطام. وقد كانت هناك في عهد النبيε، آطام بضواحي المدينة لحراستها. والقَطْر: المطر.

[2] متفق عليه.

(يتجمل) الناس بالدين، ويتزينوا به؛ عبادةً لله رب العالمين، ومنهاجا لعمران الإنسان في الأرض. مصداقا للحديث النبوي الشريف: (إن الله تعالى جميل يحب الجمال) [3]. والتجميل المطلوب في هذا الحديث، يتعلق بالشكل والمضمون معا، كما سترى بعد مفصلا بحول الله.

ذلك أن الله – جل جلاله – قد فتح أمام البشرية معرضين فسيحين للجمال. معرضين دائمين، يتنفسان الحياة، وينبضان بالحسن المتجدد أبدا! أولهما: هذا القرآن الكريم المجيد، وما يتضمنه من حقائق إيمانية خالدة، تصل الإنسان بمنابع الجمال الحق، ومصدر النور الأعلى. وثانيهما: هذا العالم الطبيعي الكوني، بما فيه من مخلوقات وفيوضات نورانية، وتجليات روحانية خارقة، لا تنتهي استعراضاتها أبدا؛ امتدادا من عالم الغيب إلى عالم الشهادة! وما يعكسه ذلك كله من شؤون الربوبية العليا، وأنوار الأسماء الحسنى! وما هذا كله إلا ليعيش الإنسان تجربته الجمالية على مستوى الوجدان، ويعبر عنها بشتى أنواع التعبير الجميل؛ عادةً وعبادةً!

ومن هنا فإن (جمالية الدين) مفهوم له امتداد كلي شمولي؛ إذْ يمتد ليغطي علاقات المسلم بأبعادها الثلاثة: علاقته مع ربه، وعلاقته مع الإنسان، ثم علاقته مع البيئة أو الكون والطبيعة. وما يطبع ذلك كله من معاني الخير والمحبة والجمال. وكل ذلك يدخل تحت مفهوم (العبادة) بمعناه القرآني الكلي، الذي هو غاية الغايات من الخلق والتكوين، مما بينته الآيات البيِّنات من مثل قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)(الذاريات:56-58).

ولذلك فإن (الجمالية) في الدين، لا تدرك من ألفاظ بعينها في الشرع فحسب، بل هي (مفهوم) مبثوث في أصول الدين وفروعه. إنما تؤخذ من كل معاني الخير، والتخلق، والتجمل، والتزين، والإحسان، ونحو هذا من معاني الجمال، المبثوثة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، مما من شأنه أن ينتج شعورا بالجمال عند ممارسة الدين، ولدى الانخراط في الإبداع تحت ظلاله الوارفة!

[3] – رواه مسلم.

ولن يكون التدين – من حيث هو حركة في النفس والمجتمع – جميلا إلا إذا جَمُلَ باطنُه وظاهرُه على السواء، إذ لا انفصام ولا قطيعة في الإسلام بين شكل ومضمون، بل هما معا يتكاملان. وإنما الجمالية الدينية في الحقيقة هي: (الإيمان) الذي يسكن نورُه القلبَ، ويعمره كما يعمر الماء العذب الكأس البلورية؛ حتى إذا وصل إلى درجة الامتلاء؛ فاض على الجوارح بالنور، فتجمل الأفعال والتصرفات التي هي فعل (الإسلام). ثم تترقى هذه في مراتب التجمل؛ حتى إذا وصلت درجةً من الحسن بحيث صار معها القلب شفافا، يشاهد منازل الشوق والمحبة في سيره إلى الله؛ كان ذلك هو (الإحسان)!

والإحسان: هو عنوان الجمال في الدين، وهو الذي عرفه الحبيب المصطفى بقولهε: (الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه! فإن لم تكن تراه فإنه يراك!)[4].

فالدعوى التي بُني عليها غرض هذا الكتاب إذن؛ هي تقرير حقيقتين في الإسلام.

الأولى: أن الجمال جوهر أصيل في الدين، تفيض أنواره من كل حقائقه الإيمانية والتشريعية؛ ولذلك فإن خطاب الوحي قد قام - فيما قام عليه – على وضع مقاييس الجمال، وبيان المعالم الكلية لمنهاج التجمل بالدين.

والثانية: أن تجميل التدين وتحسينه؛ حتى يكون غاية في الحسن والجمال؛ هو قصد مبدئي أصيل من الدين.

وإذا كان (الدين) هو نصوص القرآن والسنة الصحيحة - وهي كلها بحمد الله جميلة - فإن (التدين) هو كسب الإنسان، وسعيه؛ لتمثل قيم الدين في نفسه ومجتمعه.

إلا أن الغالب في لفظ (الدين) أن يرد بمعنى (التدين)، على سبيل الترادف، سواء على مستوى نصوص الشرع، أو على مستوى نصوص اللغة. ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (الدال والياء والنون: أصل واحد. إليه يرجع فروعه كلها. وهو جنس من الانقياد والذل. فالدين: طاعة، يقال: دان له يدين دِينا، إذا أصْحَبَ وانقاد، وطاعَ. وقوم دِينٌ، أي: مطيعون منقادون. قال الشاعر:

" وكان الناس – إلا نحن - دينا ")[5].

---

[4] - حديث جبريل رواه مسلم، وسيأتي تفصيله ودراسته.

فالدين في هذا السياق هو التدين عينه.

أما في الاستعمال الشرعي، فالدين يرد بمعنى الإسلام نفسه، أعني: الاسم العَلَم على دين الله الحق. ويرد بمعنى التدين. ولا يميز بينهما إلا السياق. فالأول هو قول الله عز وجل: [إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسْلاَمُ] (آل عمران: 19)، وقوله سبحانه: [وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلاَمَ دِيناً] (المائدة: 3)، وكذا قوله عز وجل: [لَيّاً بِألْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً في الدِّينِ] (النساء: 46). وأما الثاني أي حيث يرادف الدين التدين، فهو كقوله تعالى: [قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ](الأعراف: 28). فالسياق هنا دال على أن المراد من (الدين)، هو ما يضمره الإنسان في قلبه من اعتقاد، وما يمارسه من عمل: وهو التدين نفسه؛ ولذلك تعلق به الإخلاص، وإنما هذا شعور بشري. وقد تكرر هذا في القرآن كثيرا.

ولعل ورودهما مترادفين في الحديث النبوي أكثر. وذلك نحو حديث: (تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك!)[6] فواضح أن المراد بـ(الدين) هنا هو عملها الديني، أي التدين، لا نصوص الشرع، ومثل هذا قوله ρ للمسافر: (أستودع الله دينَك، وأمانتَك، وخواتيمَ عملك)[7]. وكذا قوله ρ: (فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضِه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام)[8].

وكان أغلب استعمال العلماء قديما لمعنى التدين، إنما هو بلفظ (الدين) لا (التدين). وذلك نحو قول علماء الجرح والتعديل: (لين الدين، أو في دينه لين) لمن كان ضعيف التدين. ولم يرد لفظ (التدين) في القرآن قط! حتى إنه لما أراد الله عز وجل أن يأمر بحسن التدين قال سبحانه: [شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ] (الشورى:11).

---

[5] - معجم مقاييس اللغة: مادة: (دين).

[6] - متفق عليه.

[7] - رواه الترمذي وأبو داود والنسائي. وصححه الألباني في (ص.ج.ص)=صحيح الجامع الصغير، رقم: 957.

[8] - متفق عليه.

فقوله: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ) أي من نصوص الدين، ولكن قوله بَعْدُ: (أنْ أقِيمُوا الدِّينَ) هو بمعنى التدين. فـ(إقامة الدين) كما دل عليه السياق، هي تطبيق نصوص الدين. والتطبيق: هو التدين.

ولفظ (التدين) فصيح في العربية، وإن لم يجر استعماله لدى الأقدمين كثيرا. وذلك أنه (يقال: دَانَ بكذا دِيَانَةً، وتَدَيّن به فهو دَيِّن ومُتَدِّينٌ (...) والدين: الإسلام، وقد دِنْتُ به (...) والدِّين: ما يَتَدَيَّنُ به الرجل.)[9] وإنما شاع استعمال لفظ (التدين) في العصر الحاضر؛ نظرا لما عرفه الناس من انسلاخ عن الالتزام بالدين، إذ قد يكون المسلم متدينا وقد يكون غير متدين، دون أن يلزم عن ذلك الخروج الكامل عن الدين. ولم يكن الناس قبل في حاجة إلى هذا التمييز في القديم إلا قليلا. وأيضا فإن خلط الدين كنصوص، في أذهان الكثير من الناس، بالدين كممارسة بشرية؛ أدى إلى استحباب بعض العلماء الفصل بين المعنيين بتخصيص (الدين) – في الفكر الإسلامي الحديث – للدلالة على مجموع نصوص الوحي من الكتاب والسنة، وتخصيص (التدين) كما هو في اللغة بالدلالة على التطبيق البشري للدين.

إلا أن استعمالنا نحن ههنا – في هذا الكتاب – لمصطلح (الدين) إنما هو واقع بدلالته القرآنية الأصيلة، أي الجامعة بين القصدين: قصد نصوص الوحي وقصد التطبيق البشري لها. وذلك لأن (التدين) لا يكون جميلا إلا بمقدار مقاربته للمقاييس الجمالية للدين! فجمالية الدين هي التي تفيض بأنوارها على جمالية التدين، لا العكس. ومن هنا كان حديثنا في هذا الكتاب مبنيا في القصد على بيان (جمالية الدين) بالأصالة، وما ينبغي أن ينتج من جمال في التدين بالتبع. فاستعملنا لمصطلح (الدين) كان باعتباره مصطلحا مركزيا كليا — كما هو في القرآن – للدلالة على هذا الغرض الجامع. كما أننا استعملنا مصطلح (التدين) أحيانا؛ لإفراد السلوك البشري بالقصد، إذا دعت الحاجة السياقية لذلك. إذْ أن (التدين)– من حيث هو تجربة بشرية — قد لا يكون جميلا بالضرورة! لأنه ببساطة كسب الإنسان! والإنسان مهيأ للخير والشر معا، ولو جاء ذلك في ثوب الدين وأشكاله! وهنا مكمن الخطر! فالدين ككسب بشري – من حيث الأصل – الغالب فيه

[9] – لسان العرب: (دين). وانظر نحوه أيضا في الأساس للإمام الزمخشري مادة: (دين).

أن يكون جميلا، نعم؛ لأن الدين كنصوص إنما نزل من أجل هذه الغاية: تزيين بني آدم بعبادة الله تعالى؛ ومن هنا ظن بعض الناس أن كل ما ينسب من قول أو فعل للمتدينين إنما هو شيء جميل، كما أنه قد يظن بعض هؤلاء في أنفسهم ذلك! وقد لا يكون في واقع الأمر كذلك؛ لاحتمال الخطأ والزلل، والانحراف عن الدين بقصد أو بغير قصد. بل قد يكون – إذا شط به الانحراف – إلى القبح أقرب!

ومن هنا كان هذا البحث المتواضع محاولة للنظر في (جمالية الدين) لرد التدين إليه، لأن جمالية الدين ثابتة لا غبار عليها، ولا يخشى عليها. وإنما الذي يعتريه التشوه والانحراف هو التدين. وأما الدين فهو محفوظ بحفظ الله الحفيظ العليم. إلا أن ضياع الدين بضياع التدين وارد بمعنى آخر؛ وذلك أن التدين إذا جَمُل وحَسُن لَحِقَ جمالُه بالدين؛ فيزيده جمالا وبهاء، كما أنه إذا فسد وساء لحقه فسادُه؛ فيشوه معالمه، ويكسف صورته في العالم! وهنا تكمن المشكلة التي من أجلها كتبت هذا الكتاب!

لقد أتى على المسلمين حين من الدهر ضاعت منهم فيه قيم الدين؛ فتشوهت في قلوبهم وتصوراتهم مقاصده الجميلة. والنتيجة: أنِ انحرَفَ بذلك في حياتهم منهج الدين! لقد طغى على بعض المتدينين اليوم سلوك خطير أعوج، وهو اعتقادهم الشعوري، أو اللاشعوري، بأن الدين الحق إنما هو الخشونة، والحُزُونَةُ في القول والعمل!

إن الظروف التاريخية الحديثة والمعاصرة، وكذا الظروف السياسية التي أظلت العالم الإسلامي منذ بداية القرن الميلادي العشرين، والتي ما تزال تظله مع مطالع هذا القرن الجديد، قلت: إن هذه الظروف كلها أنتجت حالة (رد فعل) سيئة غير متوازنة، لدى بعض المتدينين، سواء في فهم الدين، أو في انتهاجه وسلوكه.

إن النار التي يُحَرَّقُ بها المسلمون في العالم اليوم، جماعات وشعوبا – وخاصة أجيال حركة الوعي الإسلامي، وطلائع الصحوة الإسلامية – جعلت تعابير طوائف منهم، وأشكالا من ممارسة بعضهم، تنفث رمادا ودخانا! فاستغله الإعلام الغربي – ومن هو على شاكلته ونهجه من الإعلام العربي – استغلالا سيئا؛ لخدمة أغراضه المركزية! فرسم للدين صورة كاركاتورية مفزعة! ما أنزل الله بها من سلطان! إذْ سلط الضوء على النقطة السوداء في المجتمع الإسلامي، وضخَّمها تضخيما! وعرض الصورة الشاذة بدل

الصورة الطبيعية. تماما كما يقع للوجه الجميل النابض بالجمال، إذا ركزت نظرك لا على هيأته الكلية، وإنما على موقع خالة ذات سواد غامق فيه، حتى لا تكاد ترى منه غيرهـــا، فتضخمت في عينك حتى استوعب نتوؤها في خيالك كل الوجه! فتحول الجمال فيـــه إلى صورة مفزعة! ولو نظرت إلى الخالة بحجمها الصغير في عرض الوجه؛ لفـــاض الحُسْـــنُ المتدفق من كل تقاسيمه ومعالمه عليها، ولرأيتها آنئذ جمالا في ذاتها! بل لرأيتها سرا مـــن أسرار جمال الوجه، وعينا من عيون الحسن المتدفق عليه! ولكن لعن الله العمى! (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)(الحج:46). ورحـــم الله الشـــاعر العربي إذ قال:

وعينُ الرِّضا عن كل عيبٍ كليلةٌ *** ولكنَّ عينَ السخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا!

وللأسف الشديد؛ فإن ذلك كان من الأسباب الرئيسية، الكامنـــة وراء ضـــمور الوجه الجميل للدين، الذي هو وجهه الحقيقي، المعبر عن تناسق قسماته وصفاء جوهره.

إن طوائف من أبناء جيل الصحوة الإسلامية اليوم، قد تخشبت قلوبهم، وتشنجت أقوالهم، وتحجرت عيونهم؛ فكانوا مثالا للتدين الفج، والسلوك القبيح، والذوق المتـــردي! وقد استغل الإعلام المغرض هذه الحالات الشاذة المنحرفة؛ فكان أن انطبع بذلك في فهوم كثير من الناس، أن الدين هو أبعد ما يكون عن قيم الحب والجمال! وكأنه ما أنـــزل إلا ليكون ملاذا " إيديولوجيا " لمرضى العقول ومتخلفي الأذواق والشعور!

ألا ما أكان أحرى بهؤلاء أن يحافظوا للناس على رونق الـــدين، ورواء التـــدين، ويقدموا مثالا فنيا رفيعا للإيمان، يشع بالجمال الآسر للقلوب، ويخرجوا للعالم نموذجا بهيا للسلوك، يسحر العقول، ويأخذ بالألباب، فيكون المسلم بذلك آيـــة للجمـــال الرائـــق الرقراق، السارب أريجه في الأنفس والمجتمعات! ولا يصبغوها بأحوالهم النفسية التي تعاني تحت ضغط العالم الظالم، والطغيان العاتي هنا وهناك. ولكن.. ما أســـوأ ردود الأفعـــال المتشنجة!

لقد عورضت نصوص الكتاب والسنة معارضات غير متوازنة، وضرب بعضـــها ببعض! فشاهت الفهوم، وكانت الكارثة! غابت نصوص التيسير والتبشـــير، وســـيطرت فهوم التعسير والتنفير؛ فاختل التوازن في تدين كثير من الناس فهما وتطبيقا!

ساءت النماذج في هذا الزمن الأعور؛ حتى لقد شعرت – كما شعر كثير غيري – أننا في حاجة ماسة إلى (تَذَكُّرِ) أن الدين جميل حقا.. وأن التدين إنما هـــو تَمَثُّـــلُ قِـــيَمِ الجمال، والتزين بأنوارها في السلوك والوجدان.

نعم! الدين جميل.. وأي شيء يكون جميلا في هذه الدنيا إن لم يكن هو الدين؟

وإنما قدم القرآنُ (الإسلامَ) على أنه مثال الجمال الأعلى من كل الأديـــان! وإنمـــا عرضه زين الدعاة محمد رسول الله ρ على الناس – كل الناس – عرضا جميلا! فكـــان المتدينون في زمانه عليه الصلاة والسلام، والأعصر التي بعده، قناديل تمشـــي في الأرض، ورياحين تملأ الزمان والمكان بأريج الجنة!.. فماذا وقع للناس اليوم؟

إن معاني الجمال في الدين من صفاء الروح، ومنازل الإيمان، وأحوال الإحسان؛ لم يستفد منها جمهور كبير من أبناء الصحوة الإسلامية المعاصرة؛ لأسباب منها اشتهار نسبة بعض مفاهيمها، وألفاظها، إلى المتصوفة؛ فكان أن زهد كثير من الناس فيها؛ بسبب مـــا خالط بعض كتبهم من خرافات، وشطحات([10]). وإنما هي عبارات قرآنية أو نبوية محضة، نعم؛ ربما اكتسبت في سياق الاستعمال التاريخي دلالات منحرفة في بعـــض الأحيـــان، فيكون الواجب هو تحريرها منها، لا إلغاؤها والتنكر لها!

إنه ما ينبغي لذلك أن يعمينا عن جمال الدين ، وإنما خاطبنا الله تعالى بالجمـــال، وأمرنا أن نرحل إلى منازله العليا، ونسير إليها سيرا لا يفتر، ولا ينقطـــع حـــتى يـــدركنا اليقين!.. لا ينبغي للمؤمن الكَيِّسِ الفَطِنِ أن تعميه غلطات بعض الناس – مهما قبحت – عن محاسن الدين! فيقنع في دينه بظواهر الألقاب ويرمي بعيدا باللباب!

إذن يكون من الجاهلين!.. كيف والجمال هو الدين؟

إن الصحوة الإسلامية المعاصرة لفي أشد الحاجة إلى تربية ذوقية فنيـــة؛ ترهـــف حسها بمواطن الجمال، الموجِّهةِ لكل شيء في هذا الدين، عقيدةً وشريعة! ولقـــد انتبـــه السابقون إلى ذلك وانبهروا به؛ فسارعوا إلى الالتحاق بقوافل المحـــبين! وكـــان منـــهم مُصَنِّفُون ذَوَّاقُون، نبهوا إلى هذه المعاني، من أمثال الحسن البصري، والإمـــام المحاســـبي،

---

[10] لقد غالى بعضهم في الهجوم على التصوف، و لم يفرقوا في أقوال القوم بين حق وباطل. ولهذه المسألة بيان شاف يأتي بحول الله في الإشراق الرابع من هذا الكتاب.

والإمام الجنيد، وابن الجوزي، والإمام عبد القادر الجيلاني، والإمام ابن القيم، والإمام أبي عبد الله الساحلي المالقي، والإمام الشاطبي، والإمام أحمد زروق، وغيرهم كثير. رحمهم الله أجمعين.

ألا ما أحوجنا اليوم إلى إعادة القراءة للدين، في مصادره العذبة الصافية الجميلة! قراءة تصل المسلم بالله، قبل أن تكون قراءة ينتقم بها لنفسه، من الظلم الاجتماعي، والطغيان السياسي، فيكون بتدينه عدوا للدين! من حيث يدري أو لا يدري!

لهذا وذاك كتبتُ مَشَاهِدَ هذا الكتاب منذ بضع سنوات، فقد دَوَّنْتُ مسودته الأولى خلال صيف سنة: 1420 هـ، الموافقة لعام: 1999م. وقد تم نشره آنئذ عبر جريدة التجديد المغربية، ثم نُشِرَ بعضُه مقالاتٍ منقحةً في مجلة البيان السعودية. قبل أن يتم إعداده في هذه الصيغة الجديدة، بعد التعديلات، والإضافات، مما حصل من إعادة صياغة بعض الفقرات؛ توسعا وتصحيحا وتنقيحا. فجاء بحمد الله — بعد هذه المقدمة، وتمهيد مفهومي – في أربعة (إشراقات) وخاتمة، كل (إشراق) يتضمن (مَشَاهِدَ)، تختلف طُولاً وقِصَراً وعَدَداً، على قَدْرِ ما فتح الله به من حقائق إيمانية. ومعلوم أن تجليات الروح هي من أصعب المعاني ضبطاً وتقييداً على الكُتَّابِ والْمُصَنِّفِين. ولذلك لم نلتجئ إلى التكلف إلا ما أذِنَ الله بإشراقِه من الْمَشَاهِدِ ويَسَّرَ تقييدَه. وقديما قال أبو الحسن الْهَجْوِيري رحمه الله: (وَسُلُوكُ طَرِيقِ الْمَعَانِي صَعْبٌ جِداً إلاَّ لِمَنْ خُلِقَ مِنْ أجْلِهِ!)([11]). وذلك إنما هو لكون (المعاني) لا تُتَلَقَّى إلا عند صفاء الروح، لدى الإدْلاَجِ في طريق المحبة! وإثبات ذلك للنفس دعوى عريضة! لِمَا أشرق من نور النبوة الوَهَّاجِ في قول سيدنا محمدε: (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، ومن أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ! ألا إن سلعةَ الله غالية! ألا إن سلعة الله الجنة!)([12])

[11] كشف المحجوب: 194.

[12] رواه الترمذي والحاكم. وصححه الألباني. في (ص.ج.ص) رقم: 6222.

والإدلاج: هو السَّفَر بليل، والمقصود به في الحديث: العبادة الليلية، من قيام وترتيل وأذكار ونحوها. و(الخوف) هنا: هو (الخوف التعبدي) وليس (الخوف التعودي)، كما سيتم بيانه بحول الله في المشهد الثاني من الإشراق الرابع، من هذا الكتاب.

هذا وإني لأرجو أن يُسْهِمَ هذا الكتيب – إن شاء الله – في التنبيـــه إلى الحقيقـــة الجمالية الجوهرية في الإسلام، عقيدة وشريعة، وبيان نَوَابِضِ الْحُسْنِ من كل ذلك في مجال التدين؛ عسى ألا يعمينا دخان الحرائق المشتعلة بهذا الزمان عن مشاهدة ما لدينا من ثروة جمالية، والتجمل بمباهجها؛ تَدَيُّناً نسلك به إلى الله ذي الجمال والجلال، عسى أن نكـــون به (أسوة حسنة) حقا، وشهداء على الناس صدقا! كما كان رسول الله ρ بجمال تدينـــه الرفيع أسوةً حسنة لأمته وشهيدا عليها. قال ربنا جل علاه: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)(الأحزاب: 21). وقـــال سبحانه: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)(البقرة: 143).

ومن هنا؛ فقد حاولت تلمس بعض صور الجمال لممارسة الـــدين في الإســـلام، وتذوق محاسنه، محاولا تأصيل ذلك ضمن مفاهيم واضحة، ومقاييس محددة، في مجـــالات العقيدة والعبادة والسلوك، مسترشدا بهدي القرآن وسنة المصطفى ρ؛ عسى أن أسهم في الدلالة على خير، والله ولي التوفيق.

(رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ!)(آل عمران: 8) (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِـــلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ)(الحشر: 10).

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

وكتبه عبد ربه، راجي عفوه وغفرانه، الفقير إلى رحمته ورضوانه: فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي السجلماسي، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين. وقد وافق تمام تبييضه وتصحيحه – بمكناسة الزيتون، من حواضر المغرب الأقصى — يوم الخميس 29 محرم: 1426هـ 2005/03/10م.

تمهيد: في مفهوم (الجمالية) بين الإسلام والفلسفة الغربية

(الجمالية) أو (علم الجمال) مصطلح يستعمل في الفكر المعاصر؛ للدلالة على تخصص من تخصصات العلوم الإنسانية، التي تُعْنَى بدراسة (الجمال) من حيث هو (مفهوم) في الوجود، ومن حيث هو (تجربة) فنية في الحياة الإنسانية.

(فالجمالية) إذن؛ علم يبحث في معنى (الجمال) من حيث مفهومه، وماهيته، ومقاييسه، ومقاصده. (والجمالية) في الشيء تَعْنِي أن (الجمال) فيه حقيقة جوهرية، وغاية مقصدية، فما وُجِدَ إلا ليكون جميلا!([13]) وعلى هذا المعنى انبنت سائر (الفنون الجميلة) بشتى أشكالها التعبيرية والتشكيلية.

ومصطلح (الجمالية) أو (علم الجمال) ترجمة لكلمة (استطيقا). وهي كلمة ولدت في رحم الفلسفة الغربية، من الناحية الاصطلاحية، خلال القرن الثامن عشر الميلادي. فقد كان الفيلسوف: (باومجارتن) سنة: 1750م، أول من سك هذا اللفظ. ثم انتقل استعماله إلى سائر الثقافات والعلوم الإنسانية كالأدب والفن.

إلا أن (الجمالية) من حيث هي مفهوم قديمة قدم الإنسان نفسه. وصاحبت الحضارات البشرية كلها بدون استثناء، واتخذت لها طابعا خاصا مع كل حضارة، كما كانت لها تجليات خاصة، ومتميزة، مع كل تجربة إنسانية مختلفة([14]). و لم تكن الحضارة الإسلامية بدعا من الحضارات الإنسانية جملة. ذلك أن (الجمال) في الإسلام أصل أصيل، سواء من حيث هو قيمة دينية: عَقَدِيَّةٌ وتشريعية، أو من حيث هو مفهوم كوني، وكذا من حيث هو تجربة وجدانية إنسانية. ومن هنا كان تفاعل الإنسان المسلم مع قيم الجمال ممتدا من مجال العبادة إلى مجال العادة، ومن كتاب الله المسطور إلى كتاب الله المنظور! مما خلد

---

[13] يقول ولترت ستيس: (لقد نظر الاستطيقيون إلى الجمال على أنه الهدف الوحيد للفن. وهم على حق في ذلك. ولا يصح ذلك إلا إذا استخدمت كلمة "الجمال" بمعنى واسع إلى أقصى حد.) معنى الجمال: نظرية في الاستطيقا، ص:94.

ثم استعمل مصطلح (الجمالية) في الأدب الحديث للدلالة على أن "الجمال" هو القيمة الأولى للنص، وأنه لا عبرة بما لم يُبْنَ على ذلك؛ إذ الوظيفة الأولى للنص هي أن يكون جميلا! (جمالية الأدب الإسلامي) للأستاذ محمد إقبال عروي: 94-95.

[14] تلك هي القضية التي انبنى عليها موضوع كتاب البروفسور: إتيان سوريو (الجمالية عبر العصور)، ترجمة د. ميشيل عاصي، منشورات عويدات، بيروت/باريس، ط. الثانية: 1982.

روائع من الأدب والفن، التي أنتجها الوجدان الإسلامي في قراءته الراقية للكَوْنَيْن، وسياحته الرائعة في العالَمَيْنِ: عالم الغيب وعالم الشهادة!

ولقد قاد الجهلُ بالتراث الإسلامي أو العمى الصليبي بعضَ فلاسفة الغرب إلى حصر التجربة الجمالية الإسلامية في مجال (الإدراك العقلي)، دون الإدراك الوجداني العاطفي؛ واتهم التجربة الإسلامية بالفقر الفني والجمالي! فأقل ما يقال عن مثل هذا الاتهام أن صاحبه جاهل بحقيقة الإسلام وقيمه الجمالية من جهة، وبتجربة الأمة الإسلامية من جهة أخرى، أعني على المستوى الجمالي، في كل تجلياتها العربية وغير العربية: فارسيةً وهنديةً وتركيةً ثم مَالَوِيَّةً!

ولقد انبرى الفيلسوف الفرنسي المعاصر: (إتيان سوريو) فيلسوف (الجمالية)، وأستاذ علم الجمال في جامعة السربون بباريس([15])؛ للدفاع عن هذه الحقيقة، لكنه مع ذلك لم يكن موفقا كل التوفيق؛ بسبب نقص المعطيات عنده عن قيم الجمال في الإسلام، وعن تجربة المسلمين في ذلك المجال. يقول محيلا على اتهامات (بلزاك) في كتابه (الابن الملعون): (لطالما قيل - وعلى غير وجهٍ من حق — إن الفن العربي قد كان فنا إدراكيا، لا يتوجه إلا إلى الفكر النظري المحض، وليست له أية قدرة على الإثارة العاطفية!)([16]). ثم يستطرد بعد ذلك مدافعا عن الجمالية الإسلامية، بشواهد من جمالية العمران وفن العمارة بالبلاد العربية والإسلامية، لكن - مع الأسف - بتحليلات هي أقرب إلى الخرافة منها إلى المقاييس العلمية للجمال!

يقول: (إن هذا الرأي هو خاطئ تماما! والحقيقة هي ما ذهب إليه من قبل (غايي: Gayet) عندما تحدث في كتابه: "الفن العربي" عن المشاعر التي تثيرها — من وجهة نظر الجمالية العربية — المعطيات الهندسية لذلك الفن بتفاصيلها وأشكالها. ولذا فهو يقول بأن الدوائر الهندسية إذا كانت زواياها المتعددة مزدوجة، فإنها " توقظ في النفس مشاعر عميقة مطبوعة بطابع الصفاء العذب"، أما إذا كان عدد زواياها مفردا فإنها تبعث على "الحزن المبهم والقلق والاضطراب"، ويقول أيضا: "إن الصورة المتكونة من الجمع بين المربعات

---

[15] كان ذلك خلال سنوات الستينات من القرن الميلادي الماضي.

[16] الجمالية عبر العصور: 179.

والمثمنات تبعث على فكرة السكون الأبدي، أما تلك التي تنبثق من الأشكال ذات الزوايا التسع فإنها توقظ الإحساس بسر مبهم مضطرب!")([17]) كذا..!! والعجيب حقا هو كيف فهم (غابي) أن هذا التفسير الغريب للأشكال الهندسية هو (من وجهة نظر الجمالية العربية)؟ ثم كيف قبل منه الأستاذ (سوريو) هذا الهذيان؟ ونقله على سبيل التبني في كتابه! لقد كان الأولى بغابي هذا أن يعرض أحواله المترددة ما بين (الصفاء العذب، والحزن المبهم، والقلق، والاضطراب) على طبيب نفسي؛ خير له وللعلم من أن يفسر به أشكالا هندسية في صومعة، أو قبة مسجد، أو زوايا قلعة! لقد ضل كثير من مؤرخي الجمالية الغربيين الطريقَ إلى معالم الجمال الحق في الإسلام، وأخطؤوا مواطنَ علم الجمال في التجربة الإنسانية الإسلامية! فأنكرها بعضهم، وبقي البعض الآخر أسير الجدران والأسوار! يحاول فك رموز النقوش وأشكال الزخارف، كما يحاول العالم الأركيولوجي فك رموز بدائية، في قطعة حجرية من عصور ما قبل التاريخ!

إن الجمالية الإسلامية تنبع أولا من حقائق الإيمان، إذْ تَشَكَّلَ الوجدانُ الإنساني بما تلقاه من أنوار عن رب العالمين الرحمن الرحيم، وما انخرط فيه بعد ذلك؛ سيرا إلى الله تعالى عبر أشواق الروح، مبدعا – باتباع تعاليم نبيهε - أروع ألوان التعبير الجمالي من سائر أشكال العبادات والمعاملات والعلاقات! انطلاقا من حركته التعبدية في جمالية الصلوات ولوحاتها الحية الراقية! وما يَنْظِمُهَا من عمران روحي ومادي، إلى هندسة المدائن الإسلامية بما تحمله من قيم روحية سامية، وقيم حضارية متميزة جدا. إلى سائر النشاط الإنسان الذي أبدعه المسلمون في علاقتهم بربهم وعلاقتهم بأنفسهم وبغيرهم، إلى علاقتهم بالأشياء المحيطة بهم، بدءا بالمسخَّرَات من الممتلكات والحيوان، إلى المحيط الكوني الفسيح، الممتد من عالم الشهادة حولهم إلى عالم الغيب فوقهم! كل ذلك تفاعل معه المسلم؛ فأنتج أروع الأدبيات التعبيرية والرمزية، مما لا تزال تباريحه المشوقة بالمحبة، من الترتيل إلى التشكيل؛ تفيض على العالَم بالجمال والجلال أبداً!

إن العمارة الإسلامية – رغم ثرائها الجمالي الرفيع - هي آخر ما ينبغي الاشتغال به لمن أراد أن يدرس الجمالية الإسلامية في مصادرها الأولى! لأن حصون المدائن وجدرانها

---

[17] الجمالية عبر العصور: 180

إنما هي التجليات المادية المعبرة عن أشواق الروح، الفياضة عبر القباب والمآذن؛ مندفعة بقوة نحو السماء! وإنما هي صورة التعبير الرمزي عن معاني الاحتضان العاطفي وقيم الأخلاق الاجتماعية والحنان الرَّيان! بما امتازت به من حياء، وتستر، وانحناءات، تتلوى أضلاعها الخفاقة بالمحبة بين الدروب! تسلك بالرجال والنساء مسالك الحشمة الرقيقة والوقار العالي، إلى المساجد وإلى الغرفات والشرفات الكاشفة الساترة! ثم تنشر أسرارها نقوشا وزخرفة تتبادل الأدوار مع أحرف الخط العربي بشتى أشكاله، في كلمات ناطقة حينا، وناظرة أحيانا أخرى! كلها تتدلى مثل العناقيد من بين الأقواس، تستقبل مواجيد المحبين وترد سلام المتبتلين، لتتوحد معهم في صلاة أبدية خالدة!

ولقد دَبَّجَ المسلمون في مصنفات المحبة والسلام تباريحَ الأشواق أنى مرساها! ووصفوا مقامات النور كيف مجراها! ورسموا كلمات الجمال بما لا قِبَلَ به لأحد من العالمين!([18])

وكأنما الفرق في (الجمالية) بين مفهومَيْها الغربي والإسلامي كالفرق بين الطبيعة والتمثال! أو بين الحقيقة والخيال! و لم تكن الصورة التي يبدعها المسلم ثابتة قارة يأكلها البِلَى في متحف (اللوفر) أو غيره من متاحف العالم، ولكنها صورة حية يشكلها بإبداعه اليومي بين ركوع وسجود، وطواف وسعي، أو بين صوم وتبتل، وانقطاع يصله كليا بالملأ الأعلى! ثم مواجيد يتنفسها بعد ذلك كلماتٍ وكتاباتٍ ذات صور؛ الجمالُ فيها له روح! صور لا تبلى أبد الزمان! (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)(الفتح:29)

---

[18] مثل كتاب كشف المحجوب للإمام الهجويري، ومنطق الطير لفريد الدين العطار، وهذا من الناحية الجمالية قطعة فنية رائعة. ومثله مدارج السالكين لابن القيم، وكتابه حادي الأرواح، ونحو ذلك كثير. ومن أهم الموسوعات الجمالية في الفكر الإسلامي الحديث مجموعة: كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله.

تلك صورهم الحية! فأين منها بسمة (الجوكاندا) المصطنعة الشاحبة؟ أو وجوه (بيكاسو) المتداخلة المتنافرة! هذه صور الجمال في الأدبيات الإسلامية، ما تزال تتجدد عبر التـــاريخ أبدا، ولا يزال القارئ لها في كل مكان يشارك بمخيلته في إبداع الأشكال كما هو يريد! بحرية تتحدى آخر الصيحات في عالم الرسم والتشكيل! وليس عندهم صور ميتة يفرضها فنان على الناس فتستعبد مُخَيِّلَةَ الأجيال وتقتل إبداعهم! ومن هنا توجه الفن الإســـلامي حضاريا — في الأعم الغالب – إلى الإبداع ضمن جمالية (التجريد). والتجريد في الحقيقة إنما هو لغة الروح، وريشة الوجدان. يقول إتيان سوريو: (والحقيقة التي لابد من التنويه بها كذلك، هي أن الروحية الإسلامية تحترس على الأخص من مخاطر الفن التجسيمي، وتجد لها ضمانات كبرى في استعمال الفن التجريدي. من هنا، ومن هذه الوجهة خصوصـــا، يجب تفسير الوضع الجمالي للفن الإسلامي من الناحية التجريدية. أضف إلى ذلك أن الفن التجريدي هو بالضبط الفن الذي يستجيب في العالم العربي لما تقتضيه الحاجـــة الجماليـــة اقتضاء شديدا ودقيقا.)([19])

نعم! إن لغة التجريد في الفن الإسلامي هي التي تصنع حركة الحيـــاة الفعليـــة في المجتمع، حيث تتفتق جماليتُها المتجددة؛ سلوكا حضاريا راقيا، وعلاقات اجتماعية مفعمة بالود والمحبة والسلام، تتضافر جميعها في نسيج عمراني يرقى إلى درجة المثال! وذلك بمـــا يفيض من وجدان الإنسان المسلم من تباريح الإيمان وأشواق الروح!

وما قتل الفن الغربي شيء مثل الولع بسجن الإبداع في الصور الجامدة الثابتة، ولو في حركتها الوهمية الاصطناعية! وعليه؛ فإن الوضع الفني في أوروبا قد وصـــل فعـــلا إلى الباب المسدود! يقول فيلسوف الجمالية المعاصر: (إذا أخذنا الفـــن أداة للحكـــم علـــى الحاجات الجمالية لوقتنا الحاضر؛ نجدها قد أصيبت بتغييرات جذرية منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى اليوم. فالزائر الذي يتجول في أرجاء متحف للفن الحديث؛ لو انتقل من قاعـــة تضم لوحات انطباعية، إلى قاعة أخرى تضم لوحات حديثة مـــن الفـــن التجريـــدي أو التجسيمي؛ لاجتاحه – ولا ريب – شعور بالانتقال من عالم إلى عالم آخر، وإحســـاس بالغربة عميق! ولنقابل المسألة هنا بكل حدتها، فلا نتردد بالقول بأن هذا الزائـــر نفســـه

---

[19] الجمالية عبر العصور: 179.

(...) قد تسول له نفسه أن يتحدث عن خط انحداري ومسيرة تقهقرية في الفـــن!)([20]).
إلى أن يقول – بعد وصف مآل بعض أنواع الفن الأخرى – بحدة نقدية شـــديدة: (ولا شك في أن من يراقب هذا التبديل المفاجئ سيجد نفسه مدفوعا إلى القول بأن ما يسمعه ويشاهده **ليس إلا رجعة إلى حالة من البدائية والتوحش!**)([21]).

ومن عرف منطلقات الجمالية في الفكر الغربي عرف أسباب ذلـــك؛ لأن معرفـــة النتائج عموما رهينة بمعرفة المقدمات. فلا بأس إذن من إعطاء صورة تاريخيـــة، مختصـــرة جدا، لأهم المحطات المفهومية للجمالية في الفلسفة والفن الغربيين؛ عسى أن ندرك الفروق الجوهرية بينها وبين حقيقتها في مفهومها الإسلامي، عند عرض صور من معالمه الكبرى – بهذا الكتاب – كما تفيض بها مصادر الدين والتدين في الإسلام.

حول مفهوم (الجمال) في الفكر الغربي

لقد اضطرب الفلاسفة منذ العهد اليوناني القديم في تحديد معنى (الجمال) ومقاييسه في الشيء الجميل، واختلفوا في ذلك اختلافا كثيرا. فقد ثار سقراط على البعـــد الحســـي للجمال، وأرجع كل القيم الجمالية إلى النفس. تقول الدكتورة أميرة مطر: (إن سقراط لا يأبه بالجمال الحسي الذي يتغنى به فنانو عصره وشعراؤه؛ قدر اهتمامه بجمـــال الـــنفس والْخُلُقِ الفاضل، فنجده يتساءل باحثا عن الجمال: «أيمكن ألا ينطوي هذا الجمال الساحر على نفس تناسبه جمالا وخيرا؟» وعلى أساس هذا الموقف الأخلاقي اهتم سقراط بالجمال الباطني: نعني جمال النفس الفاضلة.)([22])

بينما حقيقة (الجمال) عند أفلاطون تتحدد في الجمال الإلهي، وإنما النفس برؤيتها لجمال الأرض في شتى صوره تتذكر جمال المثل فتتعلق به. إذْ (بمجرد أن يُلْمَـــحَ الجمـــال تتضح رؤية النفس، ويتم التذكر في لحظة سريعة، تنبت في أثرها المعرفة كما ينبثق النـــور دفعة واحدة. ويصور أفلاطون هذه الرؤية في محاورة المأدبة حين تصيح ديوتيمـــا قائلـــة: "على أي نحو؛ تظن حماسة الرجل الذي انكشف له الجمال في حقيقته الخالصة النقية غير

---

[20] الجمالية عبر العصور: 273-274 .

[21] الجمالية عبر العصور: 275-276.

[22] فلسفة الجمال: أعلامها ومذاهبها، للدكتورة أميرة حلمي مطر ص:31.

الممتزجة بهذه الأجسام والألوان الإنسانية، ذلك الذي يرى الجمـــال الإلهـــي في وحـــدة صورته!" ويصفه في محاورة فايدورس بأنه: الجوهر غير ذي اللون ولا الشكل الـــذي لا يمكن للحس أن يدركه، الجوهر الموجود بالحقيقة، ولا يكون مرئيا إلا لعين النفس! وهو موضوع العلم الحقيقي. ويشغل المكان الذي يسمو على السماء.)([23])

أما عند أفلوطين فقد (عرف أفلوطين الجمال بأنه موضوع محبة النفس؛ لأنه مـــن طبيعتها وهو ينتمي إلى عالم الحقائق العقلية، فهو بطبيعته أقرب إلى النفس منه إلى طبيعـــة المادة؛ ولذلك فهي ترتاح إليه وتحبه.)([24])

ويبدو أن الفلسفة اليونانية – خاصة الأفلاطونية منها- وَجَّهَتْ الفلسفة الأوروبية الحديثة، فلم تزل - رغم تعمق قضاياها وجدليتها المتطورة - تدور في فلـــك الفلســـفة القديمة بتناص منهجي، وتداخل موضوعي واضحين، فجماع إشكالاتها الجمالية لم تخرج عن تجاذب طرفي الحسية والأخلاقية. يقول ريني هويسمان رئيس تحرير مجلة "علم الجمال" بباريس: (لَمْ يُتَلَفَّظْ –حتى نهاية عصر النهضة – بفكرة حـــول الفـــن إلا بـــالرجوع إلى أفلاطون!)([25]). سواء مع كانط (ت:1804م)، أو مع هيجل (ت:1831م) الذي هو (أرسطو العصر الحديث) كما يعبرون، والذي تركزت فلسفته حول مفهـــوم (الـــروح المطلق) حيث: (إن افتراض الروح المطلق هو محور مذهب هيجل؛ ذلك لأن كل مـــا في الوجود من ظواهر طبيعية أو مادية أو نُظُمٍ إنسانية، أو فكرية، إنما هي في النهاية مظهر من مظاهر تشكلات الروح. وقانون هذه التشكلات هو ما يسميه هيجل بالجـــدل. وقـــوام الجدل حركة أو صيرورة مستمرة. وغاية الروح في النهاية أن تعي ذاتهـــا. ووســـيلتها في بلوغ هذا الوعي: الفن والدين والفلسفة.)([26])

ومن هنا كان عنده (موضوع الاستطيقا لا يتناول الجمال الطبيعي، وإنما يتعلـــق بالجمال الفني؛ لأن الجمال في الفن أرفع مكانة من الجمال الطبيعي؛ لأنه من إبداع الروح،

---

[23] المرجع السابق، ص:43.

[24] المرجع السابق، ص: 89.

[25] علم الجمال (سلسلة: "زدني علما")، ص: 20

[26] فلسفة الجمال، د. أميرة مطر، ص: 124.

وخلق الوعي، ونتاج الحرية. وما هو من إنتاج الروح يحمل طابعها ويكون أسمى من الطبيعة!)([27])

فهذه التوجهات المنهجية في بحث الجمالية من حيث هي في عمومها – رغم الاختلافات الجزئية – ظلت مسيطرة على الفكر الفلسفي في الغرب والمدارس التابعة له في العالم العربي. ومن هنا يقول "ولترت ستيس": (ظل منحى الفكر الفلسفي لعدة سنوات يتجه نحو ما هو حدسي وغير منطقي ولامعقول (...) ويبدو أن أنصار الحدس في علم الجمال (الاستطيقا) وفي كل أفرع الفلسفة كانوا هم الأقوى؛ إذ لا شك أن تقدير الجمال ليس عملية قياس منطقي، وإنما هي على العكس عملية مباشرة. فهي شعور! وحتى كروتشه الذي لم يكن صوفيا قط، والذي يبدأ فكره بصفة عامة بداية عقلية؛ كان مع ذلك فيلسوفا حدسيا في ميدان علم الجمال!)([28])

ورغم نقد (ولترت ستيس) للتوجهات السابقة في فلسفة الجمال فغاية ما وصل إليه بخطابه النقدي هذا، إنما هو محاولة التوفيق المنهجي لتحديد مفهوم الجمال ومقاييسه. قال في فصل تحت عنوان (ماهية الجمال): (إن الجمال: هو امتزاج مضمون عقلي، مؤلف من تصورات تجريبية غير إدراكية مع مجال إدراكي، بطريقة تجعل هذا المضمون العقلي وهذا المجال الإدراكي لا يمكن أن يتميز أحدهما عن الآخر.)([29]) ثم قال شارحا: (تجد في الجميل عنصرين يتحدان اتحادا عضويا: المجال الإدراكي في تعريفنا الذي يطابق التجسيد الحسي في المذهب المثالي، والمضمون العقلي الذي يطابق المعنى الروحي.)([30]) وبهذا المنطق يذهب إلى اعتبار (القبح) الذي ليس مضادا عنده لمفهوم (الجمال) مقصودا ضمن مفهوم الجمالية ما دام قد شمله الإحساس الفني، وخضع للتجربة الوجدانية، فأنتج إحساسا جميلا،

---

[27] المرجع السابق، ص: 125.

[28] معنى الجمال: نظرية في الاستطيقا، ص: 35.

[29] معنى الجمال: نظرية في الاستطيقا، ص:73

[30] معنى الجمال: نظرية في الاستطيقا، ص:73.

وتفاعلا جماليا. وذلك قوله الصريح: (فالقبح من حيث هو شعور استاطيقي إيجابي مـؤلم ليس هو ضد الجمال!)([31])

إن الجمالية لم تستطع أن تتخلص من بعدها الذوقي، رغم محاولة الوضعيين سجنها في حدود المادة. فقد بقيت تحت سلطان التجربة الوجدانية. يقول سعيد توفيق: (لا شك أن موضوع الخبرة الجمالية (Aesthetic experience) يعد من أهم قضايا الاستطيقا (أو علم الجمال)، بل إننا لن نجانب الصواب إذا قلنا: إن هذا الموضوع أصبح يمثل المبحث الرئيسي الذي يدور حوله هذا العلم. والحقيقة أن هذا العلم قد نشأ متخذا هذه الوجهة البحثية: فلقد أطلق "باومجارتن" سنة: 1750م اسم «الاستطيقا» (...) - والذي يشير إلى الخبرة الحسية — على المعرفة التي تتعلق بمنطق الإحساس والشعور الجمالي؛ تمييزا لها عن المعرفة التي تتعلق بمنطق التفكير العقلي. ومنذ ذلك الحين أصبح موضوع الخبرة الجمالية موضع اهتمام كثير من الفلاسفة على اختلاف مذاهبهم.)([32]) حتى إن الفلسفة الوجودية المتمردة على كل شيء رغم تفسيرها العبثي للجمالية؛ لم تستطع التخلص من الجانب الذوقي في عبثيتها وتمردها! يقول الدكتور محمد زكي العشماوي: (تصبح فلسفة الجمال بعد ذلك عند المدرسة الوجودية ضربا من التمرد على عبثية العالم! فالإنسان الوجودي عند ألبير كامي (يواجه العبث السائد في الكون بما لديه من حرية، وتمرد، وقدرة إبداعية. وبذلك يربط كامي بين الفن والتمرد! أو بعبارة أخرى بين الفن وبين رفض الإنسان أن يكون على ما هو عليه! إذ على الإنسان أن يعيد تشكيل العالم وصياغته من خلال عمله الفني، أو بمعنى آخر: على الفنان المتمرد أن يحاول فرض شكل فني منظم أو صورة معقولة

---

[31] معنى الجمال: نظرية في الاستطيقا، ص:95.

قلتُ: والحقيقة أن (القبح) في ذاته يجب أن يكون — من حيث هو مفهوم - ضد (الجمال)، أما الشعور الجميل - إزاء الشيء القبيح - المتحدث عنه أعلاه، وإن أنتجه القبحُ؛ فليس من القبح! بل بينهما فرق دقيق جدا! بل (الشر) نفسه قد ينتج (خيرا)! فلا يكون الشر من الخير من حيث الجوهر. تماما كما أن القبح قد ينتج جمالا؛ ولا يكون هذا من ذاك! ومن هنا فإننا نصر على استعمال مصطلح (القبح) ضد مصطلح (الجمال) بهذا الكتاب، ولا ننساق وراء هذا التخليط الذي انساق وراءه كثير من دارسي الجمالية في العالم العربي؛ تقليدا لمقولات فلاسفتها في الغرب!

[32] دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية، ص:9

على العالم! وعنى ذلك أن الفنان الذي يرفض العالم؛ لعدم اتساقه ووقوعه في الفوضى واللانظام؛ يسعى في ذات الوقت إلى خلق العالم من خلال العمل الفني على الوجه الذي يريده لنفسه!)([33]) كذا!.. والحقيقة أن هذه الفوضى التي عاشها الإنسان المتمرد في نفسه، وتوهمها في العالم الكوني كله! قد انتقلت إلى نتاجه الإبداعي، فكانت النتيجة التي وصفها إتيان سوريو من قبل: (حالة من البدائية والتوحش!)([34])!

ومع هذا وذاك فإنه حاول التخفيف من وطأة المآل المأساوي للجمالية؛ فجعل يؤكد في كتابه (الجمالية عبر العصور): (أن الحاجة الجمالية هي من أرسخ الحاجات التي تميز الكائن البشري، ومن أكثرها ثباتا وقوة! (...) على أن هذه الحاجة لا يُصَارُ إلى ممارستها في الميدان الخاص والمحدود للفنون الجميلة فقط، حيث تجد – في الحقيقة – كفايتَها الأكثر سموا وصفاء وكثافة؛ وإنما نلقاها أيضا كقوة محركة، وموجهة، ومتممة، ومشرفة ومستشرفة معا؛ في مختلف ميادين النشاط الإنساني، كما نلقاها في الإطار العملي البحت؛ بمقدار ما نجدها في الإطار الروحاني الأسمى!)([35])

لكن يبدو أن العبثية التي رسخها الثنائي الوجودي في فرنسا: (سارتر، وكامي) قد لاءمت ظروف اهتزازا القيم في المجتمع الغربي، وتوجهاته المتمردة على كل شيء؛ فلم يكن لصيحات الحكماء أثر! فكانت الحداثة وما بعد الحداثة، والبقية تأتي!

حول مفهوم (الجمالية) في الإسلام

من الترتيل إلى التشكيل

الإنسان جميل!.. بل هو أجمل مخلوق في الأرض! وتلك حقيقة طبيعية. ثم إن مصادر الدين في الإسلام تحدثنا أن الله قد خلق الإنسان في أجمل صورة وأحسنها!.. وقارنْ بينه وبين سائر الحيوانات – وهي غاية في الجمال - ظاهرا وباطنا! قال عز وجل [اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ] (غافر: 64) وصح عن النبي ρ قوله:

---

[33] فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، ص: 232.

[34] الجمالية عبر العصور: 276.

[35] الجمالية عبر العصور، ص: 315-316.

(خلق الله آدم على صورته)[36]، ثم جعل له الكون من كل حواليه جميلا، وحسنه تحسينا.. عساه يكون في تدينه حسنا جميلا! قال تعالى: [إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً] (الكهف:7) فالزينة الكونية مبعث وجداني للتحلي بالزينة الإيمانية!

إن الناظر في هذا العالم الكوني الفسيح، يدرك بسرعة أن الإنسان يعيش في فضاء فني راق، بيئة واسعة بهية، هي آية من الجمال الذي لا يبارى! بدءا بالأرض حتى أركان الفضاء، الممتدة بجمالها الزاخر في المجهول، تسير في رونق الغرابة الزاهي.. إلى علم الله المحيط بكل شيء! ومن ذلك قوله سبحانه: [وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ!] (الحجر: 16) وجعل الأرض الحية تتنفس بالجمال؛ نعَماً لا تحصى ولا تنتهي.. [قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] (الأعراف:32). وأرشد ذوق الإنسان إلى تبين معالم هذا الجمال في كل شيء: (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إلا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)(النحل: 5-8).

ثم انظر إلى هذا الجمال المتدفق كالشلال، من الآيات التاليات! يقول سبحانه بعد الآية السابقة بقليل، في سياق الْمَنِّ بهذه النعم الجميلة الجليلة: [هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ([37]). يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ. وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ. وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا. وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ. وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلا لَعَلَّكُمْ

---

[36] -متفق عليه

[37] تُسِيمُونَ: أي ترعون أنعامكم فيه.

تَهْتَدُونَ. وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ. أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ؟ أَفَلا تَذَكَّرُونَ؟ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ] (النحل: 10-18).

إنها صورة كلية شمولية، ذات ألوان وأنوار حية متحركة! إنها (بانوراما) كاملة للأرض بتضاريسها وبحارها، وأشجارها، وأنهارها، وأحيائها جميعا، ثم بفضائها الرحب الفسيح! بما يملأ ذلك كله من حركة الحياة، والنشاط الإنساني بكل صوره، مما أتيح له في هذه الأرض وفضائها من المسخَّرات الحيوية. هذا كله هو قصرك الزاهي أيها الإنسان! ومجالك الواسع، محاطا بكل آيات التسخير وكرامات التدبير، المتدفقة بين يديك بكل ألوان النعم والجمال؛ لتصريف العمر كأعلى ما يكون الذوق، وكأجمل ما تكون الحياة!

وفي سورة الأنعام صور تنبض بجمال الخصب والنماء، جمال أَرْضِيّ لا يملك معه من له أدنى ذرة من ذوق سليم؛ إلا أن يخضع لمقام الجمال الأعلى.. الجمال الرباني العظيم! قال جل جلاله: (وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ. انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيات لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(الأنعام:99). ويلحق بها قوله تعلى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)(فاطر:27-28).

فالصورة تبتدئ - في الآيات الأولى ثم التي بعدها - من لحظة نزول المطر، إلى لحظة خروج النبات والشجر من التربة الندية، إلى مرحلة خروج الحب المتراكب في السنابل، وخروج القِنْوَان، أي: العراجين والعُذُوق المثقلة بالفاكهة، بجمالها وبهائها، ثم ما يلامسها بعد ذلك من نضج وينع، فتراها - وقد تهيأت للقِطاف - متدلية خلال خمائل الجنات والبساتين، ناظرة إلى الناس في دلال خلاب! والآيات لا تغفل الحركة الحية للألوان، في تطورها من الخضرة إلى سائر ألوان النضج والينع، مما يتاح للخيال أن يتصوره — تَوَرُّداً واصْفِرَاراً واحْمِرَاراً واسْوِدَاداً...إلخ - في الزروع، والتمور، والأعناب، والزيتون، والرمان.. ونحوها، إلى ما يحيط ذلك كله، أو يتخلله، من ألوان الجبال وجُدَدِهَا، وهي:

مسالكها أو خطوطها والتواءاتها المتشكلة منها، وهي غالبا ما تكون ذات انحناءات مختلفة الألوان، كما قال الله تعالى: (بيض وحمر)، إلى ما يزينها من غرابيب سود، وهي الصخور الناصعة السواد! إلى حركة اللون المنتشرة هنا وهناك في الحيوان والإنسان! مما لا يملك المؤمن معه إلا أن يكون من الساجدين لمن أفاض على الكون بهذا الجمال كله! الجمال الحي المتجدد! وإنها لآيات تربي الذوق الإنساني على جمالية التوحيد والتفريد، مما تعجز الأقلام والألوان على تجسيد صورته الحية النابضة! وأي ريشة في الأرض قادرة على رسم الحياة!؟

وإنني لو قصدت إلى استقصاء جماليات القرآن الكريم من السور والآيات؛ لجئت به كله! فهذه عباراته الصريحة، وإشاراته اللطيفة كلها.. كلها مشعة بتوجيهات ربانية لتربية الذوق الإنساني؛ حتى يكون في مستوى تمثل مقاصد الدين البهية، بتدينه الجميل! فهل عبثا نص القرآن على جمالية الكون والنعم والحياة؟ وهل عبثا نبه القرآن الحس البشري الإسلامي، وربَّاه لالتقاط دقائق الحسن والبهاء في مناظر الفضاء، والأرض، والجبال، والشجر، والنبات، والبحار، والأنهار، والأنوار، والأطيار؟

إن الله تعالى خلق الحياة على مقاييس الجمال الإلهية الباهرة، الساحرة! وأرسل الرسل بالجمال؛ ليتدين الناس على ذلك الوِزان وبتلك المقاييس! ولذلك قال النبي محمد ρ سيد الأتقياء، وإمام المحبين: (إن الله تعالى جميل يحب الجمال) [38]. وفيه زيادة صحيحة: (ويحب معالي الأخلاق ويكره سِفْسافَها) [39]؛ مما يشير إلى أن الجمال مطلوب في أداء المسلم شكلا ومضمونا، مبنى ومعنى، رسما ووجدانا.

لقد كانت الآيات المذكورة قبل من سور النحل، والأنعام، وفاطر، توقظ الشعور الوجداني الإنساني؛ لينتبه إلى مواطن الخير والحسن في نعم الله؛ ولذلك كانت مقاطع الآيات كلها تختم بصيغ التنبيه والاعتبار: (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون.. لقوم يعقلون.. لقوم يذّكرون.. ولعلكم تشكرون.. لعلكم تهتدون)! بل بعضها كان صريحا في

[38] – رواه مسلم

[39] – رواه الطبراني وابن عساكر. وصححه الألباني في (ص.ج.ص)، صحيح الجامع الصغير. رقم: 1743.

الأمر بالنظر الفني إلى نوابض الجمال في الكون والطبيعة، كما في قوله تعالى الوارد قبـــل: (انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ! إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيات لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(الأنعام:99). ذلك أن تتبع جداول الجمال يقود إلى منبعه العظيم، حيث الحق والخير الصافي الرقراق. هنالك إذن يعب المتدينون من موارد الدين ما يتزينون به لربهم عبادة وسلوكا، فإذا القلوب تنــبض بجمال الإيمان، حبا لا يخبو أبدا! وما ألطف قوله تعالى في هذا: [وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَـيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ] (الحجرات: 7).. أن تحب الإيمان يعني أن الدين سكن هواك، فتعلقتَ به كما يتعلق المتيم بمحبوبه! والحب لا يسكن قلبا إلا إذا شاهد مباهج الجمـــال التي تسحره وتأخذ بمجامعه! ولذلك! قال: (وَزَيَّنَهُ في قُلُوبِكُمْ) فإذن كيف يصـــدر عـــن مسلم هذا شأنه قُبْحٌ في التعبير أو قبح في السلوك؟.. إذن يكون خارج معـــنى (العبـــادة) حينئذ! وخارج مقاييس الدين! إذ الله لا يقبل إلا جميلا ولا يقبل إلا طيبا! صـــدقت يـــا رسول الله: (إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق ويكره سِفْسَافَهَا!).

فليكن الدين إذن: سيرا إلى الله في مواكب الجمال! [يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْق قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَـــنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ] (الأعراف: 29-31) وإنها للطافة كريمة أن يجمع الحق سبحانه في مفهـــوم الدين، من خلال هذه الكلمات النورانية بين جمالين: جمال الدين وجمال الدنيا: (قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَـــوْمٍ يَعْلَمُـــونَ)! ليكون ذلك كله هو صفة المسلم.

ولقد حرص الرسول ρ على تربية صحابته الكرام على كل هذه المعاني.. وكيف لا؟ وهو أول من انبهر بجمال ربه وجلاله؛ فأحبه حتى درجة الخلة! قال عليـــه الصـــلاة والسلام لأصحابه يوما: (لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت ابن أبي قحافة [أبا بكر] خليلا. ولكن صاحبكم خليل الله!) [40] وصح ذلك عنهε في سياق آخر قال عليه

[40] – رواه مسلم عن ابن مسعود، وروى البخاري نحوه عن ابن عباس، وعبد الله بن الزبير.

الصلاة والسلام: (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل! فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا! ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا! ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد! إني أنهاكم عن ذلك!)[41].. وكان يعلمهم كيفية سلوك طريق المحبة بعبارات وإشارات شتى، ما تزال تنبض بالنور إلى يومنا هذا فانظر إن شئت، إلى قوله ρ: (أنتم الغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله!)[42] والغرة بياض في ناصية الحصان، والتحجيل بياض في يديه. فتلك سيم الجمال في وجوه المحبين وأطرافهم، يوم يرِدُون على المصطفى ρ، وهي سيم (ليست لأحد من الأمم!)[43]، بها يعرفون في كثرة الخلائق يوم القيامة، كالدر المتناثر في دجنة الفضاء!.. هذه ومضة الإبراق النبوي تبشر برشح الأنوار على أطراف المتوضئين الساجدين، رشحا لا يذبل وميضه أبدا! فإذا النبي الكريم يميز جمال المحبين وسط الزحام واحدا واحدا..!

- قال ρ:
- (ما من أمتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة!
- قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟
- قال: أرأيت لو دخلتَ صُبْرَةً [محجرا] فيها خيلٌ دُهْمٌ، بُهْمٌ، وفيها فَرَسٌ أغَرُّ مُحَجَّلٌ، أما كنتَ تعرفه منها؟
- قالوا: بلى.
- قال: فإن أمتي يومئذ غُرٌّ من السجود، مُحَجَّلون من الوضوء!)[44]

فأي تذويق فني هذا للدين؟ وأي ترقية لطيفة للشعور هذه وأي تشويق؟

ولم يفتأ النبي ρ يرقي الذوق على مستوى التصرف والسلوك، ليس في مجال المعاملات فحسب، ولكن أيضا في مجال الدعوة والإرشاد. وليس قولهε: (إن الله تعالى

---

[41] رواه مسلم.

[42] - رواه مسلم.

[43] - متفق عليه.

[44] - رواه أحمد بسند صحيح (صفة صلاة النبي ρ): 158.

رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف.)[45] وقوله: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا..!)[46] وقوله أيضا في فرض الإحسان على المؤمن في كل تصرفاته وأعماله التعبدية والعادية: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء!..) الحديث[47] إلا نموذجا لعشرات الأحاديث المنضوية تحت هذا المعنى الكلي الكبير: الإحسان في كل شيء، في الشعور، والأخلاق، والمعاملات، والتصرفات، والسلوك!

ومن هنا – بعد هذه الشواهد النموذجية والمقارنات التقريبية – يمكن أن نخلص إلى أن أسس (الجمالية) في الإسلام تقوم على أركان ثلاثة، هي: المتعة والحكمة والعبادة. باجتماعها جميعا في وعي الإنسان ووجدانه يتكامل المفهوم الكلي للجمالية في الإسلام.

فأما الحكمة: فمعناها – هنا – أنه ما من (جمال) إلا وله هدف وجودي، ووظيفة حيوية، يؤديها بذلك الاعتبار. ذلك أنه ما من جمال في هذا الكون إلا وهو رسالة ناطقة بمعنى معين، هو حكمة وجوده ومغزى جماليته. فليس جميلا لذاته فحسب، بل هو جميل لغيره أيضا. فعند التأمل في كل تجليات الجمال في الطبيعة، تجد أنها تؤدي وظائف أخرى هي سر جماليتها. من مثل الأهداف التناسلية الضرورية لاستمرار الحياة في الكائنات من الإنسان، والحيوان، والطيور، والنبات...إلخ. ففي هذا السياق تقع استعراضات الجمال الخارق مما وهبه الله للكائن الحي؛ لإنتاج الشعور بالجمالية مما ينتج عنه أروع التعابير اللغوية أو الرمزية. على جميع المستويات البشرية والحيوانية والطبيعية عموما. كل على درجة طبقته الفطرية من الوعي بالحياة والوجود الخِلقي. وما ذلك كله في نهاية المطاف إلا ضربا من قوانين التوازن في الحياة، واستقرار الموجودات والخلائق، تماما كما هو دور قانون الجاذبية في استقرار الحياة الأرضية، وتوازن الأجرام والكواكب في الفضاء. فالإحساس الجمالي- بما فيه من عواطف جياشة لدى الإنسان مثلا – ما هو إلا وسيلة

[45] – رواه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، وابن ماجة، وابن حبان، والإمام أحمد، والبيهقي، والطبراني، والبزار وأبو نعيم في الحلية. عن خمسة من الصحابة وصححه الألباني في (ص.ج.ص): 1771.

[46] – متفق عليه.

[47] رواه مسلم.

وجودية لاستمراره وتوازنه. قال تعالى: (وَمِنْ ءاياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ. وَمِنْ ءاياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(الروم:20-21).

ونفس الحقيقة الجمالية التي نراها في الطبيعة والجبال والبحار والنجوم...إلخ؛ ما هي - رغم التصريح القرآني بجماليتها في مقاصد الخلق – إلا مخلوقات تؤدي وظائف في سياق التدبير الإلهي للكون؛ خلقاً وتقديراً ورعايةً. ومن ذلك قوله تعالى على سبيل المثال: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)(البقرة:189). وقوله تعال: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)(يونس:5) مشيرا بذلك إلى أن وظيفة الأقمار والأفلاك إنما هي إنتاج مفهوم الزمان؛ لتنظيم الحياة الكونية والإنسانية في أمور المعاش والمعاد معا، أي مجال العادات والعبادات على السواء. وكذلك ما ذكره الله من الوظيفة الجيولوجية والتسخيرية للجبال والأنهار والمسالك، في مثل قوله تعالى: (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَعَلامَاتٍ. وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)(النحل:15-16).

فكل المشاهد الجميلة في الحياة والكون – كما عرضها القرآن الكريم - لا تخرج عن هذا القانون الكلي، من حكمة الوجود ووظيفة الخلق.

وأما الركن الثاني للجمالية في الإسلام، فهو: المتعة والإمتاع، سواء في ذلك ما هو على المستوى الحسي؛ أو ما هو على المستوى النفسي والذوقي، أعني العاطفي والوجداني. ومعنى ذلك أن الله - جل جلاله - خلق في الإنسان مجموعة من الحاجات، كحاجته إلى الطعام والشراب واللباس. فكانت منها حاجة التمتع والاستمتاع بالجمال، من حيث هو جمال. ومن هنا سعيه الدائم إلى البحث عنه والانجذاب إليه. وهذا صريح في كثير من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة. ومن ذلك أن تلك الحقائق الكونية نفسها، التي ذُكرت في سياق هدفها الوجودي، وحكمتها الْخِلْقِيَّة، هي عينها ذُكِرَتْ لها أهداف إمتاعية في مساقات أخرى. قال تعالى مصرحا بفوائد الأنعام والبهائم الإمتاعية (الجمالية)، إلى جانب منافعها التسخيرية: (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ.

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)(النحل:5-8).

فقوله تعالى: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) ثم قوله بَعْدُ: (لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)، دال بوضوح - بما في السياق اللغوي من حروف التخصيص والتعليل - على قصد إشباع الحاجة الجمالية للإنسان، إلى جانب حاجته البيولوجية إلى الطعام والشراب، وسائر حاجاته المعيشية من الخدمات.

وعلى هذا يجرى ما ذكر في القرآن من مشاهد الجمال والتزيين، كقوله تعالى: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)(الحجر:16). وقوله تعالى: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)(ق:6). وقوله سبحانه: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)(الصافات:6). وقوله جل جلاله: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(الكهف:7).

وأما الركن الثالث: فهو العبادة. العبادة بما هي سلوك وجداني جميل، يمارسه الإنسان في حركته الروحية السائرة نحو رب العالمين، الله ذي الجلال والجمال. وهذا من الوضوح بمكان حيث إن النصوص التي ذكرت قبل كافية في إثابته وبيانه. ذلك أنه هو الركن الغائي من خلق الجمال نفسه! بل هو غاية الغايات من الخلق كله، وما به من حقائق الزينة والْحُسْنِ المادية والمعنوية على السواء.

إن إشباع الحاجات الجمالية لدى الإنسان لو تأملتها تجدها لا تخرج عن معنى حاجة الإنسان الفطرية إلى التعبد والسلوك الروحي! ولذلك فإن الإنسان الغربي إنما يمارس بإبداعه الجمالي ضربا من العبادة الخفية أو الظاهرة، التي يوجهها نحو الطبيعة حينا، ونحو ذاته أحيانا أخرى. إنه بدل أن يسلك بإنتاجه الجمالي مسلك التعبد لله الواحد الأحد، مصدر الجمال الحق، وغايته المطلقة في الوجود كله؛ ينحرف بها إلى إشباع شهواته أو أهوائه. ثم يمارس نوعا من الوثنية المعنوية أو المادية. ولذلك كانت فنونه الجميلة تميل إلى التجسيم والتشكيل. محكومة بمثل قوله تعالى: (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا

ظَالِمِينَ)(الأعراف:148). وقوله سبحانه: (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ!)(طه:87-88).

نعم إنه لمن السذاجة أن نقول بحصول (الوثنية التقليدية)([48]) في الجمالية الغربية، وإنما المقصود حصولها على المستوى النفسي! إن الغرب يفرغ طاقته الجمالية في الأشكال والألوان! تماما كما فرغ بنو إسرائيل من قبل زينتهم وحليهم في صياغة التمثال، تلك المحاولة الباطلة لتجسيد الإله! فكانت فيهم الوثنية البشعة التي سجلها القرآن!

فالفنان عندما يبدع لوحته أو سمفونيته أو قصيدته الأخيرة، يخر لها راكعا حينا، بما يحدث في نفسه من عُجْبٍ نرجسي وكبرياء، أو يتلوها على الناس كما تتلى التراتيل في المحاريب والمعابد! أو يعرضها عليهم كما يعرض (الكتاب المقدس)! فتتمجد ذات الإنسان بالباطل؛ بدل تمجيد ذات الله الخالق الحق للجمال! وإذن؛ فعِوَضَ أن تقوده مواجيده إلى عبادة الرحمن الذي أفاض على هذا العالم بأوصاف الجلال والجمال؛ يتجه إلى تمجيد ذاته، وإلى تفضيل التمثال على الطبيعة! وما شابه ذلك من معاني التمرد على الله! وتلك هي النتيجة التي آلت إليها الحال بالذات مع الفلسفة الوضعية والوجودية، حتى آخر صيحات الحداثة وما بعد الحداثة!

من هنا إذن أطَّرَ الإسلامُ الجماليةَ بمفهوم العبادة؛ حتى يصح الاتجاه في مسيرة الإبداع، ويستبصر الفنان بتواضعه التعبدي مصدرَ الجمال الحق؛ فيكون إبداعه على ذلك الوزان، وتتجرد مواجيده لتلك الغاية. وتلك هي (جمالية التوحيد)([49]). عسى أن يستقيم سير البشرية نحو نبع النور العظيم.. النور الذي هو (اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)(النور:35).

والعبادة في الإسلام سلوك جمالي محض. وذلك بما تبعثه في النفس من أنس وشعور بالاستمتاع. فالسير إلى الله عبر الترتيل، والذِّكْرِ، والتدبر، والتفكر، والصلاة، والصيام...

---

[48] رغم حصولها عندهم في صفوف العوام، مما هو واضح في تقديس ما صنعوه من تماثيل للمسيح والعذراء والقديسين.

[49] سيأتي تفصيل هذا المفهوم بَعْدُ في هذا الكتاب بحول الله.

وسائر أنواع العبادات؛ إنما هو سير إليه تعالى في ضوء جمال أسمائه الحسنى، بما هو رحمن رحيم، مَلِكٌ، قدوس، سلام ... إلخ. وليس عبثا أن رسول اللهε كان يصف الصلاة بما يجده فيها من معاني الراحة الروحية، ويقول لبلال رضي الله عنه: (يَا بِلاَلُ! أَقِمِ الصَّلاَةَ!.. أَرِحْنَا بِهَا!)([50]) ومن العجيب حقا أنه عليه الصلاة والسلام ذكر متع الدنيا وجماليتها فجعل منها الصلاة، مع العلم أن الصلاة عمل أخروي لا دنيوي! وذلك قوله الصريح الواضح: (حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ والطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ!)([51]) وتوجيه الحديث دال بسياقه على أنه ε أحب من الدنيا جماليات النساء والطيب وما يوحي به الأمران من جمال العواطف والمظاهر، ويقول في السياق نفسه: (وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَة)! أي كمال سعادتي وجمال لذتي في صلاتي لله الواحد القهار؛ وذلك لما كان يجدهε من أنس وراحة تامين على مستوى الوجدان الآني الدنيوي، بغض النظر عن المآلات الأخروية؛ لأن التعبير صريح في تصنيف الصلاة في هذا السياق ضمن محبوبات الدنيا! وقد أُثِرَ عن غير واحد من السلف والزهاد تعلُّقُهم بالدنيا لا من أجل ذاتها؛ ولكن من أجل ما يجدون فيها من لذة العبادة، وجمالية السير إلى الله! وهذا من أدق المعاني وألطف الإشارات الوجدانية!

فالجمالية الإسلامية إنما تكتمل بهذه الأركان الثلاثة جميعا: الحكمة والمتعة والعبادة. وعليه؛ فإن السلوك الإسلامي انطلق متحليا بجماليته إلى جميع مناحي الحياة، الفنية، والإبداعية، والثقافية، والعمرانية، والأخلاقية، والاجتماعية. فكانت له في كل ذلك تجليات خاصة تتميز بخصوص المفهوم الإسلامي للجمال.

وحديثنا في هذا الكتاب إنما هو عن (جمالية الدين). الدين بما هو منبع الجمال في الإسلام، وبما هو أساس تأطير الحياة الجمالية، في شتى تجليات الحضارة، المعنوية والمادية. أي من الترتيل إلى التشكيل. أو بعبارتنا المنهجية: (من القرآن إلى العمران).

---

[50] رواه أحمد وأبو داود. وصححه الألباني في (ص.ج.ص)، وفي تعليقه على السنن.

[51] رواه أحمد والنسائي والطبراني والبيهقي والحاكم وأبو يعلى. وحسَّنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند، بينما صححه الألباني في تعليقه على السنن.

الإشراق الأول: في جمالية التوحيد

المشهد الأول:

العقيدة الإسلامية بين جمال القرآن، وتقسيمات علم الكلام

كلمة البدء في الإسلام هي: (لا إله إلا الله).. وهي كلمةُ سِرٍّ!..سر في غاية اللطافة والبهاء.. نعم كل المسلمين يقولونها، ولكن القليل منهم هم الذين يتذوقونها حقا! ذلك أن انصرافهم إلى التصورات الكلامية، في مجال العقيدة، قد صرفهم عن فضاءاتها الجميلة ومواجيدها الجليلة.

إن عقيدة الإسلام لم تكن في القرآن الكريم، ولا في السنة النبوية؛ إلا لمسة تربوية ذات أثر روحي عميق على الوجدان والسلوك. وقد كان المسلمون عندما يتلقونها بعباراتها القرآنية الجليلة، يتفاعلون معها تفاعلا عجيبا، إذ يتحولون بسرعة، وبعمق كبير من بشر عاديين، مرتبطين بعلائق التراب؛ إلى خلائق سماوية تنافس الملائكة في السماء! وما هم إلا بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق! ولذلك حقق الله بهم المعجزات في الحضارة والتاريخ. إن الكيمياء الوحيدة التي كانوا يتفاعلون بها هي: (لا إله إلا الله) لكن ليس كما صورها علم الكلام بشتى مدارسه ومذاهبه، وإنما كما عرضها القرآن آيات بينات ومحكمات.

إن التقسيمات الكلامية للعقيدة الإسلامية، التي أملتها ضرورة حجاجية حينا، وضرورة تعليمية حينا آخر، ليست ذات جدوى في عالم التربية الإيمانية؛ لخلوها من روحها الرباني، وسرها التعبدي، الذي لا تجده إلا في كلمات القرآن وأحرفه: (من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول " ألم " حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف) [52]. ثم إن التعبير عن حقيقة الذات الإلهية لا يكون على كمال صدقه، جلالا وجمالا؛ إلا إذا كان بما عبر الله به عن ذاته سبحانه وصفاته. وما كان للنسبي المحدود أن يحيط وصفا وعلما بالمطلق غير المحدود! ومن هنا كان التوقيف في مجال التعبير العقدي في الإسلام.

---

[52] – رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وكذلك الحاكم. وصححه الألباني (ص.ج.ص): 6469.

كثير من الناس يتكلم في العقيدة اليوم، ولكن قليلا منهم يتفاعل معها؛ لأن العلم الجدلي ما كان له أن يؤتي ثمارا قلبية، وهو قد أنتج أساسا لإشباع رغبات العقل المماري، لا لإشباع حاجات القلب الساري. وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يخاطب بالعقيدة الإيمانية العقول، خطابا ينفذ من خلالها إلى القلوب، حيث تستقر بذرة، تنبت جنات وأشجارا.

إن السر الذي تتضمنه عقيدة (لا إله إلا الله) والذي به غيرت مجرى التاريخ مرات ومرات، والذي به صنعت الشخصيات التاريخية العظيمة في الإسلام؛ إنما يكمن في (جمالها)!.. الجمال: ذلك الشيء الذي لا يدرك إلا بحاسة القلب. إنه إحساسُ: (كم هو جميل أن يكون المرء مسلما!).. ودون هذا الإدراك اللطيف للدين، إدراكات أخرى من أشكال التدين، لا تغني من الحق شيئا! لقد ضاع صفاء الدين وجماله السماوي في غبار التأويلات، ورسوم التقسيمات! وقد ذم قوم (الكلام)، لكنهم لم يدركوا أنهم في خضم الصراع المذهبي ردوا وقسموا (فتكلموا)! وسقط عنهم بذلك بهاء الدين وجماله، وهم لا يشعرون! أو – على الأقل – لم يترك ذلك في الأتباع لمسات الجمال، وأذواق الصفاء في السلوك الذي يصنفون به على أنهم (مسلمون)! فكانت التصورات في واد، والتصرفات في واد آخر. وذلك لعمري هو الخسران المبين: [قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً] (الكهف: 99).

إن القرآن الكريم والسنة النبوية يقولان لنا حقيقة جليلة عظيمة، لم يستطع أن يوصلها إلينا علم الكلام: هي أن عقيدتنا جميلة!

ولكم هو مؤسف حقا أن يضيع هذا المعنى من تدين كثير من المسلمين اليوم، فلا يرون في الدين إلا خشونة وحزونة! [وإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ]! (المنافقون: 4) هذا التخشب في الأقوال والفعال، الذي سيطر على تدين كثير من الناس اليوم؛ إنما كان لأسباب سياسية واجتماعية مختلفة، ليس هذا مجال بيانها. ولا يجوز أبدا أن تكون مسوغا للانحراف عن بهاء الدين وجماله! وإنما أنزله الله ليكون جميلا. تتذوقه القلوب، وتتعلق به الأنفس؛ فلا تستطيع منه فكاكا، فتُسْلِمُ – بجذبه الخفي وإغرائه البهي – لله رب العالمين.

(لا إله إلا الله) – إذ يقولها العبد مستشعرا دلالتها اللطيفة – كلمة (قلبية) مدارها على وصف حال، والاعتراف بذوق صفات الكمال والجلال! إنها تعبير عن الخضوع الوجداني التام لله. نعم قلت: (الوجداني)؛ لأنها – ببساطة – كذلك وردت في سياقها القرآني الأصيل.

ولو تأملت هذه العبارة العظيمة في اللغة، لوجدتها تقوم على لفظتين أساسيتين، هما مدار الإسلام كله: (الله) و (الإله).

فأما كلمة: (الله) فهو لفظ الجلال، الاسم العَلَم على الذات الإلهية، الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات الإلهية العلى. ولفظ (الله) فرد في اللغة، فلا يجمع ولا يتعدد.

وأما كلمة: (الإله) فهو لفظُ وصفٍ، يدل على معنى شعوري قلبي؛ ولذلك فهو يتعدد، إذ يجمع على (آلهة). وأما باقي العبارات في (لا إله إلا الله) فهي (لا) النافية، و(إلا) الحاصرة، تقومان بدور البناء والتركيب اللغوي؛ للنفي والإثبات، الذي يربط نوع العلاقة في قلب المؤمن بين الوصف: (إله) والاسم: (الله). وحقيقة تلك العلاقة هي ما يهمنا في هذا البحث. إنها علاقة تملأ الوجدان بما يفيض به قلب العبد المعبر بها حقا وصدقا! من الاعتقاد والشعور تجاه مولاه جل علاه!

ذلك أن كلمة (إله) في أصل الاستعمال اللغوي كلمة قلبية، وجدانية، كما ذكرنا. أعني أنها لفظ من الألفاظ الدالة على أحوال القلب، كالحب، والبغض، والفرح، والحزن والأسى، والشوق، والرغبة، والرهبة... إلخ. أصلها قول العرب: **«أَلِهَ الفَصيلُ يَأْلَهُ أَلَهاً»** إذا ناح شوقا إلى أمه. والفصيل: ابن الناقة إذا فطم، وفصل عن الرضاع، يحبس في الخيمة وتترك أمه في المرعى، حتى إذا طال به الحال ذكر أمه؛ وأخذه الشوق والحنين إليها – وهو آنئذ حديث عهد بالفطام – فناح، وأرغى رغاء أشبه ما يكون بالبكاء! فيقولون: "أَلِهَ الفصيلُ!" فأمه إذن ههنا هي (إلهه) بالمعنى اللغوي، أي: ما يَشُوقُه. ومنه قول الشاعر:

* أَلِهْتُ إليها والرَّكائِبُ وُقَّفٌ*

جاء في اللسان: (اسم "الله": (...) تفرد سبحانه بهذا الاسم، لا يشركه فيه غيره، فإذا قيل: "الإله" انطلق على الله سبحانه وعلى ما يعبد من الأصنام. وإذا قلت: "الله" لم

ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى (...) وقيل في اسم الباري سبحانه: إنه مأخوذ من أَلِهَ يَأْلَهُ: إذا تحيَّرَ! لأن العقول تَأْلَهُ في عظمته! وأَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً: أي تحيَّرَ، وأصله وَلِهَ يَوْله وَلَهاً. وقد أَلِهْتُ على فلان: أي اشتد جزعي عليه! مثل وَلِهْتُ. وقيل: هو مأخوذ من: أَلِهَ يَأْلَهُ إلى كذا، أي: لجأ إليه؛ لأنه سبحانه الْمَفْزَعُ الذي يُلْجَأُ إليه في كل أمر!) [53]. إذ (الإله) في هذا السياق اللغوي هو: ما يَشُوقُ القلب، ويأخذ بمجامع الوجدان؛ إلى درجة الانقياد له والخضوع! قال عز وجل: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)(الجاثية: 22).

والراجح فعلا أن (أَلِهَ) هو من (وَلِه) ومنه اشتق الاسم العلم: (الله)؛ لأن مدار كلا المادتين على معاني القلب؛ فأبدلت من الواو همزة. قال الراغب الأصفهاني: (أَلَه فلانٌ يأله: عَبَدَ (...) وقيل: أصله وِلاه، فأبدل من الواو همزة، وتسميته بذلك؛ لكون كل مخلوق والِهاً نحوه، إما بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات، وإما بالتسخير والإرادة كبعض الناس، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء: الله محبوب الأشياء كلها) [54].

و(الوَلَهُ): هو الجنون الحاصل بسبب الحب الشديد، أو الحزن الشديد. يقال: امرأة وَلُوهٌ: إذا أحبت حتى جنت، أو إذا ثكلت؛ فحزنت حتى جنت! قال ابن منظور: (الْوَلَهُ: الحزن. وقيل هو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد، أو الحزن أو الخوف. والوله: ذهاب العقل لفقدان الحبيب (...) [و] ناقة مِيلاهٌ: هي التي فقدت ولدها فهي تَلِهُ إليه. يقال: وَلَهَتْ إليه تَلِهُ أي تحن إليه (...) وناقة وَالِهٌ: إذا اشتد وجدها على ولدها!)[55]

وهكذا فأنت ترى أن مدار المادتين (أله) و(وله) هو على معان قلبية، ترجع في مجملها إلى التعلق الوجداني والامتلاء بالحب، فيكون قول المؤمن: « لا إله إلا الله » تعبيرا عما يجده في قلبه من تعلق بربه تعالى، أي لا محبوب إلا الله، ولا مرهوب إلا الله، ولا يملأ عليه عمارة قلبه إلا قصد الله. إنه أشبه ما يكون بذلك الفصيل الصغير، الذي ناح شوقا إلى أمه، إذْ أحس بألم الفراق، ووحشة البعد! إن المسلم إذ (يشهد) ألا إله إلا الله، يقر شاهدا على قلبه أنه لا يتعلق إلا بالله؛ رغبةً ورهبةً وشوقاً ومحبةً. وتلك لعمري (شهادة)

---

53 – لسان العرب: مادة (أله).

54 – المفردات في غريب القرآن: مادة (أله).

55 – لسان العرب: مادة (وله).

عظيمة وخطيرة! لأنها إقرار واعتراف بشعور، لا يدري أحد مصداق ما فيه من الصدق إلا الله، ثم الشاهد نفسه! ومعاني القلب لا تحد بعبارات، ولا تحصرها إشارات. ومن هنا كانت شهادة « ألا إله إلا الله » من اللطافة بمكان، بحيث لا تدرك على تمام حقيقتها إلا ذوقا!

قال ابن القيم رحمه الله: (إن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر، ولا نسبة لسائر المحاب إليها! وهي حقيقة: لا إله إلا الله!)[56] إلى أن يقول في نص نفيس تشد إليه الرحال: (فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان! ولتعطلت منازل السير إلى الله. فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل. فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها! بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام: فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله! فمن لا محبة له لا إسلام له البتة! بل هي حقيقة شهادة: أن لا إله إلا الله! **فإن** (**الإله**): **هو الذي يأله العباد حبا وذلا، وخوفا ورجاء، وتعظيما وطاعة له، بمعنى** (**مألوه**): **وهو الذي تأله القلوب. أي تحبه وتذل له** (...) **فالمحبة: حقيقة العبودية!**)[57]

ذلك أن معنى (الإسلام) هو الخضوع لله رب العالمين، والاستسلام لأمره تعالى. إنه الاعتراف الوجداني، أي التعبير العملي عن الشعور الحقيقي الذي يلامس القلب، عندما يدرك العبد و(يجد) أنه (عبد) لسيد هذا العالم العظيم! وحقيقة كون المسلم عبدا هي الحقيقة التي تغيب عن أكثر المسلمين؛ فيحدث بسبب ذلك الانحراف بشتى ألوانه وأشكاله.

إن (العبد) مسلوب الإرادة! ليس بالمعنى الكلامي ولكن بالمعنى الوجداني، أعني: أن تجد الشعور بأنك أيها المسلم مِلْكٌ لله الواحد القهار! تدور في فلك العبودية والخدمة كما تدور الكواكب في الأفلاك. [لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ] (الزمر: 60) . وتلك هي مدارات اللفظ (عبد) في اللغة: إنها لا

[56] - مدارج السالكين لابن القيم: 18/3.

[57] -مدارج السالكين: 26/3 وسيأتي لهذا المعنى تفصيل عند التعرض لمنزلة المحبة في الإشراق الرابع من هذا الكتاب.

تخرج عن معاني الذلة والخضوع والخنوع، والانقياد، كما تنقاد الأنعام المذللة لمالكيها رغبةً ورهبةً، انقياداً لا تشنج فيه ولا تَفَلُّت!

والعبد لا يكون إلا في باب الخدمة بين يدي مولاه، واقفا على العتبة ينتظر الأمـــر والنهي بشوق المحب، ليبادر إلى التنفيذ دون سؤال: علامَ ولمهْ؟ [لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ](الأنبياء: 23). إنه الرب المحبوب الأعظم، المرغوب المرهوب، رب الكون والخلق أجمعين. يمكنك أن تُعَرِّفَ عقيدة الإسلام في نهاية المطاف، فتقول: إنها ميثاق المحبة بين الله وعباده! أو هي دستور السلام!

وحينما نقول (المحبة) فهي بمفهومها القرآني الجامع المانع! لا ما ذهبت إليه طوائف من الغلاة من هذا الاتجاه أو ذاك، ممن قالوا بها فأبطلوا كل منازل الإيمان مـــن خـــوف ورجاء! فانتهى بهم الأمر إلى دعاوى عريضة يتشدقون بها، ما أنزل الله بها من ســـلطان! كلا! بل لا تقوم المحبة بقلب العبد الصادق إلا على جناحي الخوف والرجاء، وما تفـــرع عن ذلك من معاني الرَّغَبِ والرَّهَبِ! والقرآن العظيم والسنة النبوية واضحان في هذا غاية الوضوح. ولا يزيغ عنهما إلا جاهل أو صاحب هوى! والمحب الحقيقي الصادق يخاف من الحرمان، ويخشى من العقوبة؛ بقدر ما يرجو ويشتاق! فإذا جرد المحبة عن الخوف والرجاء كان من الكاذبين! كيف؟ ورب العالمين يقول عن صفوة من أنبيائه ورسله: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)(الأنبياء:90). كيـــف؟ وهذا محمد رسول اللهε سيد الأولين والآخرين يعلنها في الأمة: (أمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له! [وفيه قال:] فمن رغب عن سنتي فليس مني!)([58])! ألا وإن أي انحراف عن هذه السبيل لا يكون إلا جهلا بالدين أو زيغا من الضلال المبين!

فعلى هذا الوِزَانِ إذن؛ نقول إن عقيدة الإسلام قائمة على المحبة، بل إنهـــا ميثـــاق المحبة! وبذلك المعنى كانت تفيض بأنوار الجمال ومباهج الجلال! فليس عبثا أن يقول النبي ρ: (إن الله تعالى قد حرم على النار من قال: «لا إله إلا الله» يبتغي بذلك وجه الله)[59] أكلمة واحدة تتلفظ بها فتدخل الجنة؟.. نعم؛ ولكنْ..! إنها ليست بكلمة ولا كلمـــات..

---

[58] متفق عليه.

[59] – متفق عليه.

إنها توجه قلبي وميل وجداني! إنها مسألة (حب)! وإن من أحب الله أحبـــه الله..! إنهـــا حقيقة جميلة وعظيمة. وإن عدم إدراكها ذوقا ووجدانا قد كان سببا في تضـــييع معـــاني الدين، وانحراف كثير من الناس عن منهاجه المستقيم! ولقد همت شخصيا عن هذا المعـــنى زمنا!

ولي في هذا الشأن قصة! أذكرها لعل فيها ما ينبئ عما تعانيه حركـــة التـــدين في المجتمع اليوم. عسى أن نتمكن من تشخيص مكمن الداء.

وذلك أني في فهمي للدين عموما، وللعقيدة منه خصوصا، مررت بثلاث مراحل: المرحلة الأولى هي التي ورثتها عن بيئتي الإسلامية التقليدية، حيث كان الدين بالنســـبة لي سلوكا خاصا بالشيوخ، وكأنما هو على طائفة الشباب نفل وتطوع! ثم إن عبارة (لا إله إلا الله) كان أقرب عندي إلى الشعار منه إلى (الشهادة)! فلم أكن أفهم منها أكثـــر مـــن مجرد كونها عنوان الدخول إلى الإسلام، واكتساب صفة (مسلم)، كما هي عنـــد ســـائر الناس! لكن هذا المعنى ولله الحمد لم يدم في تصوري طويلا، فقـــد انتبـــهت في مرحلـــة الشباب الأولى إلى شيء اسمه (الحركة الإسلامية)، وذلك بسبب ما كان يصلني عنها من أصداء وصراعات، خاصة في الصف الطلابي بالجامعة! وأنا آنئذ ما أزال تلميذا بالصـــف الثانوي.

فكانت تلك إذن هي المرحلة الثانية في حياتي الدينية، وبحلولها زالت الصورة الأولى التقليدية من ذهني، وأبدلتها بما صرت أتلقاه من أدبيات إصلاحية، ومقـــولات دعويـــة جديدة، مثل: (الإسلام دين ودولة، ومصحف وسيف.. الخ). ثم بدأ الـــوعي يتطـــور في الاتجاه نفسه، إلى تقرير أن (لا إله إلا الله منهج حياة!) وأن (الحاكمية لله) وهكـــذا بـــدأ الوعي الديني يتسع في وجداني شيئا فشيئا، حتى انخرطت في حركة الوعي الإسلامي عاملا بهذه المفاهيم مجاهدا في سبيلها.

لكني أصدقكم القول: لقد مر علي دهر وأنا أعمل على هذه التصورات، دون أن أجد للدين لذة في وجداني! هذه هي الحقيقة! إنني لا أتهم تلك التصورات بالقصور، كلا! ولكن..كانت ظروف التلقي سيئة للغاية! لقد انفتح وعيي الجديد هذا على مرحلـــة (رد الفعل غير المتوازن) في تاريخ الأمة المعاصر. فكان أن تلقيت كل التصورات الجديـــدة في

سياق مواجهة الغرب، ومقاتلة العلمانية، ومدافعة الماركسية؛ ومجاهدة الطغيان السياسي، والظلم الاجتماعي؛ فاكتسبت من صفات المحامي كثيرا، بيد أني لم أكتسب من سلوك المؤمن إلا قليلا! فعشت مع الناس أكثر مما عشت مع الله؛ لأن هذه الظروف جعلتني أفهم عقيدة (لا إله إلا الله) في سياق واحد ووحيد: هو أن (الحاكمية) إنما هي لله. وبدا لي زمنا أن ما سوى تصحيح قضية الحكم والتشريع في الدولة جزئيات من الدين، لا تستحق أي اهتمام! وكانت لنا أنشطة في هذه الاتجاهات، فبدأت ألاحظ أن معي على الجبهة الواحدة، من يخطب الليل كله، ولا يصلي لله فريضة واحدة في وقتها! فإن فعل فبلا خشوع ولا طمأنينة! ينقرها نقر الغراب! لقد تعلمنا شهوة الكلام! نعم؛ اتبعنا الشهوات وأضعنا الصلاة إلا قليلا! وبدأت أرى الآفات الخطيرة تعصف بالصف الإسلامي: العُجْب، وحب الرياسة والتصدر أمام وسائل الإعلام. ورأيت بأم عيني أن هناك فتنة أخرى، لم أعرفها من قبل: هي فتنة (الكاميرا)، أو فتنة (الميكرفون) كما سماها بعض الظرفاء! ورأيت رقة في الدين تجتاح الصفوف المتدينة كالوباء الفتاك، وسقوطا هنا وهناك، يتتابع بين الإخوان والأخوات على السواء!

المنادي ينادي للصلاة: حي على الصلاة! حي على الفلاح!.. وخطاب الواجهة الفاتنة المفتونة مستمر كأنه لا يسمع شيئا! وضربت الصفوفَ الدينية آفاتُ المجتمع المريض، من رعونة وتحلل خلقي، وانسياق وراء كثير من مغريات الحياة الدنيا وفتنتها. وبدأت أسأل نفسي متهما إياها: أي دين هذا؟ وأي صلاح هذا؟ وبدل أن يتنافس شباب الصحوة الإسلامية حول منازل العلم، ومقامات التقوى والورع، بدؤوا يتنافسون حول حدود الشبهات، ويتبارون أيهم أقدر على الرعي حول الحمى دون أن يقع فيه! زعموا..! وانطلق السباق نحو الهاوية! أين المشكلة إذن؟

هذه هي البرامج التربوية تترى تأليفا وتنظيرا، وهذه هي المطبوعات التصورية تتواتر، ولكن بلا جدوى! وبلا فائدة! فإنها جميعها تبقى على رفوف مقرات الحركات ومكاتبها موقَّرة إلى إشعار آخر! فأين الخلل؟ ولطالما وُضِع هذا السؤال، ولكن أين من يتابعه؟

وبقي الأمر بالنسبة لي غامضا، حتى لقيت بعض أساتذتي الأجلاء، ممن تتلمذت عليهم، وأخذت عنهم علم الدعوة وعلم البحث العلمي، فكانت لي معه جلسة مذاكرة حول بعض مفاهيم القرآن الكريم، وتحدثنا عن بعض النماذج من بينها مفهوم (الإله) في القرآن الكريم، فنبهني إلى الأصل اللغوي لهذه العبارة، من أنه راجع إلى معنى قلبي وجداني، وذكر لي شيئا من الدلالة اللغوية على المحبة، مما بينته قبل قليل، فكانت بالنسبة لي مفاجأة حقيقية! لا على مستوى الفهم فقط؛ ولكن على مستوى الوجدان والشعور!

نعم؛ أذكر أني قرأت مثل هذا قبل ذلك بكثير، ولكن اندماجي الكلي في تصوراتي الأخرى، وانغلاقي على (توحيد الحاكمية) إن صح التعبير، أعماني عن مشاهدة (توحيد المحبة!) الذي هو الأصل، والمفتاح الحقيقي لتوحيد الإلهية! والذي منه تفرعت فروع شتى منها توحيد الحاكمية نفسه. لقد جعلت الجزء محل الكل، وجعلت الفرع محل الأصل؛ وعشت في فهمي متناقضا! فسرت في تديني مختلا كسائر المختلين! حتى مَنَّ الله باللحظة التي انتقلت خلالها إلى مرحلتي الجديدة: حيث بدأت المراجعة في حياتي كلية، واكتشفت حقيقة أن هناك شيئا اسمه (حلاوة الإيمان)، ذوقا لا تصورا! وحقيقة لا تخيلا! ثم بدأت أعود إلى القرآن.. فوجدت أني كنت بعيدا جدا عن بشاشته وجماله! وبدأت أعود إلى السنة؛ فوجدت أني كنت أجهل الناس بأخلاق محمد عليه الصلاة والسلام! وبدأت أراجع ما قرأته عن العقيدة، فوجدت صفحات مشرقة مما كتب السلف الصالح، قد مررت عليها مرور الأعمى – لا مرور الكرام – بسبب ما غطى بصري من فهوم سابقة. حتى كأني لم أقرأ قط!

قلت: لم تكن مفاجأتي علمية بقدر ما كانت وجدانية! لقد كنت أقرأ عبارات "المحبة، والشوق، والخوف، والرجاء" ولكن دون أن أجد لها شيئا من نبض الحياة بقلبي!

فمثلا هذا كتاب (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد) للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ – وهو خلاصة للعقيدة السلفية - قد خضت به معارك ضد أهلي وعشيرتي زمنا! وأنا أقرب إلى المراهقة يومئذ مني إلى الشباب! ولقد ظللت أحارب به البدع والضلالات والمنكرات، في الاعتقاد والعبادات، اقتداء بشيخ شيوخنا العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي رحمه الله، بيد أني كنت ألحظ أن كثيرا من هؤلاء (المبتدعة) هم

أفضل مني حفظا للصلاة وأوقاتها! إني لا أتهم الكتاب المذكور، ولكـــني أتهـــم نفســـي ومنهجي في القراءة والاستعمال! لقد كانت العقيدة السلفية عندي عصا مـــن خشـــب، صماء بكماء! أضرب بها غيري!.. ولم أدرك أنما هي تربية ورحمة للعالمين! وإني لأعجب كيف لم أنظر إلى هذا المعنى من قبل في الكتاب المذكور؟ قال الشارح رحمه الله في سياق ذكر كلام العلماء في معنى (لا إله إلا الله): (وقال شيخ الإسلام [ابن تيمية]: الإله هـــو المعبود المطاع، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد. وكونه يستحق أن يعبد هو: **بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غايـــة الحـــب! المخضوع له غاية الخضوع! قال: فإن الإله هو المحبوب المعبود، الذي تألهـــه القلـــوب بحبها** (...) **وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا لله وحده**. ولهذا كانت "لا إلـــه إلا الله" أصدق الكلام! وكان أهلها أهل الله وحزبه (...) فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق! وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله.

وقال ابن القيم: (الإله) هو الذي تأله القلوب محبة، وإجلالا، وإنابة، وإكرامـــا، وتعظيما، وذلا، وخضوعا، وخوفا، ورجاء، وتوكلا.

وقال ابن رجب: (الإله) هو الذي يطاع فلا يعصى؛ هيبة له وإجـــلالا، ومحبـــة، وخوفا، ورجاء، وتوكلا عليه (...)

وقال البقاعي: "لا إله إلا الله"، أي انتفاءً عظيما أن يكون معبودٌ بحق غير الملـــك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة! (...)

وقال الطيبي: (الإله) فِعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أَلِه إلهـــةً، أي: عبَدَ عبادةً.

قال الشارح: وهذا كثير في كلام العلماء وإجماع منهم!)[60]

عجبا!.. أين كنت أنا إذن من مثل هذا الكلام؟ (السكون إلى حب الله.. الـــذي تأله القلوب!) أهي عقيدة قلبية وجدانية إذن؟ وهو إجماع من العلماء؟

---

[60] - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لعبد الرحمن آل الشيخ: 53-54

أي عمى هذا الذي ركضت وراءه في نقع الخصومات والجدالات، التي لا تغـــني ولا تسمن من جوع؟ وهذا قلبي ظل فارغا من رقة الحب وأذواق التعبد! أليس ذلك هـــو الضلال المبين؟ لقد أسأت زمنا طويلا في فهم عقيدة السلف الصالح!

لقد رسخ في ذهني — بعد المشاهدة والمعاينة للآثار السلبية التي ترتبت عن التكوين العقدي القائم على نفسية ردود الأفعال المتشنجة، وعقلية التفتيش المذهبي – أننا في حاجة ماسة ومستعجلة؛ لإعادة قراءة عقيدة السلف الصالح من مصـــادرها الأولى! وإلى إعـــادة قراءة أعلامها الكبار الذين تميزوا في التاريخ الإسلامي بالريادة والقيادة، وأسهموا في بناء صرح الأمة وتجديد حياتها، كالأئمة الأربعة أبي حنيفة، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، ومن جاء بعدهم من المتميزين في هذا السياق، مثل حافظ المغرب أبي يوســـف عمر بن عبد البر، ومجدد زمانه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم... إلخ.

هؤلاء وأضرابهم جميعا، وقع خطأ منهجي كبير في قراءتهم! لقد كان الفكر السلفي المعاصر — في بعض تجلياته – إذ يقرأ تراثهم إنما يقرؤه — في كثير من الأحيان – بمنـــهج تجزيئي إسقاطي!

فأما كونه تجزيئيا؛ فلأنه كان يقرؤه بعين واحدة! فلا يرى من حقيقته إلا ما تتيحه له تلك الرؤية الجزئية المحدودة! فلا يتصور حقيقته في شموليته الكلية. فهذا شيخ الإســـلام ابن يتيمية مثلا، لا تصوره كثير من المصنفات المعاصـــرة إلا شخصـــا مقـــاتلا محاربـــا! متخصصا في تفصيل في مذاهب أهل النار؛ دون مذاهب أهل الجنة! فكل من أراد أن يَصِمَ شخصا بصك الجحيم، ما عليه إلا أن يخرج عليه سيف المقولة المشهورة: (قـــال شـــيخ الإسلام ابن تيمية!) وكأن ابن تيمية رحمه الله ما خلقه الله إلا للاستشهاد به على أهـــل الضلال وحسب! وكأنما تحولت نصوصه وفتاواه إلى مجرد صكوك اتهام، تقرأ على الضحية عند تنفيذ حكم الإعدام!

أين ابن تيمية الداعية إلى الله؟ أين ابن تيمية المربي؟ وأين ابن تيميـــة الســـالك إلى مولاه عبر منازل الخوف والرجاء؟ والشوق والمحبة؟ وأين ابن تيميـــة صـــاحب الأذواق الإيمانية والأحوال السنية؟.. ولقد حفلت كتبه وفتاواه بمعـــاني (الجماليـــة)، ومقاصـــد (الربانية) في الدعوة والتربية والتعليم؛ ما يصعب — لغزارته – حصره واسقصاؤه! كما أن

تلميذه الإمام الرباني ابن القيم رحمه الله، قد حكى عنه من ذلك الشيء الكثير! فأين ضاع ذلك كله؟

وأما كونه إسقاطيا؛ فلأنه تم استعمال ابن تيمية؛ للتعبير عن مشكلات العصر النفسية والسياسية بصورة حرفية! ففُسِّرت نصوصُه بما تقتضيه حالة رد الفعل النفسي والاجتماعي - بصورة غير متوازنة - عن ظروف الظلم السياسي، ومظاهر الخلاف العقدي والمذهبي، بين طوائف وجماعات، ودول وتحالفات! وتم إسقاط زماننا على زمانه رحمه الله، وإلباس أحوالنا لأحواله! دون مراعاة الفروق بين الثوابت والمتغيرات، سواء منها ما تعلق بالنصوص أو بتحقيق المناطات! وفي ذلك ما فيه من الشطط العلمي والانحراف المنهجي!

ولذلك فقد تمت عملية (إخراج) سيئة لشخص ابن تيمية - لدى بعضهم - على أنه شخص لا ذوق له ولا وجدان! وإنما هو السب والشتم واللعان! وما أبعد شيخ الإسلام - رحمه الله - عن ذلك وأبرأه!

ولو تتبع متتبع نصوص فتاواه ومؤلفاته جميعا؛ لجمع من مشاهد الجمالية وأذواقها عنده في الدين والتدين الشيء الكثير! ولولا أن نخرج عن غرض هذا الكتاب لعرضنا من نصوصه مواجيد وأذواقا! وأحوالا رِقَاقاً! ولكن لك أن تقرأ من ذلك هذه الإشارات! فقد تحدث رحمه الله عن أحوال المؤمن لدى سماع القرآن الكريم، وذلك في سياق ذكر (السماع) بمعناه الشرعي، وأورد فيه آيات وأحاديث، ثم قال: (وهذا كان سماع سلف الأمة، وأكابر مشائخها، وأئمتها، كالصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المشائخ، كإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، وأمثال هؤلاء.. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري: **يا أبا موسى! ذَكِّرنا ربَّنا! فيقرأ، وهم يسمعون ويبكون!** (...) **ولهذا السماع من المواجيد العظيمة، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف، والأحوال الجسيمة؛ ما لا يتسع له خطاب، ولا يحويه كتاب! كما أن في تدبر القرآن وتفهمه؛ من مزيد العلم والإيمان، ما لا يحيط به بيان!**

ومما ينبغي التفطن له أن الله سبحانه قال في كتابه: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(آل عمران: 31) (...) فبيَّن سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسولε، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد. وهـذه محبةٌ امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله! فإن هذا الباب تكثر فيه الدعاوى والاشـتباه! ولهـذا يُرْوَى عن ذي النون المصري أنهم تكلموا في مسألة المحبة عنده؛ فقال: "اسكتوا عن هـذه المسألة؛ لئلا تسمعها النفوس فتدعيها"! (...)

وكان المشائخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبـة، والخوض فيها من غير خشية! لِمَا في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة!

وما وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال؛ أوجب إنكار الطوائـف لأصـل طريقة المتصوفة بالكلية! حتى صار المنحرفون صنفين: صنف يقـر بحقهـا وباطلـها! وصنف ينكر حقَّها وباطلَها! كما عليه طوائف من أهل الكلام، والفقه!

والصواب: إنما هو الإقرار بما فيها، وفي غيرها، من موافقـة الكتـاب والسـنة، والإنكار لِمَا فيها، وفي غيرها، من مخالفة الكتاب والسنة!)[61]

فأي جمال هذا وأي إحسان! وأي فقه هذا وأي ميزان! ألا رحم الله شيخ الإسلام! ما كان أبعده عما صوره عليه كثير من مدعي السلفية في هذا الزمان!

[61] مجموع فتاوى ابن تيمية: 10 /80- 82

المشهد الثاني:
في جمالية التعريف القرآني بالله

توحيد الإلهية في الإسلام متضمن لتوحيد الربوبية. ولا يسلم للإنسان ذاك إلا بسلامة هذا؛ بمعنى أنه إذا كانت (لا إله إلا الله) شهادة على ما في القلب؛ من تعلق بالله وحده، فإنه لا بد أن يكون ذلك مبنيا على المعرفة بالله ربا! أي اعتقاد عقيدة الإسلام فيما يتعلق بذات الله وصفاته سبحانه وتعالى. ونحن هنا إن شاء الله لن نتناول المسألة كما تناولها المتكلمون، وإنما سنعمل على استعراض ما في النصوص القرآنية والحديثية، من لطائف وجدانية في المسألة، لندرك مدى استجابة هذا الجانب العقدي: (الربوبية) لما أصلناه من جمالية العقيدة الإسلامية، ومدى مطابقته لما قامت عليه (الإلهية) من معان قلبية وجدانية.

وذلك أن الإيمان بالله من حيث هو تعالى (إلهٌ) تألهه القلوب؛ إنما هو بسبب الإيمان الحقيقي بالله من حيث هو (رب)، أي سيدٌ أَوْحَدُ لهذا الكون؛ خلقا وتقديرا وتدبيرا. فالربوبية إذن – لمن عرفها حقا وصدقا - جالبة للمحبة؛ لأنه إذا كانت الإلهية – وهي عقيدة المحبة وما تفرع عنها خوفا ورجاءً، كما أصلنا – مبنيةً على (الربوبية)؛ فمعنى ذلك أن الربوبية ذات خواص تجذب إليها القلوبَ فتألهها!

نعم لقد كانت العرب تؤمن بالله ربا، ثم تشرك به عبادةً! أي أنها تشرك به تعالى في ألوهيته، رغم أنها تؤمن به في ربوبيته! ولكن إيمانها ذاك إنما كان إيمانا تصوريا لا معرفة فيه! ولذلك لم ينتج تعلقا بالله ولا تأليها له! قال تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)(العنكبوت:61). ففعلهم كان مناقضا لقولهم في الربوبية: (فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ؟) فهو إذن قول مغشوش وإيمان منقوص! ذلك أن منهج القرآن مستقر بشكل واضح في أن العلم الحقيقي بالربوبية، القائم على التدبر والتفكر في خلق السماوات والأرض وما بينهما؛ مفضٍ بإذن الله إلى توحيد الألوهية! وهو ما حفلت به الآيات في غير ما آية وسورة! وانظر - إن شئت - إلى أي دعوة قرآنية إلى التوحيد والإيمان؛ تَجدْ سياقها قائما على عرض خصائص الربوبية، بشكل واضح لا غبش فيه! قال جل علاه: (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا

بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)(سبأ:47). وإنما كانت حجة الله البالغة – جل جلاله – على المشركين به في ألوهيته هي تجلية حقائق ربوبيته! قال سبحانه: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلا غُرُورًا. إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)(فاطر: 40-41) فتبين أن من عرف حقيقة الربوبية وشاهدها ببصيرته لا يمكن إلا أن يكون من الموحدين لله في ألوهيته بإذن الله! ولقد أصَّلْنَا هذا المعنى في غير هذا الموطن وفصلناه تفصيلا![62]

فتبين أن القول بأن العرب كانوا موحدين للربوبية دون الألوهية؛ ليس على إطلاقه! بل الحقيقة أنهم كانوا على جهل بهما معا! وإنما الذي ذكره القرآن العظيم عنهم لا يعدو المعرفة التقليدية العامة، لا المعرفة العلمية الحقة، القائمة على البصيرة القلبية والمشاهدة الذوقية! وإنما العالمون بالربوبية حقا هم المؤمنون به تعالى فقط! فالعلم بالله يورث خشية الله ومحبته! وذلك هو المنهج القرآني الذي وجب أن ترد إليه سائر الفهوم والله تعالى أعلم. واقرأ – إن شئت – قوله تعالى الصريح الواضح في ذلك، وهو يعرض – جل ثناؤه – بعضَ خصائص الربوبية، وبعض تجلياتها من الخلق والتكوين، وكيف أن العلماء بالله – من هذه الجهة أساسا – هم الأخشى له تعالى والأتقى! قال سبحانه: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)(فاطر: 27-28).

الله ربّاً هو بدء تدفق الجمال على عقيدة الإسلام؛ إذْ أن جمال الرب عز وجل يفيض من بهاء ذاته تعالى وصفاته. وإنما صفاته تعالى هي صفات الجمال والجلال! إنه النور الخارق الذي لا يطاق! فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: (قام فينا رسولُ اللهε بخمس كلمات، فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام! يخفض القِسْطَ ويرفعه. يُرْفَعُ إليه عملُ الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عَمَلِ الليل! حِجَابُهُ النور! لو كشفه

[62] البيان الدعوي: 139-148.

لأحرقتْ سُبُحَاتُ وجْهِهِ ما انتهى إليه بصرُه من خلقه!)[63] والسُّبُحَات، جمع سُبْحَة: وهي ما يفيض عن الذات الجميلة من لآلئ النور، ونوابض الحسن، وأشعة الجمال.([64]) ومن هنا وصف سبحانه أسماءه – وهي أسماء صفات – بكونها (حسنى)! إنها أنوار متدفقة من مشكاة الله ذات البهاء الدري.. قال عز وجل: [وَلِلهِ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا!] (الأعراف: 180). وقال سبحانه: [قُل ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى] (الإسراء: 109). ومن هنا كانت البداية في قصة المحبة!

الله.. هو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء. سبحانه وتعالى علوا كبيرا. إنما عرفه الإنسان أول ما عرفه (ربا) فلما عرف منه تعالى ما عرف، ألهه قلبه فعبده! إن أول نعمة إلهية ظاهرة فاضت أنوارها على الإنسان؛ من مشكاة أسماء الله الحسنى: (الخالق) و(البارئ) و(المصور)، وما إليها من الأسماء والصفات؛ كانت هي خلق آدم عليه السلام! ثم توالت عليه بعد ذلك النعم تترى.. مما لا يحصى ثناء وشكرا! رزقا ورعاية وهداية.. إلخ. ولذلك وجب أن يكون أول ما ينطق به الإنسان – أي إنسان – في حق ربه سبحانه وتعالى هو الحمد والشكر أولا، وقبل أي شيء! ومن عجيب أمر الله الكوني سبحانه، أن أول كلمة نطق بها آدم عليه السلام بُعَيْدَ ما انبعث فيه الروح هي (الحمد لله رب العالمين)! حدث رسول الله ρ أصحابه يوما، فقال: (لما نفخ الله في آدم الروح، فبلغ الروح رأسه عطس، فقال: "الحمد لله رب العالمين" فقال له تبارك وتعالى: "يرحمك الله") [65]

ولذلك فإن القرآن الكريم – وهو كتاب الله – افتتح بالحمد لرب العالمين، وتمجيد أسمائه الحسنى، ثم بعد ذلك ثنى بالعبادة، التي هي نتيجة للربوبية. فكانت سورة الفاتحة – وهي فاتحة القرآن – كما تقرؤون: [الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ.] آمين! فهي من البداية – سواء اعتبرنا البسملة جزءا

[63] رواه مسلم، وأحمد، وابن ماجه واللفظ له. ورواه أيضا ابن حبان في صحيحه، وأبو عوانة والبزار.

[64] انظر شرح الإمام النووي على صحيح مسلم: 14/3.

[65] – أخرجه ابن حبان والحاكم. وصححه الألباني في سلسلته الصحيحة رقم: 2159.

منها أم لا – إلى قوله: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) إقرار بالربوبية المستلزمة للإلهية. والبـاقي كلـه إقرار بالإلهية. فالأول مستلزم للثاني! فإنما كان الحمد – وهو توحيد للإلهية – منبنيا على ما تحقق من أن الله هو رب العالمين وما تبعه بعد ذلك من الأسماء والصفات المذكورة. قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (إن الله – تعالى ذِكْرُهُ وتقدست أسماؤه – أدَّبَ نبيَّه محمداρ، بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى، أمام جميع أفعاله. وتقدم إليه في وصفه بها قبـل جميـع مهماته)[66] ثم قال: (ولكنه – جل ذِكْرُه – حَمِدَ نفسه وأثنى عليها بما هو له أهل، ثم علَّم ذلك عباده، وفرض عليهم تلاوته؛ اختبارا منه لهم وابتلاء. فقال لهم: قولوا: "الحمـد لله رب العالمين"، وقولوا: "إياك نعبد وإياك نستعين". فقوله: "إياك نعبد"، مما علمهم – جل ذكره – أن يقولوه ويدينوا له بمعناه. وذلك موصول بقوله: "الحمد لله رب العالمين") [67] .

إن توحيد الربوبية هو اعتراف بسيادة الله على الكون والخلق أجمعـين، اعترافـا يتضمن الرضى به ربا وسيدا، والإيمان بما له تعالى من صفات الجمال والجلال. فربوبيتـه سبحانه إنما تعرف من خلال صفاته تعالى؛ ولذلك فقد سمى عز وجـل نفسـه بأسمائـه الحسنى، وطلب منا إحصاءها والدعاء بها، أي أن نوحده في إلهيته تعالى بها! وذلك بـاب العبادة. ومن هنا كان توحيد الإلهية موصولا بتوحيد الربوبية، كما مر بنا في إشارة الإمام الطبري. وهو منطوق القرآن ومفهومه. قال تعالى: [وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَانِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ] (الرعد: 31). فأثبت الربوبية أولا من خلال اسمه الرحمن، ثم ثنى بكلمة الإخلاص باب التعبد.

والجميل حقا أن ربوبيته تعالى تتجلى في أسمائه الحسنى، ومن هنا كان البدء بها في القرآن، وفي كل أمر ذي بال! إن جمال الربوبية المتجلي في جمال الصنعة، وكمال الخلق، وتدفق الإنعام، والفيض على العالمين بالحياة ... الخ هو الذي بهر القلوب المحبة للجمـال، فخضعت له عابدة متبتلة في محاريب الإيمان، مقرة أنه: « لا إلـه إلا الله »! إن المحـب الذي فني في المحبوب إنما حصل له ما حصل؛ لما رآه في محبوبه من خصال الجمال والجلال! قال تعالى: [هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ. هُـوَ

[66] – جامع البيان: 50/1.

[67] – جامع البيان: 61/1.

اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ وهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ] (الحشر: 21-24).

إن تقرير أن (لا إله إلا الله) في هذا السياق جاء مبنيا على التعريف بالله، من خلال عدد من أسمائه الحسنى! فمن أدرك ما تقتضيه هذه الأسماء من صفات الجمال والجلال، لزم أن يكون أول العابدين لله، ولذلك جاء تكرار كلمة الإخلاص في السياق، كما تم تتريه الله عن الشرك: (سبحان الله عما يشركون) والشرك معنى تعبدي قلبي ذوقي! قال ابن القيم رحمه الله: (وأصل الشرك بالله: الإشراك في المحبة)[68]. إذ هو راجع إلى ما بالقلب من هوى، يميل بالنفس إلى معبود خفي أو ظاهر؛ رغبا أو رهبا، أو هما معا. فينكر الله ذلك إنكارا: (سبحان الله عما يشركون)! كيف وها لله الأسماء الحسنى؟ (له الأسماء الحسنى) صفات الرب في جماله وجلاله وعظيم ملكه وسلطانه. ولذلك كان الكون كله خاضعا له تعالى تسبيحا وتأليها: (يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ وهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ). ولكن أكثر الناس لا يشعرون!

(الله..) هذا الاسم العظيم، الدال على الذات الإلهية، يثقل وقعه في القلب العارف به تعالى حتى التصدع! قال ρ: (ولا يَثْقُلُ مع اسم الله تعالى شيء!)[69]. إنه ثقل الربوبية الذي ينزل بجلاله وجماله الذي لا يطاق على الصخر؛ فيجعله دكا! [فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً] (الأعراف: 143) [لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ] (الحشر: 21)

من هنا إذن كانت معرفة الربوبية مورثة لمحبة الله، أي لعباداته، ولذلك فقد وردت التوجيهات التربوية النبوية للأمة العابدة المحبة لربها؛ أن تذكره تعبدا بجلال ربوبيته سبحانه. قال ρ: (من قال: رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا؛ وجبت له الجنة!)[70] وذكر النبي ρ في هذا السياق قصة طريفة مفادها: (أن عبدا من عباد الله قال: " ياربي لك

[68] – الداء والدواء لابن القيم: 225.

[69] – رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي. وصححه الألباني في (ص.ج.ص): 1776.

[70] – رواه أبو داود، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في (ص.ج.ص) رقم: 6428.

الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك! " فَعَضَلَتْ بالمَلَكَيْن، فلم يدريا كيـــف يكتبانها، فصعدا إلى السماء، فقالا: ياربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها! قال الله عز وجل – وهو أعلم بما قاله عبده – ماذا قال عبدي؟ قالا: يارب إنه قد قال: " ياربي لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك!"فقال الله عز وجـــل لهمـــا: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها!)[71]. إن الإعضال الذي حصل للملائكـــة الكتبة، إنما هو بسبب أن هذا العبد قد حمد الله حمدا موصوفا بصفة الله المطلقـــة: (كمـــا ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك!) وهو ما لا يمكن أن يحيط به عبد من عبـــاد الله علما! لأنه متعلق بما هو عليه الله (ربا) في ذاته تعالى وصفاته، من جمال وجـــلال، وبمـــا يفيض عن سلطانه العظيم، من تقدير وتدبير على الإطلاق! وعلم ذلك هو عين المستحيل، فكان أن فزع المَلَكان إلى الله من هذا التعبير الذي أربكهما إرباكا!.. إنها عظمة الربوبية، التي توجب الخضوع لله الواحد القهار.

إن هيبة الجمال والجلال في ذات الرب العظيم، تورث العبودية في القلب المـــؤمن بالله – كما ذكرنا – ومن هنا كان ذلك الفضل الكبير الذي بشر به النبي ρ لمن أحصى أسماء الله الحسنى أو حفظها؛ لما لهذه الأسماء من أنوار، لا تفتأ تفيض عـــن ذات الـــرب سبحانه وتعالى بمعاني الكمال والجلال. قال المصطفى ρ: (إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما: مائة إلا واحدا. من أحصاها دخل الجنة!)[72] وفي رواية أخرى: (إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما: مائة غير واحد. لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر) [73]. والحفـــظ والإحصاء المذكوران في الحديثين لا يدلان على المعنى الشكلي للفعلـــين، مـــن عـــد أو استظهار فحسب، وإنما يدلان على الحفظ بمعـــنى الاســـتيعاب القلـــبي، والاستحضـــار الشعوري، كما في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَـــزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)(يوسف: 55) مشيرا بالحفظ إلى الأمانة وهي معنى قلبي محـــض. وكذلك (الإحصاء) إنما هو الوعي والتمثل للمعنى بما يدل على الاهتمام البالغ به. قال عز

---

[71] – رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجة، ورجاله ثقات.

[72] – متفق عليه

[73] – متفق عليه.

وجل: [أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] (المجادلة: 6) فدل بدلالة المقابلة أن الإحصاء ضد النسيان، وأنه إنما يكون متعلقا بما له أهمية عند المحصي.

فقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: "من أحصاها" وفي الآخر "يحفظهـــا" دال على التمثل القلبي والاهتمام الشعوري بأسماء الله الحسنى؛ بما يكفي لحفظها وإحصـــائها؛ فلا تنسى لرسوخها في القلب، وانتقاشها على جدرانه؛ ولذلك كان جزاؤه الجنة!

إن تَمَثُّلَ مقتضيات أسماء الله الحسنى، تمثل المحب، المتعلق ببابه الكريم، يرجو وصاله والنهل من أنواره، هو الذي يفتح الطريق للعبد السائر إلى الله، للحصـــول علـــى الإذن الملكي العالي؛ إكراما لمحبته والتعلق بأسمائه.

من هنا إذن كان التعريف القرآني للذات الإلهية – من حيث إن الله هو الـــرب الأعلى – قائما على هذا الأساس: الله حقيقة المحبة الكبرى! لأن جمال ربوبيته تعالى، هو مركز جاذبية إلهيته سبحانه!

ومن أطرف المواقف الإلهية، وأكثرها جمالا وجلالا، خطابه تعالى لنبيه موسى عليه السلام، بجانب الطور الأيمن.. إنه حدث وجداني عظيم يهز القلب هزا! موسى تائـــه في غسق الليل بين الجبال، ساريا بأهله، يبحث عن دفء، حتى إذا تفرد بين الشعاب باحثـــا سمع الله يتكلم!.. أتدرون ما تقرؤون؟ إنه سمع الله يتكلم! وتلك حقيقة كونية رهيبـــة! لا تسعها العقول تصورا، ولا القلوب استشعارا! ولكن الأجلَّ في الموقف أنه يتكلم معه هو بالذات! الله الملك العظيم رب الأرضين والسماوات، رب الفضاءات والمدارات؛ يكلـــم هذا العبد الضئيل، بل هذه الذرة الدقيقة التائهة في الفلوات!.. هل تســـتطيع أن تتصـــور نفسك هناك؟.. إذن أنصت لكلام الله: [إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ!.. لا إِلَهَ إِلا أَنَا! فَاعْبُـــدْنِي وَأَقِـــمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي!] (طه: 13).

موسى التائه الباحث يسمع متكلما، فيجده أنه يخاطبه ويُعَرِّفُهُ بنفسه، فكانت هذه الكلمات الجليلة العظيمة: (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا!) إلخ الآية.. عبارات شارحة لمعـــنى الإسلام وعقيدة الإسلام، عقيدة المحبة العليا.. فقد سمى الله نفسه سبحانه باسمـــه العَلَـــم؛ معرفا بذاته: (الله). وهو الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات العُلَى.. ثم قرر مـــا ينبغي أن يعرفه العبد عن ربه: (لاَ إِلَهَ إِلا أَنَا)، فلا ينبغي أن يسكن قلبك يا موسى حُـــبُّ

سواي، ولا أن تجرد وجدانك لغيري، فمقام الإلهية يقتضي من الخلق الانتظام في سلك الخدمة، والطاعة لسيد الكون، الرب الأعلى. وذلك تفريغ القلب من كل المقاصد؛ سوى قصد الله، وتجريده غضنا فقيرا بين يديه تعالى؛ إلا من أنداء الشوق وخضرة الرضى، تنساب مستجيبة لأنسام المحبة الإلهية أنى هبت، انسيابا لا يجد معه العبد كلفة ولا شقّا، بل هو انسياب الواجد راحته ولذته في عبوديته لرب العالمين، واهب الألطاف الخفية، والأسرار البهية، الملك الحليم ذي الجمال والجلال.

(إنني أنا الله!) هذا الاسم العظيم الجامع لكل معاني الربوبية والإلهية، يقتضي تمثله على مستوى القلب شعورا بالرغبة والرهبة، وهما صفتان تفيضان عن القلب الذي وجد لمسة الحب! وهو مخ العبودية. وإنما العباد سالكون بين ضفتي الرغبة والرهبة، والخوف والرجاء! فأنْعِمْ به مِنْ جمال في السير! وأكْرِمْ به مِنْ بهاءٍ في السُّرَى! ولذلك قال له بَعْدُ: (لا إله إلا أنا)؛ لأن المتمثل لحقيقة (الله)، (إنني أنا الله) ربوبيةً وألوهيةً؛ لا يملك إلا أن يخضع لله شاكرا وعابدا! فليكن إذن خضوعا لا يشرك معه فيه أحداً!

(لا إله إلا أنا) تقرير اعتقاد، نعم؛ لكنه من العبد شعور.. يحتاج إلى مصداق من الأعمال والفعال. وهل يملك من يجد في قلبه شيئا أن يكتمه؟ خاصة إذا كان هذا الذوق الموجود، من الجمال والجلال ما لا يستطيع قلب بشري أن يحتمله سرا إلى الأبد! فلا بد إذن من التعبير، وذلك هو أركان الإسلام الخمسة: النطق بالشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا. أعمال وأفعال كلها تسلك بالعبد مسلك الخدمة والطاعة لله رب العالمين، وتشعر صاحبها بمقدار ما يجده في قلبه من الحب، وما يعترف به من إقرار على نفسه، إذ شهد أنه: لا إله إلا الله. فإلى أي حد هو صادق فيما عبر به عن نفسه؟ إنها شهادة على القلب. أفتراه كان صادقا كل الصدق أم بعضه؟ ولذلك قال عز وجل لموسى: (فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي!) العبادة إذن: هي التعبير.. التعبير الظاهر عما وجده المسلم في الباطن؛ إذ شهد ألا إله إلا الله. إنها تعبير المحب عما وجد من حب! وأي محب يستطيع الكتمان؟

وبقيت الصلاة في الإسلام كما كانت في الأديان السابقة أم العبادات. ولذلك خصها الله بالذكر هنا؛ رمزا لكل خضوع وخشوع: " وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي! ".. وما كل

أركان الإسلام – في الجوهر – مهما تعددت أشكالها وهيآتها إلا (صلاة)! ولذلك قـال النبي محمد ρ: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة)[74] وقال: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر!) [75] وقال: (بين الكفر والإيمان تَرْكُ الصلاة!) [76] وقـال أيضا: (بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة!) [77].. فكأنه عليه الصلاة والسـلام يقول: الإسلام هو الصلاة! لما في معنى الصلاة من جمع لكل مواجيد التعبد والخضوع لله رب العالمين، وذلك هو المقتضى العملي لكلمة الإخلاص: (لا إلـه إلا الله)، والترجمـة الفعلية للأمر الملكي: (فَاعْبُدْنِي!) الذي جاء تفسيره وبيانه بعدُ مباشرة: (وَأَقِـمِ الصَّـلاَةَ لِذِكْرِي!) فيا لجمال (الذِّكْرِ) في سياق الصلاة! ذلك التعبير المليء بالإيحاءات الوجدانية، التي تحدو الأحبة بالتراتيل الملتهبة شوقا لديار المحبوب!

وذكر الله هو مقام الأدب مع الله.. فالعبد الحقيقي هو الذي لا يفتأ يذكر سـيده فلا ينساه.. وهل ينساه حقا؟ إذن ليس بعبد! وإنما العبد من كان دائم الحضـور ببـاب الخدمة، لا يفتأ واقفا بأدب العبودية إلى جانب الأعتاب العليا.. فأنى ينسـى مـولاه؟ أن تصلي: يعني أن تكون دائم الذكر لله.. ولذلك كانت الصلاة أرقى تعبير عـن حضـور القلب مع الله: (وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي!)

تلك معان كلها تفيض عن شهادة أن (لا إله إلا الله). كلمة الإخلاص وعنـوان الإسلام لله رب العالمين. وهي الكلمة التي يفزع إليها المؤمن من الغم والكرب، تماما كما يفزع الصبي إلى أمه عندما يلم به مكروه! أتدرون لماذا؟ لأنها ببساطة أقـرب النـاس إلى وجدانه! ولو لم تكن كذلك لما نادى صبي في الدنيا إذا اشتغاث: أمـاه!.. إلا أن العبـد الذي سكن قصد الرب الأعلى قلبه، وامتلك عليه وجدانه؛ لا يفزع إلا إليه، بمقتضى (لا إله إلا الله) هل سمعت يونس عليه السلام إذ التقمه الحوت فغـاص في ظلمـات بطنـه،

---

[74] – جزء حديث رواه أحمد والترمذي وقال حسن صحيح. ورواه أيضا الحاكم وابن ماجة والبيهقي. وصححه الألباني في (ص.ج.ص): 5136

[75] – رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم، وصححه الألباني في (ص.ج.ص): 4143.

[76] – رواه الترمذي عن جابر. وصححه الألباني في (ص.ج.ص): 2849.

[77] – رواه الجماعة إلا البخاري والنسائي.

وظلمات البحر والليل، ثم ظلمة الغم الشديد الضاربة على تلك الظلمات جميعا! ألم تسمع ماذا قال؟

يقول رب العزة حاكيا عنه: [فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ!] (الأنبياء: 86) لقد كان أول التعبير استغاثة وجدانية: (لا إله إلا أنت!) لا يملك مواجيدَ القلب إلا أنت! لا محبوب، ولا مرغوب، ولا مرهوب إلا أنت! ثم كان التسبيح والتنـزيه فالاستغفار! يا سلام! أي جمال هذا وأي كمال؟ وأي أفق كريم فيما يتيحه هذا الدين السماوي للقلب؛ من سياحة وسباحة في عرض الملكوت؛ لاستدرار واردات الأنس والرحموت؟ يونس هذا العبد الذي أدرك - وهو في بطن حوت ضخم جدا، يخوض به المجهول، في قاع المحيطات الرهيبة - أن القلب إذا امتلأ بنور الله؛ كان الله معه، ومن كان الله معه أمن أمنا كليا! فلا يعدو هول البحر والحوت حينئذ مقدار حشرة في مستنقع! الله أكبر! وكأن يونس عليه السلام أدرك أن اختلال الشعور لديه بشهادة (ألا إله إلا الله) هو الذي أدى به إلى فراره عن قومه وتخليه عن رسالته، فرجع إلى ربه يستغفره: (أن لا إله إلا أنت!..) والقلب المتعلق بالله إلى درجة الامتلاء ما يكون له – وما ينبغي – أن يتحرك في كل أمره إلا من باب (الإذن)! فإذْ يفر من ربه آبقا، يعني أن تلك المحبة المالكة لمجامع القلب قد اعتلت بشيء! فليكن الاستغفار إذن بتجديد التوحيد للشعور الصافي، والإحساس الخالص لله وحده، بالتعبد والتودد، وبالتفريد والتجريد!

إن شهادة ألا إله إلا الله لهي توقيع عقد، وإمضاء التزام، بضمان الهوى لله وحده! كما في الحديث: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به!)[78] وكل ما جاء به ε هو (الإسلام). وقد علمتَ ما في هذا العبارة من معاني الخضوع للرب الأعلى. خضوع يفرغ القلب مما سوى الله. وهو أمر في غاية العمق الوجداني، والتحقيق الشعوري؛ ولذلك صعبت كلمة (لا إله إلا الله) على كفار قريش أن يقولوها! وهو أمر طبيعي، فقد أدركوا بفطرتهم اللغوية السليمة؛ أن هذه الكلمة تعبيد لمشاعرهم، قبل أن تكون تعبيدا لأفعالهم. وهو الأمر الذي لم يقبلوه! إذ كان (الشرك) قد ران على قلوبهم فلم يستطيعوا منه فكاكا.

---

[78] - قال النووي في آخر الأربعين: حديث حسن صحيح. رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح. وقال ابن حجر: (خرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات.) فتح الباري:289/13.

وما حقيقة (الشرك) إلا أهواء ومواجيد، سكنت قلوبهم فلم تصف بذلك لربها الملك الأعلى. إن الشرك بهذا الإدراك معنى قلبي كالتوحيد تماما. أعني من حيث إنهما معا شعور يحدث في القلب. وإن كانا متناقضين، كتناقض الحب والبغض، أو السخط والرضى!

فلم يكن من منطق الأشياء أن تدور معركة، بل معارك مريرة، بين الرسول ρ وبين العرب؛ من أجل أحجار هي الأصنام، التي كانت تعبد من دون الله. بل إن حقيقة المعركة كانت حول ما ترمز إليه تلك الأحجار، من أهواء ساكنة في قلوب العباد. فما كان صمود العرب في وجه الدعوة الإسلامية كل تلك المدة، حتى عام الفتح؛ حبا في الأوثان لذاتها، وإنما حبا فيما كانت ترمز إليه، وما كان يقع باسمها في قلوبهم، من حب لمجموعة من الأهواء، هي الآلهة الحقيقية، التي كانت تعبد من دون الله، من حب للجاه، وحب للسيادة، وحب للمال، وحب للتسلط على الفقراء والعبيد باسم الآلهة! أو قل باسم الصخور الجامدة! تلك الأهواء إذن هي الآلهة الحقيقية، التي كانت تعبد من دون الله، وما كانت الأحجار إلا تجسيدا لها في عالم المادة، ورمزا لما في عالم الإحساس. [أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ] (الجاثية: 22)

ومن هنا حرص النبي ρ على الإطاحة بأوثان الشعور، قبل الإطاحة بأوثان الصخور! وقد ظل بمكة يعبد الله قبل الهجرة ويطوف بالبيت العتيق وقد أحاطته الأصنام من كل الجهات؛ لأن عمله حينئذ كان هو إزالة أصولها القلبية، وجذورها النفسية؛ حتى إذا أتم مهمته تلك؛ كانت إزالة الفروع نتيجة تلقائية، لما سلف من إزالة للجذور ليس إلا. ولذلك قلت: إن الشرك معنى قلبي وجداني، قبل أن يكون تصورا عقليا نظريا.

إن (لا إله إلا الله) – وقد سميت كلمة الإخلاص – ليست إلا تجريدا قلبيا للهوى؛ حتى يكون خالصا لله وحده. وكل حب تفرقت به الأهواء لم يكن إلا كذبا. والشهادة في الإسلام إقرار من صاحبها على نفسه، وما يجد في قلبه بالتصديق.

فانظر أي قرار يتخذه الإنسان، حينما (يسلم) لله رب العالمين، ويشهد (أن لا إله إلا الله)!

المشهد الثالث:

في جمالية التفكر الإيماني

من أسرار هذا الدين ولطائفه أن باب عقيدته هو التفكر! قال عز وجل في مخاطبة الكفار عبر رسوله الكريم: [قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا..!] (سبأ: 46).. آية في غاية الجمال والسمو! وإني أشهد أني مذ ذقتها وجدت أن بها بحرا من الأسرار التربوية لا يعلم مداه إلا الله. وإن لها لذوقا وجدانيا خاصا. أرأيت كيف أن الله تعالى يخاطب الكفار، بالقيام له، والتفرغ لشأنه، قبل الإيمان به؟ وذلك حتى يمكنهم الوصول إلى حقيقة الإسلام، هذا الدين الذي هم له منكرون! وقد شرط الله عليهم شرطا في كيفية القيام له: وهو الخلوة به وحده سبحانه! والعدد الوارد في الآية: (مَثْنَى وَفُرَادَى) على حقيقته، إذ ليس هناك في السياق ما يصرفه عن هذه الحقيقة. لكن لماذا التنصيص على الفردانية، أو الثنائية، بالضبط؟ لماذا كان ذلك شرطا لتوقيع (التفكر)؟ إنه أمر عجيب!

العقل آلة: تلتقط الحقائق، وتعقلها، ولكنها لا تتخذ القرار! وإنما الذي يتخذ القرار هو القلب بمعناه القرآني الخاص! [أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؟] (محمد: 24) ومنه قوله تعالى: [لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا] (الأعراف: 179) فإذا كان القلب محجوبا بحجب المادة، والكثرة؛ عجز عن الوصول إلى ما يعرضه عليه العقل من صور معقولات! فلا يتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب. ومن هنا كان جوهر التفكر في القرآن قلبيا! ولذلك فقد وجدناه ينتج عنه شعور قلبي هو الخوف؛ نظرا لرهبة القلب مما يحلله له العقل، ويعرضه عليه من صور. وذلك نحو ما في الآية السابقة من سورة سبأ، إذ قال سبحانه في تتمتها: [مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ!]وأظهر منه آية التفكر في سورة آل عمران: [وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ. فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ!] (آل عمران: 191) إنه شعور الوجدان بهول الحقيقة وعظمتها. ولذلك قلت: إن التفكر فعل وجداني في العمق.

وهو لذلك لا يقع من الناس إلا آحادا، وإن حكي عنهم بضمير الجماعة، كما في الآية الأخيرة، فإنما المقصود أنه يحصل ذلك منهم فرادى لا مجتمعين، كما يدل عليه أول الآية: [الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ]. فهذه صور تحيل على الناس وهم في شؤونهم الخاصة، بين منازلهم، وأفرشتهم، ونومهم، وقيامهم. وأغلب ذلك كله أحوال فردية. والآية الأولى: [قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا..!] (سبأ: 46) نص في فردانية فعل التفكر. ولذلك نكتة ستأتي بحول الله. أما الثنائية (مثنى) فهي ملحقة من حيث الفائدة بالفردانية. والمثنى في العربية ملحق بالمفرد. وإنما يبدأ الجمع في اللغة بالثلاثة. ثم إن التفكر بين اثنين (نجوى)، وهي أشبه ما تكون بتحديث الفرد نفسه. أما فائدة ذلك فهي أن التفرغ لله عز وجل في خلوة، لا يكدر صفوها عليك أحد من الخلق، يتيح للقلب أن يتفاعل في صفاء مع معطيات الفكر، ويتواجد متلذذا بمواجيد الشعور بمعية الله، وحقائق الكون الكبرى. ومثل ذلك لا يحصل في لغط النقاش الجماعي، وضوضاء الجدل المتعدد! نعم رفيق النجوى، وهو الثاني: (مثنى)، يكون معك على موجدة واحدة في التأمل، وتبادل المشاعر والمواجيد. تماما كما كان النبي ρ يخلو لربه فردا، أو مع صاحبه أبي بكر الصديق أحيانا، أو غيره من الصحابة الكرام؛ فإذن تكون أبواب القلب أكثر انفتاحا؛ لتقبل ما يلقى عليها من واردات الحب، والشوق، والمعرفة الربانية.

ومما يزيد هذه الآية دقة، فيما نحن فيه، التعبير بـ(ثم) التي تفيد الترتيب. فكأنه تعالى جعل شكل التفكر (مثنى وفرادى) هو الكفيل وحده بنجاح عملية التفكر؛ ولذلك قال سبحانه: (ثم تتفكروا..!)

(قُلِ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ)!.. فعل واحد لا ثاني له، كفيل بأن يقود الإنسان إلى الحقيقة: التفكر!.. هل خلوت بنفسك يوما! أو ناجيت رفيقا لك في أمر الكون والحياة والمصير؟.. عندما يمتد الفكر سائحا في أقاضي الكون؛ يضل ويتيه! وأنى له أن يهتدي في دروب ومسالك ينتهي الخيال ولا تنتهي منافذها؟.. إذن يرجع الفكر منكسرا عاجزا! وإن ذلك لعمري هو الإسلام! الخضوع للعظمة المطلقة فوق الزمان والمكان، والاعتراف بالقصور عن الإحاطة؛ ولا بأي طرف من أطرافها! [مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ

فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ] (الملك: 3-4). الرجوع إلى الصف الآدمـي؛ للانضـمام إلى سـلك (العـادة الطبيعية)، رجوع في العمق إلى مقام الخدمة والعبودية! موجدة ليست في حاجة - حينئذ - إلا إلى الإفصاح والتعبير: (لا إله إلا الله).

وهنا يكمل جمال الدين: الدفء الحاصل عند الشعور بالانسجام مع سائر الخلق السيار. كل في سربه وفلكه: [تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِـنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا] (الإسراء: 44) هذا التوحيد الكوني في التعبير، بل هذا التناسق الكلي في نفث المواجيد، عبر شتى ألـوان العبادة؛ له ذوق (الأنس) الذي يملأ القلب نشاطا، وحبا للحياة الممتدة طولا وعرضا!

التنافس هنا إذن هو في طريق (المحبة). الكل يحب، والمحبوب واحد! تلـك هـي القضية.. إذن أينا يبذل أكثر؟ وأينا يشكر أكثر؟ فهذا مجال الإفصاح عن مواجيد الذلـة لملك القلوب ومالكها. وكلما كان الحب أصدق كان أكثر إذلالا لصاحبه! ولكنها ذلـة اللذة والمتعة العليا، والشعور بالراحة في سبيل رضى المحبوب.

وينطلق السباق!.. وتلك لذة أخرى، لها قصة أخرى!

الله! هذا المعنى العظيم الذي ننطلق منه لِنُقِرَّ أنه (لا إله إلا هو).. تدخل إلى ملكوته من باب (التفكر) بوجدان المحبة الكبرى.. ولكن كيف؟

لطالما كنت أقرأ عن رواد الحب الإلهي، فكنت أتعجب كيـف يجـدون هـذه الموجدة، بهذا الشوق كله!.. فتفكرت دهرا؛ فإذا الباب ينفتح بمفتاح (الربوبية): الله هذا السيد العظيم هو الخالق لكل شيء من الجلائل والدقائق.. وما أنت أيها العبد في ملك الله العظيم، الممتد بلا حدود، إلا ذرة من البلايين التي لا يحصرها خيال، من الذرات السائرة في متاهة الكون الفسيح! ألم يكن ممكنا في قدر الله وقدرته تعالى ألا تكون أصلا؟ إنها نعمة الخلق إذن؛ فأعظم بها من نعمة! لا تحصى حمدا ولا تحاط شكرا، ولـو عشـت أعمـار الخلائق جميعا حامدا وشاكرا! [هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَـمْ يَكُـنْ شَـيْئًا مَذْكُوراً] (الإنسان: 1).. لمسة (الحياة) هي النعمة الكبرى بعد الخلق.. ألم يكن ممكنا أن تكون جمادا؟ ثم إنها حياة الروح أكبر هبة إلهية للإنسان! تأملات تملأ القلب حيرة وعجبا

أن يكون بين الناس في ظل هذه الحقائق الرهيبة كافرون! عجباً.. عجبا! ولا يملك المتفكر في آلاء الله ونعمائه العظمى إلا العجب!

أن تتفكر في جمال الإحسان الرباني: يعني أن تقع أسير أنواره، وجـلال كمالـه، مؤمنا، خاشعا، متبتلا.. ذلك هو سر المحبة! وهو المعراج السري لقافلة المحبين السائرين إلى منازل الحبيب.. قال بديع الزمان النورسي رحمه الله: (ما دام ذلك الحكيم المطلق سلطاناً ذا جلال؛ بشهادة جميع إجراءاته الحكيمة، وبما يظهره من آثار جليلة.. ورباً رحيماً واسع الرحمة؛ بما يُبديه من آلاء وإحسانات.. وصانعاً بديعاً يحب صنعته كثيراً؛ بما يعرضه من مصنوعات بديعة.. وخالقاً حكيماً يريد إثارة إعجاب ذوي الشعور وجلب استحسانهم؛ بما ينشره من تزيينات جميلة وصنائع رائعة؛ فإنه يُفهم مما أبدعه من جمال يأخذ بالألباب في خلق العالم؛ أنه يريد إعلام ذوي الشعور من مخلوقاته: ما المقصود من هذه التزيينات؟ ومن أين تأتي المخلوقات وإلى أين المصير؟)([79]) فهو إذن؛ (يعرِّف نفسَه ويودّدها، بمخلوقاته - غير المحدودة - ذات الزينة والجمال.. ويُوجب الشكر والحمد له، بنعمه - التي لا تحصى - ذات اللذة والنفاسة.. ويشوّق الخلق إلى العبادة نحو ربوبيته؛ بعبوديةٍ تتسـم بالحـب والامتنان، والشكر إزاء هذه التربية، والإعاشة العامة، ذات الشفقة والحماية!)([80])

فعلا.. إن الذي يشعر بالنعمة المسداة إليه يجد نفسه مطوقا بحقهـا في الشـكر.. ولكنها نعمة أكبر بكثير من أن تحصى أو تحصر.. فكيف تشكر إذن؟ هنا يمتلك القلـبَ الشعورُ بالعجز والذلة والخضوع التام. وتلك هي (لا إله إلا الله).

(الله).. هذا الاسم الجميل كلمة تدل على الحياة العليا والنعمة الكـبرى.. منـه سبحانه نستمد الكينونة والحياة. وعطاؤه تعالى لا ينقطع أبدا، ولا يحصى عددا. أن تمـلأ قلبك بمعرفة الله يعني أنك تملؤه بالحياة!.. أن تملأ قلبك بمعرفة الله يعني أنك تملؤه بالحب! وأن تعبر عن ذلك كله يعني أن تقول: (لا إله إلا الله)، أي لا مرغوب ولا مرهـوب إلا الله، ولا محبوب إلا الله، ولا يملك عليك مجامع القلب والوجـدان إلا الله..هـذا السـيد الجميل، والملك الجليل، والرب العظيم الرحيم.

---

[79] كليات رسائل النور/ الكلمات: 677

[80] كليات رسائل النور/المكتوبات: 285

إن العبد المسكون بحقيقة (لا إله إلا الله) لا يملك إلا أن يتدفق منجرفا إلى الله.. تماما كما تتدفق الأنهار سارية وساربة إلى مالكها.. فأنى له إذن أن يتخلف إذا سمع داعي الله ينادي أن حي على الصلاة، أو حي على الفلاح؟

طُيُوبُ الْحُبِّ إنْ مَسَّتْ فُؤاداً *** جَرِيحَ الْوُجْدِ كَانَ لَهَا نُشُوبُ!

وَهَلْ فِي الْعَاشِقِينَ الْغُرِّ غُصْنٌ *** يُنَادِيهِ الْحَبِيبُ وَلاَ يُجِيبُ؟

يتخلف؟.. كيف؟ وها المسلم: إنما هو ذلك العبد الذي يحمل جمرة الشوق إلى الله؟ يسبغ الوضوء على المكاره، وينقل الخطى إلى المساجد يسري في الظلم، ويسرب في الهجير، متقلبا بين حَرٍّ وقَرٍّ، ويجاهد في سبيل الله! ينثر روحه أزهارا على الثرى، طمعا في رضى المحبوب، الذي تعلقت به القلوب! والمسلم هو ذلك العبد الذي فاض قلبه بحب الله؛ فلا تجد من سلوكه إلا مسكا! ولا ترى من خطوته إلا كياسة وفطنة، ولا يلقاك إلا بالكلمة الطيبة والسريرة الحسنة.

الإسلام هذا الجمال الإلهي العالي، دين ليس كأي دين، لكن.. لو كان له ذواق! ذلك هو (الإسلام) دين المحبة. وذلك هو المسلم السالك مَدارِجَ المحبين. وأنى لمن خفق قلبه بلمسة الحب أن يكون شريرا؟.. الحب هذا الشعور الفياض بالجمال، إذا خالط قلبا أحاله جداول من الإيمان واليقين. وامرؤ كان ذلك شأنه لا يتصور فيه أن يؤذي أحدا أبدا! لأنه لا يملك من المواجيد في قلبه إلا الحب. وكل إناء يرشح بما فيه. إنه لا يملك إلا أن يملأ المكان بمواجيد المحبة، ورياحين الشوق في سيره الوجودي إلى الله..!

الإشراق الثاني: في جمالية عقيدة اليوم الآخر

إضاءة قرآنية

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ! ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ!.. وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ!)(الزمر:68-69)

المشهد الأول: في جمالية العمر

من أهم مصادر الجمال في الإسلام عقيدةُ اليوم الآخر، لكننا لن نذوق جماليتها إلا بعد معرفة ما (العمر)؟ هذا الامتداد الزماني الحاد المحدود، الذي يحد فترة حياة الإنسان، من الولادة إلى الممات.

العمر هبة إلهية كبرى.. إنه تجل من تجليات الحياة! بيد أن حقيقته نسبية، ككل حقائق الحياة الدنيا. فليس فيه – إذا تفكرت – طويل وقصير. وإنما هو قصير كله! فمن حيث منطق الأشياء وطبائعها: كل ما ابتدأ لينتهي لا يكون إلا قصيرا! أليس كل الناس يموتون بعد سنوات من تاريخ ميلادهم؟ نعم سنوات، وإن هي إلا سنوات! لا مئات السنين، ولا آلافها! ثم إن المقارنة النسبية بين أعمار الخلائق المختلفة تبين لك نسبية الطول والقصر باعتبار آخر. فمن الخلائق التي تعيش مئات السنين أو آلاف، من غير البشر، كالأشجار، والجبال ونحوها، وكالشياطين، وقد قال إبليس اللعين: (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)(الحجر: 36-38) إلى الكائنات التي تعمر الشهر والأسبوع واليوم! كبعض الحشرات، من مثل النحل، والذباب، والفراش، فلو نظرت إلى ما يشعر به المعمر مئات السنين أو آلافها وهو ينظر إلى عمر الإنسان؛ لوجدته يتأسف على شدة قصره! ويأسى على الإنسان الذي لم يمد له في عمره إلا قليلا! وهو لا يدري أن عمره هو أيضا بالنسبة إلى من هو أطول عمرا قصيرا جدا!

ولو نظرت أنت، باعتبارك الإنساني إلى أعمار الحشرات، التي تعيش شـــهرا، أو أسبوعا، أو يوما، لأشفقت عليها من شدة قِصَرِ ما تعيشه من لحظات! ومما أرويـــه عـــن علماء الأحياء، أن ضربا من الفراش يعيش دورته البيولوجية الكاملة، في مدة لا تتجـــاوز أربعا وعشرين ساعة! يكون بيضة، ثم يخرج منها، فيدب دودة، ثم يلتف حول نفســـه في غشائه، ليطير بعد ذلك فراشة، ثم يبيض ما شاء الله له؛ ليخلف ذريته بأمان، ثم يمـــوت. كل ذلك في أربع وعشرين ساعة! وعندما كنت أقرأ أن بعض الحشرات يعيش ثمانية أيام على الأكثر، كان يتبادر إلى ذهني أن تلك الحشرة إذا طال عمرها إلى اليوم الثامن، تنشد كما أنشد الشاعر العربي القديم:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ ومَنْ يَعِشْ *** ثَمَانِينَ حَوْلاً – لاَ أَبَا لَكِ – يَسْأَمِ!

واليوم الواحد بالنسبة إلى وجدان الحشرة كعشر سنوات كوامل!.. لا فرق! ولو نظرت إلى ما أخبر به الله عن الزمان الكوني في القرآن؛ لأدركت أن الأعمار كلها بالفعل قصيرة.

والزمان الكوني صور وأقسام شتى، يتجلى بعضها في بُعْدِه (المِعْرَاجِـــيّ)، وهـــو نوعان: الزمان الأمري والزمان الملائكي. فـ(الزمان الأمري): هو المشار إليـــه في قولـــه تعالى: (يُدَبّر الأمرَ من السماء إلى الأرض ثم يَعْرُجُ إليه في يومٍ كان مقدارُه ألفَ سنةٍ ممـــا تَعُدّون)(السجدة:4)، و(الزمان الملائكي): هو المشار إليه في قوله سبحانه: (تَعْرُجُ الملائكةُ والروحُ إليه في يوم كان مقداره خمسينَ ألفَ سنةٍ)(المعارج:4). كما يتجلى في صـــورة (الزمان العِنْدِيّ): وهو المشار إليه في قوله تعالى:(وإن يوما عِنْدَ رَبّكَ كألفِ ســـنةٍ ممـــا تَعُدّون)(الحج:45). وهو زمان (الملائكة العندية) المشار إليها في قوله تعالى: (إِنَّ الَّـــذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَـــهُ يَسْـــجُدُونَ)(الأعـــراف:206). ثم (الزمان الأخروي): وهو الزمان الخالد السرمدي الذي لا ينتهي أبدا!

وفي ذهنك، أنت أيها المعمر مائة عام أنك عشت عمرا مديدا، نعم تمامـــا كمـــا عُمِّرَت الحشرةُ ثمانيةَ أيام، أو أربعا وعشرين ساعة!

ولك أن تتفكر في نسبية الزمن عند تقلب أحوال النفس الإنسـانية، بـــين شـــتى ضروب الانتظار مثلا.. عندما تنتظر حلول لحظة سعيدة لم يبق بينك وبينها إلا لحظـــات

يسيرة من دقائق معدودات.. تشعر أنها تمر ببطء شديد، وتقلق من (طول) الانتظار! فكأن وقع الدقائق تلك في نفسك عدة أعوام! وعندما تحل اللحظة السعيدة، تشعر – رغم طول مدتها بالنسبة إلى لحظات الانتظار – أنها قصيرة جدا، فكأن وقتها يتصرم منك تصرما!

الزمن نسبي! وتلك هي حقيقة الأعمار.

والعمر – عند التفكر في الخلق الإلهي – هو حقيقة الإنسان. إذ ليس المرء إلا بداية ونهاية! ساعة ولادة فساعة وفاة. ولكن.. شتان شتان بين عمر وعمر! ليس ذلك باعتبار الطول والقصر. إذ الأعمار كلها قصيرة كما أسلفنا، ولكن باعتبار العرض والضيق، إذ قد يكون العمر طويلا – حسب العد البشري النسبي – ولكن يكون ضيقا من غير سعة. كما قد يكون قصيرا بالاعتبار نفسه، ولكنه عريض جدا، حتى لكأنه لا يكاد ينتهي أبدا. وبيان ذلك بالمثال التالي: هَبْ أن العمر عبارة عن طريق يقطعها الإنسان، لها امتداد طولي وآخر عرضي، والعادة أن الإنسان إنما ينتبه إلى الطول؛ لأن ذلك هو المتعلق بمفهوم الزمن (الماضي والحاضر والمستقبل)، ولكنه قلما ينتبه إلى العرض؛ لأن هذا إنما يتعلق بالأعمال والمنجزات خلال كل فترة من فترات الزمن. فالإنسان في سيره خلال عمره نوعان: نوع يخطو دون أن ينتبه إلى عرض الوقت، فيلتهم من طوله ما هو مقدر له، فلا يشعر ببركة العمر مهما طال، حسب العد البشري النسبي. ونوع ينتبه إلى العرض؛ ولذلك فهو إذ يخطو الخطوة الواحدة من عمره، لا ينتقل إلى الثانية حتى يخطو مثلها على عرض الطريق لا على طولها. ليعيش باقي اللحظات التي هي من الخطوة الطولية الأولى نفسها التي خطاها. وهكذا يبقى يخطو على عرض الطريق حتى يستوعب كل عرضها. وحينئذ فقط، ينتقل إلى أمام ليخطو خطوة أخرى على طولها. ثم يستأنف بعد ذلك خطوات العرض! فهو إذن يسير طولا وعرضا.

إن مفهوم العرض رمز إلى الاستغلال الوقت استغلالا كاملا. لأن الناس - في الغالب - يعيشون اللحظة الواحدة، بما لا يكفي لعمارتها من الأشغال والأعمال. وربما أمضوها بالفراغ! وذلك هو ما يسمى بقتل الوقت! والعرض هو استنفاد كل الحيز الزمني للحياة بالمنجزات الإيجابية، والأعمال الحية، التي تملأ رصيد العبد بالحياة الحافلة بالخير. وتلك هي (بركة العمر) المرجوة في الأدعية المأثورة. وإني إذ أذكر هذا المعنى أذكر وصف

الله للجنة بقوله سبحانه: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ!)(الحديد:21) ذلك أن الجنة زمن خالد، فأنت تعيش اللحظة الواحدة مرات عديدة لا تنقضي أبدا! كما أن نعمها الوفيرة لا تستنفد أبدا! فذلك هو العرض ذو المعاني الجميلة. أما الطول فهو يوحي بالنهاية والزوال! ومن هنا لم تكن للأعمار قيمة من حيث طولها أو قصرها. وإنما البليد من الناس من يتشبث بالطول الدنيوي. قال تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)(البقرة: 93-96). ذلك أن جشع الكفار وجهلهم بحقيقة الحياة، يجعلهم ينظرون للدنيا من خلال بُعْدٍ واحد، هو البعد الطولي. وهو بعد خداع؛ لأن الألف سنة فيه كاليوم لا فرق. مادام الطول ينتهي إلى حد! والعدد في الوحدات الزمنية الدنيوية – كما رأيت – نسبي – ورب حشرة عاشت بضع لحظات، أو بضعة أيام؛ أزكى عمرا ممن عمر ألف سنة! ومتى كان الإنسان هو المقياس الحقيقي لوحدات الزمن؟

ومن هنا ذم الله الحياة الدنيا، من حيث هي طول يتلهف فيه على المتع الزائلة، والمكاسب الفانية: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ)(الحديد:20) وقال عليه الصلاة والسلام: (مَا لِي وللدُّنْيا..؟ ما أنا في الدنيا إلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تحت شَجَرَةٍ ثم رَاحَ وتَرَكَها!)([81]). والأحاديث في ذم الدنيا والركون إليها كثيرة جدا. تملأ أبوابَ الرِّقَاقِ من كتب الحديث النبوي الصحيح. وهي لا تخرج في معناها عن التنبيه إلى خطورة النظر القاصر إلى الزمن، والتكالب على استنفاد لحظات العمر في عَدِّ طولٍ لا يمنع من الموت شيئا!

والجميل في الأمر أن العرض لا ينقضي بوفاة الإنسان، بل يمتد حتى بعد وفاته! فلا تجده يشعر ذلك الشعور اليائس الذي يزلزل نفسية الكفار، إذ يشعرون عند ذكر الموت بهول (الفناء)! وقد رأينا كثيرا من علماء الأمة الإسلامية، ممن لم يعمر من حيث الطول إلا

---

[81] – رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم والضياء. وصححه الألباني في (ص.ج.ص): 5668.

ثلاثا وخمسين سنة، كالإمام الشافعي رحمه الله، ولكن ها أنت تراه – بعد وفاته بأكثر من ثلاثة عشر قرنا – يملأ الدنيا بالحياة! فهذا مذهبه الفقهي يملأ عرض الدنيا وطولها! وهذه كتبه العلمية تملأ كل أعمار الناس! فهل عاش الشافعي بضعا وخمسين سنة فقط؟ إنه نظر قاصر لمفهوم الزمن إذن! وكذلك الشأن بالنسبة للإمام النووي رحمه الله، الذي لم تـزل مصنفاته هي مادة التربية الإيمانية لملايين المسلمين، ككتاب رياض الصـالحين، وكتـاب الأذكار، والأربعين النووية، وشرح صحيح مسلم. فهذا الرجل العظيم قد عـاش عمـرا مباركا عريضا جدا، في خمس وأربعين سنة فقط! ومن المعاصرين الإمام حسن البنا رحمه الله الذي استشهد عن عمر لا يتجاوز الثلاث والأربعين سنة، ولكنه لم يزل يمتد في حياة الأجيال امتدادا قويا، لا تحده مقاييس الأعمار الفانية! إنك تراه هنا وهناك حيا، يحـرك الأحداث المعاصرة، ويهز الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية هزا في كل مكان! أولئك قوم عرفوا كيف يعيشون عرض العمر، و لم يأبهوا لطوله الكاذب!

وقد وجدنا النصوص القرآنية والحديثية تنبه المسلمين إلى هذا المعنى العظيم، حيث يملك المرء معه أن يعيش حتى التخمة! حياة حافلة بالحياة! يقول الله عز وجـل في العبـد يستثمر وقته في العمل الصالح: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)(البقـرة: 260) وهو ما فسره النبي ρ بقوله: (إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة!)([82])

ويموت الإنسان لكن يمتد عرض عمره بعده. قال عليه الصلاة والسلام: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يـدعو له!)([83]) وقال أيضا: (مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً فله أجرُها، وأجرُ مَنْ عَمِـلَ بها بعده، من غير أن يُنْقَصَ مِنْ أجُورِهِمْ شَيْءٌ) [84]. وذلك كل فعل الخير الذي لا ينقطع أثره بالموت.

---

[82] – متفق عليه.

[83] – رواه مسلم.

[84] – رواه مسلم.

ثم إن الإيمان بالحياة الآخرة يشعر المسلم بأن الموت إنما هو معبر إليها، فلا يحس في وجدانه العميق بأنه ينتهي بالموت؛ فيعيش الحياة بذوق آخر، ملؤه العمل والأمـــل في أن تكون أخراه أفضل من دنياه.. فيا لبئس عمر يعيشه الإنسان وهو يشعر بأن الموت هـــو آخر المطاف! انظر إلى هذه الإشارة الإلهية في وصف نفسية الملاحدة المنكرين للبعث، إذ يقتلهم اليأس، ويدمرهم القنوط. قال تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّـــهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)(الأنعام:126) وقال سبحانه: (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَـــا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ!)(الحج:29)

فانظر إلى هذا الزلزال النفسي، والشعور بالدمار والخراب في الحياة! الـــذي يمـــلأ صدور الكفار، واليأس القاتل الذي يجثم على أحلامهم؛ لما يعيشونه من فقـــر شـــديد في العلم بالله! بينما يملأ هذا حياة المسلم سعة ورحمة؛ بسبب ما يتيحه له من آفاق أرحـــب، للنظر في الحياة والكون والمصير. وفقدانه يعني فقدان التوازن النفسي حتما في التعامل مع العمر، هذا الرصيد الوحيد لدى الإنسان، الذي عليه أن يوظفه ليسعد أو ليشـــقى! ودون هذا الفضاء الواسع الرحب لا يوجد إلا اليأس القاتل، والخراب المدمر! وهو حال كـــل منكر للبعث من الكفار والملاحدة أجمعين. وما ذلك إلا لأنهم – كما وصفهم الله تعالى – (قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِن أصْحَابِ القُبُورِ!)(الممتحنة:13)

ومن هنا فأنت ترى أن الباب الفسيح الذي يمد عمر المسلم بالاتساع، إنمـــا هـــو مفهوم (الغيب). هذا المفهوم الذي تقوم عليه العقيدة الإسلامية بأكملها. فهو الذي يمـــلأ حياة العبد العامل أملا، ويغمر وجدانه حياة متدفقة أبدا..! لا يحدها أجل، ولا تقطعهـــا وفاة!

المشهد الثاني: في جمالية الإيمان بالغيب

تقوم العقيدة الإسلامية من حيث الأساس التصوري على مبدأ الإيمـــان بالغيـــب. والغيب في معناه اللغوي: هو كل واقع حقيقي مجهول. قال ابن فارس: ("الغـــين واليـــاء والباء": أصْلٌ صحيحٌ، يدل على تَسَتُّرِ الشيء عن العيون. ثم يُقَاسُ من ذلك الغيْبُ: مـــا غاب مما لا يعلمه إلا الله. ويقال: غابت الشمس تَغِيبُ غيْبةً وغُيُوباً وغَيْباً. وغابَ الرَّجُلُ عن بلده (...) ووقَعْنَا في غَيْبَةٍ وغَيَابَةٍ: أي هَبْطَةٍ من الأرض، يُغاب فيهـــا.)([85]) وقـــال الزمخشري: (سمعت صوتا من وراء الغيب: أي من موضع لا أراه (...) "وألقوه في غَيَابَةِ الجُبِّ " وهي قعره، وكل ما غَيَّبَ شيئا فهو غَيَابَةٌ).([86])

فأنت ترى أن مدار المادة اللغوية إنما هو على معنى كائن غير مشاهد بطبيعتـــه، أو أنه يصبح كذلك لسبب ما، كغياب الشمس، وتواري المرء في الأرض المنخفضة ونحـــو ذلك، مما فيه معنى الوجود الغائب. إذ الغيب هنا ليس بمعنى (العدم)، أو الخيال أو الخرافة؛ لأن العرب إنما تسمي غيبا ما هو موجود حقيقة لا وهما. وكونه (غيبا) دالٌّ لغةً على أنه ممكن المشاهدة في وقت لاحق، أو كان كذلك في وقت سابق، فهو إذن (وجود) لكنـــه مُتَوَارٍ عن المشاهدة.

ومن هنا كان الغيب في الاستعمال القرآني دالا على (وجود) غير مشاهَد. ولـــذا ورد مقابِلا (لِعَالَمِ الشَّهادَةِ) الذي هو العالَم المنظور. قال عز وجـــل في وصـــف ذاتـــه سبحانه: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)(الأنعام: 73) وبما أنه (وجود) فإنه قابل للعلم، أي أنه قابل لأن يحاط به علما. ومن هنا كان علمه عند الله. وهو عنده وعلم الشهادة سواء، كما في الآية المذكورة.

وعالَم الغيب في القرآن يمتد من عالَم الشهادة، مما لا يعلمه الإنســـان، جزئيـــا أو كليا؛ إلى ما وراء عالم الشهادة من العوالم الروحانية، كالعالم البرزخـــي، وهـــو عـــالم الأموات، وكعالم الملأ الأعلى، والعالم الأخروي؛ بما يتضمنه من أمور واقعة في علـــم الله،

---

85 – معجم مقاييس اللغة ك مادة (غيب).

86 – أساس البلاغة: مادة (غيب).

وإن لم تكن قد وقعت بالفعل في الوجود المادي. كالبعث والحشر والحساب ودخول الجنة أو النار.. إلخ مما هو مسطر في أصول الاعتقاد الإسلامي.

قلت: إن الغيب يمتد من عالم الشاهدة، بمعنى أن عالم الشهادة نفسه غير معلوم على تمامه للإنسان، ومن هنا كان منه غيب لا يعلمه إلا الله. قال عز وجل: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ!)(هود: 123). وقال سبحانه: (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ!)(النمل:65) وقال أيضا: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)(النمل:75). فهذه الغيوب المذكورة ههنا مشتركة الدلالة على العالَمَيْن: عالَم الغيب المطلق، وعالَم الشهادة كما رأيت؛ ولذلك نسب عز وجل للأرض غيبا، كما جعل (فيها) غيبا، وهي من عالم الشهادة! وكذا شيء من عالم السماء بمعنى الفضاء، لا السماء الروحاني الذي هو مجال الملأ الأعلى، والذي هو غيب مطلق. فغيب السماء - بمعنى الفضاء - هو من غيب عالم الشهادة، الذي يعلم الإنسان منه شيئا جزئيا، وإن كان ضئيلا جدا بالنسبة إلى علم الله المطلق.

والمتفكر في حقيقة الكون – المشهود منه وغير المشهود – يجد في النهاية أنه غيب مطلق! ذلك أن تفسير الظواهر الطبيعية والوجودية لدى الإنسان مازال قاصرا جدا إلى درجة يمكن القول معها: إنه لا علم له البتة! ولذلك وصف الله عز وجل علم الإنسان، المتعلق بالحياة الدنيا بأنه علم (ظاهر) فقط! قال سبحانه: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)(الروم: 7). وعلماء الطبيعة مقرون بهذه الحقيقة الكبرى، سواء كانوا مؤمنين أم لم يكونوا!

فالكون كله إذن غيب مطلق، وما يعلم الإنسان منه شيئا إلا بإذن الله، إما بواسطة الإلهام لبعض الحق عن طريق الاكتشاف التلقائي، الذي عرفه الإنسان منذ القديم، أو طريق البحث العلمي كما هو الأمر اليوم، أو عن طريق الوحي كما هو الأمر بالنسبة للأنبياء والرسل. قال تعالى عن ذلك كله: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَ بِمَا شَاءَ)(البقرة: 254) وخص عز وجل الغيب الروحاني بكونه لا يعلم إلا عن طريق الوحي. قال سبحانه: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) (الجن: 26-27). فالغيب

إذن أبواب مغلقة من علم الله الواسع المحيط. قال سبحانه: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ)(الأنعام: 59).

إن غيبية الحياة أمر واقع إذن، لا ينكره إلا جاحد أو جاهل، سواء تعلق ذلك بعالم الغيب الروحاني أو بعالم الشهادة الطبيعي! ومن هنا كان الدين بعقيدته وشريعته غيبا كله! سواء منه ما عقلنا معناه أو ما لم نعقل معناه. إن مظاهر المدركات العقليـة والحسـية في الدين – كما هو الشأن في الكون كله – هي مظاهر عائمة في محـيط مـن المحيطـات الكبرى! فكل كبيرة وصغيرة من الدين إلا وهي قائمة على هذا الأساس! وهنـا مكمـن الجمال في الإسلام، عقيدة وشريعة.

ذلك أن جمالية الغيب في الإسلام تتجلى في مظاهر كثيرة، منـها هـذا الفضـاء النفسي الواسع، الذي تهبه العقيدة للإنسان المسلم، حيث يشعر أنه ممدود الصـلة ببحـر الغيب المطلق.. يستفيد من مده وجزره حركة من الحياة الزاخرة العميقة. إن المنكر للغيب إنسان تعيس حقا! وإن أول مظاهر هذه التعاسة ألا يرى من هذه الحياة إلا حدود نظـره من جهة الإدراك، وحدود أجله من جهة المتعة المعيشية! تعاسة وأي تعاسة تلـك الـتي تفرض على المرء ألا يصيب من الحياة إلا لحظات فانية، ميتة ابتداء! وهذا بحر الحياة الزاخر حواليه يمتد في المطلق إلى ما لا نهاية! فأي غبن هذا وأي خسارة!؟

إن نتيجة مثل هذا الشعور هي أن تنتج عقلا شريرا، لا يستريح حتى يرى الآخرين يتعذبون، تماما مثل ما يعانيه هو في داخله من عذاب، فيسارع إلى الإجـرام، لإشـراك الجميع في العذاب! في صورة ما، قد تكون فردية وقد تكون مؤسسية، أعني ما يسـمى اليوم في عالم السياسة (بإرهاب الدولة)، كما نشاهده في الدول الظالمة الطاغيـة، الـتي تتسلط على شعوبها، أو على شعوب العالم بالتدمير والتخريب، وتتسـلط علـى الأرض والفضاء بالتلويث والتسميم! دون أي تفكير في الأجيال اللاحقة لها، مـن أصـلابها أو أصلاب غيرها! إن العقلية المنكرة للغيب الإيماني هي التي تقـف وراء إنتـاج الأسـلحة البيولوجية، والجرثومية، وكل أسلحة الدمار الشامل!

إن مفهوم (الغيب) في الإسلام هو الذي يمنح الحياة أنداءها وجمالها.. إنـه ربيـع الإحساس بالحياة! إن (الأنس) الذي يشعر به العبد المؤمن في سـيره إلى الله عبـادةً، وفي

معاشه الأرضي عادةً، إنما هو ناتج عن الشعور بوجود، غير هذا الوجود المادي المحـــدود! إنه الشعور العميق بحياة أخرى، هي امتداد لحياتنا، أو حياتنا امتداد لها.. إنها حياة الأرواح في الأرض وفي السماء على السواء! من ملائكة، وحركات دائبة، مستمرة، فيما يتعلـــق بحياة الإنسان الغيبية، التي يدبرها الله عز وجل تدبيرا، يواكبها إحساس المؤمن مواكبة العبد المنقاد لربه؛ طاعة ورضى بقضائه الجميل وقدره الجليل! والعبد في كل ذلك إلى خير ممـــا أصابه من الله، حامدا شاكرا راضيا!

ولذلك كان الإحساس في الدين: (أن تعبد الله كأنك تراه!)([87]) فإذا كان العبـــد قد استشعر الوجود الإلهي استشعار الرائي لحقيقته، فإنه من باب أولى وأحرى أن يكون – في كل أمره – قد استشعر الوجود الغيبي، من العالم الروحـــاني العلـــوي، والأخـــروي، استشعار الصحبة والمعية، التي تنافس الصحبة المادية، والمعية الحسية، في الإدراك والشعور! فيسيح المؤمن في فضاء الله الواسع سياحة لا تنتهي بحد! لا من حيث مجال الوجـــود، ولا من حيث مجال العمر! إذ يتحرك المؤمن في الدنيا وليس في حسابه وجود الأجيال المقبلـــة فحسب، ولكن أيضا وجود الخلائق الكونية الروحانية الأخرى، مما ينتمي إلى عالم الغيب الفسيح، فيخالق كل أولئك بخلق الود والمحبة! ومن أجمل الأحاديث في هذا الصدد قـــول النبي ρ: (من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربن مسجدنا؛ فإن الملائكة تتـــأذى ممـــا يتأذى منه بنو آدم!) [88] .. هكذا يعيش المؤمن وهو يغرف من جمال صـــحبة الملائكـــة، ويعرف لها حقا، ويتذوق من جمال الطهر والصفاء ما يرقي شعوره بالوجود إلى درجة من الدين، لا ينـــزع معه إلى الشر إلا خطأ! فأي تدين هذا أم أي فن!

إن الإيمان بالغيب نعمة كبرى حقا!

ولقد ارتبط تدين المرء المسلم بالإيمان بالغيب، الذي هو مصدر القـــوة في تـــدفق الشعور الديني، رائقا رقراقا، وإخلاص العمل لله عز وجل. فبدونه لا قيمة لأي عمـــل في مجال الدين! ولذلك كان هو أول شرط الفلاح، والفوز، في الدنيا والآخرة عند الله. يقول الله تعالى في فواتح سورة البقرة: (أَلَمِ. ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُـــتَّقِينَ. الَّـــذِينَ

---

[87] – جزء من حديث جبريل: رواه مسلم.

[88] – رواه مسلم، وللبخاري نحوه مختصرا.

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(البقرة: 1-5). إن هذه الآيات الجامعات لتلخص قصة الإيمان وجماليته في الإسلام! ذلك أن هذا القرآن قام على مبدأ الغيب؛ ومن هنا فإن أنواره إنما تشرق بالقلوب التي لها استعداد للتلقي الغيبي! القلوب القادرة على استقبال أشعة الحقيقة الكبرى، التي لا يطيق استقبالها أي قلب! أشعة الحق سبحانه، الذي هو أصل الغيب كله! تلك هي القلوب المتقية، المتعاملة مع حقائق الوجود بحذر الإحساس الخاشع الخاضع لجلال الله وجماله. الإحساس الذي لا يغتر بمظاهر الوجود المادي، وينظر إلى أبعد من ذلك: إلى امتداداته الغيبية المطلقة عن الزمان والمكان!.. فيعيش لذة الإيمان، ومتعة الهدى..

وللأستاذ سيد قطب رحمه الله كلمات سطرها في هذا السياق بإحساس الفنان، المؤمن بالغيب، المتملي لجماله. قال: (إن السمة الأولى للمتقين هي الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة، الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب، والقيام بالفرائض، والإيمان بالرسل كافة، واليقين بعد ذلك بالآخرة.. هذا التكامل الذي تمتاز به العقيدة الإسلامية، وتمتاز به النفس المؤمنة بهذه العقيدة (...) "الذين يؤمنون بالغيب".. فلا تقوم حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم وسائر ما وراء الحس من حقائق، وقوى، وطاقات، وحقائق، وخلائق، وموجودات (...) فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه، كمن يعيش في الكون الكبير، الذي تدركه بديهته وبصيرته؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان، مما يدركه وعيه، في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون - ظاهِرِهِ وخافيهِ - حقيقةً أكبر من الكون، هي التي يصدر عنها، واستمد من وجودها وجوده، حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار، ولا تحيط بها العقول)([89]).

إن الإيمان بالغيب بهذا المعنى الكلي الشامل ليستحق من الله عز وجل أحسن المدح والجزاء: الهدى والفلاح. ليس لأن الله أمر بذلك وحسب، ولكن وراء ذلك معنى لطيفا آخر: وهو أن (الغيب) من حيث هو (غيب)، لا يدرك الإنسان جوهره وحقيقته، فكان

[89] - في ظلال القرآن: 1 /39-40.

– من حيث التفسير العقلي المجرد – مجالا للحيرة والتردد والشك! ولذلك جاء السياق مبنيا على نفي الشك عن هذا الكتاب المتضمن خبر الغيب: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ)؛ لأن العقل – وهو قاصر عن إدراك مثل هذا – لا يستطيع أن يثبت ولا أن ينفي شيئا من حقائقه إلا حدسا، وإشارة، وظنا، وترجيحا! ولا يؤتى المؤمن فيه اليقين إلا ذوقا! ومن هنا كان القلب وحده هو الأجدر لتلقي حقائق الغيب بالإيمان والتسليم! ليس لأن العقل يستطيع إنكار شيء من حقائقه، ولكن لأنه أضعف من أن يتحمل ذلك، من حيث طاقته الاستيعابية المحدودة. فكان أن قال الله تعالى في هذا السياق: (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) والتقوى معنى قلبي ذوقي!

قلت: مع ذلك فإنه تبنى عليه الحياة الإسلامية بأكملها، عقيدة وشريعة: إقامة الصلاة، وإنفاق المال، والإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر! وفي تقديم أمور الشريعة ههنا (الصلاة والإنفاق)، على أمور العقيدة (الإيمان بالكتب واليوم الآخر)، إشارة إلى أن القضية الكبرى في المسألة، هي بناء أعمال حسية من حركات تعبدية ونفقات.. إلخ، على مبدأ الغيب المطلق! أي بناء المعلوم على المجهول! فهذا الإنسان الذي لا يفتأ يعبد الله راكعا وساجدا، صيفا وشتاء، ويسبغ الوضوء على المكاره، وينفق من حر ماله، ويصوم، ويحج، إنما يفعل ذلك رغبا في جزاء موعود لا يرى! قال سبحانه بعد توعد أهل الغي بالعذاب: (إلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا. جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا)(مريم: 60-61).

إن الذي لا ينفذ إلى أعماق الكون بالتفكر والتدبر، ولا يسمح لبصيرته أن تتفتح على حركة الحياة، وسنن التاريخ، ونسبية الزمن، أو لا يستطيع أن يخرق بوجدانه جدران الحس المادي؛ فهو لا يقدر على توظيف لطائفه الروحانية الباطنة، التي تعاني من الكسل والخمود. ولن يبصر الجمالَ أبدا من لم يفتح على العالم عيون الروح! فهذه حقائق الغيب لا تدرك إلا بلطائف النفس الباطنة. ومن فاته ذلك بقي حبيس مدركاته المادية. فأنى له الإيمان بالغيب إذن؟ وأنى له أن يكون من المبصرين؟.. فإن آمن فعلى قلقٍ وحيرةٍ واضطراب! كيف وما الإيمان إلا أمن وطمأنينة وسلام؟!

وما أدق الكلام المنسوب إلى المعري شاهداً في هذا السياق إذ يلخص جدلا بينه وبين بعض علماء عصره حول الإيمان بالبعث، حيث رجح هو أن يؤمن به؛ احتياطا أن يكون الأمر صحيحا! قال:

قال الْمُنَجِّمُ والطبيبُ كِلاَهُمَا: *** لا تُبْعَثُ الأجسادُ، قلتُ: إلَيْكُمَا

إنْ كَانَ قَوْلُكُمَا؛ فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ! *** أوْ كانَ قَوْلِي؛ فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا!

إنه إيمان المقامِر، المغامر، المتردد، المرجح، لا إيمان التقي المسلم لله أمره، الراجي عفوه وفضله! والسبب في ذلك بناء قضية الإيمان بالغيب على المنطق العقلي المجرد، والتقدير الحسي المادي! وهو نظر قاصر قصور العين المحدقة في الشمس! لأن الشمس – وهي حقيقة كونية كبرى – أقوى من أن تستوعبها العين المجردة!

ومن هنا سمى الله العمل التعبدي من جهد مادي، وحركات، ونفقات، مما بني على الغيب، بيعا، وتجارة! لأن التجارة تتعرض للربح والخسارة، فقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)(فاطر: 29)، وقال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْءانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(التوبة: 111)؛ تأكيدا للحقيقة الدينية الكبرى: الإيمان بالغيب، الذي عليه بُني الكسب البشري في المجال الديني كله.

ولذلك فإنه لن يقدم على الدين بقلب مطمئن إلا من آتاه الله قابلية الإيمان بالغيب، بدءا بالإيمان بالله، وانتهاء بالإيمان باليوم الآخر، على سبيل الجزم واليقين، لا على سبيل الشك والتخمين! ومن هنا قوله عز وجل في آيات البقرة: (وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)، وكذا قوله في غيرها: (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)(يس: 11) وذكر المتقين فوصفهم بأنهم: (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)(الأنبياء: 49)؛ لأن بها موعد الجزاء وإتمام الصفقة المرجوة. والمسألة بيع مصيري، لا بيع عارض جزئي؛ فلا بد من التأكد من حصول الربح!

ومن هنا أيضا كان الإيمان بالغيب في الدين قضية كبرى، على مستوى الشعور والإحساس والإدراك، كما هو كذلك على مستوى صحة الاعتقاد وصحة الدين؛ فرتب الله عليه خير الجزاء، وأعظم الأجر: (وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ. مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)(ق: 31-33)

وقال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)(الملك: 12)

ثم إن الله جعل في الإيمان بالغيب متعة ولذة، لا تفضلها متعة ولا لذة من ملذات الحياة الدنيا! ذلك أنها – فضلا عن كونها تريح العقل من عذاب الشك، والحيرة، والقلق الوجودي القاتل – تعطي للإنسان إمكانية النظر بعين أخرى.. هي عين أقوى من عين العقل المادي القاصر، عين تستبصر الحياة؛ فترى عالم الروح عين اليقين! وتعيش مع الملأ الأعلى – وهي بالأرض – في عليين! فتذرو على القلب رذاذا من أنداء الجنة، تزيد الشوق إليها وإلى أهلها انتشاء، وابتهاجا.. وينشط العبد في سيره إلى الله نشاط الموقن بوعد ربه، المسارع نحو فضله.. (وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)!

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ!)(الأعراف: 43). فاللهم لك الحمد!.. اللهم لك الحمد!

المشهد الثالث: في جمالية الموت

الموت حقيقة من أغرب الحقائق الوجودية وأرهبها!.. ولو نظرت قريبا هنـــاك في سجون الهواجس التي تعتقل أولئك الذين لا يؤمنون بالروح.. لوجدت حـــيرة كـــبرى وتخبطا مظلما!

ما الموت؟

إنهم يقولون ويعرّفون ويشرحون! نعم، ولكن.. تعريفـــات في غايـــة الســـذاجة والإسفاف!.. وتبقى حقيقته الروحية ملحقة بأمر الله، ككل أمور الروح. يقول عز وجل: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّـــرُونَ)(الزمـــر: 42) .. فتفكروا!

ولكن.. ستبقى حقيقة الموت من حيث الجوهر – هذا اللغز العجيـــب في حيـــاة البشر – حقيقة ذوقية لا تدرك ماهيتها إلا بتجربتها على الذات: (كُـــلُّ نَفْـــسٍ ذَائِقَـــةُ الْمَوْتِ!)(آل عمران: 185) هكذا: (ذائقة!).. فلا أحد ينبئك عن جوهرها إلا أن تدخل بابها! وإنا لداخلوه ذوقا خاصا، أنا وأنت! و.. عما قريب!

وبمجرد حصول الذوق؛ تدرك الحقيقة كاملة، وتنـــزاح عنك الْحُجُـــب: (لَقَـــدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ!)(ق: 22)

الموت هذا القدر الغامض في حياة البشر: حقيقة (وجودية) رهيبة؛ لأنه شَكَّلَ، ولم يزل يُشَكِّلُ قَلَقاً كبيرا للإنسان. منذ غابر الأزمان، وعبر كل الحضارات البائـــدة، كـــان الإنسان يفكر في الموت تفكيرا وجوديا! يفكر بمشاعر الحيرة والقلق والتيه، في تفسير هذه الحقيقة الكبيرة الصارخة! وحاول عبثا أن (يقهر) الموت؛ لكنه انسحق مهزومـــا تحـــت عجلاته انسحاقا! فداسه الأجل المحتوم في الوقت المعلوم! ثم لجأ إلى تفسيره تفسيرات تدل على القلق والنفسية الهروبية!وقد دفن الفراعنة الذهب إلى جوار موتاهم؛ اعتقادا منهم أن الميت سوف يبعث مرة أخرى إلى هذه الحياة الدنيا؛ ولكن هيهات فقد جاءت يد التنقيب

عن الآثار فاستخرجت الكنوز الدفينة، التي قدر الله أن تكون من نصيب الأحياء، بعـــد آلاف السنين!

الموت: حقيقة مقلقة تغمر الشعور بالحيرة، ويضطرب إزاءها كل إنسان: الملحد، والمجوسي، واليهودي، والنصراني، والعلماني.. وللمسلم إزاءها حيرته أيضا! ولكنها حيرة تعبدية، حيرة توحيد وتسليم لقدر الله العجيب! إنها حيرة العبد المشوق بمعرفة غيب الله في حياة البرزخ، وسر قدرته العظيمة بعد ذلك في إحياء الموات! (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى! قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ بَلَى! وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي. قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِـــنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا! وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ!)(البقرة: 260) ومن هنا كانت حيرة المؤمن راجعة إلى حب الاستطلاع الفطري لدى الإنسان، والرغبة التعبدية في تنشيط السير، وتغذية الإيمان، بشعاع من جمال الغيب، وسر القدرة الإلهية العظيمة! ولذلك فهي تورث صاحبها لذة، ومتعة، وخشـــوعا بين يدي الله! لا قلقا واضطرابا وتمردا!

أما قلق الموت بالنسبة للكافر فحسرة وأسى! كيف يفنى هذا الإنســـان العظـــيم؟ كيف ينتهي بعد أعوام قلائل كل هذا العقل الجبار؟ ثم يمضي في النسيان بـــل في العـــدم، كأن لم يكن قط؟ الكل يموت! الفيلسوف، والفزيائي، والكميائي، والرياضي، والطبيب، وكذا الملك الجبار، والفقير المستضعف.. الكل يموت! عجبا ألم يستطع الإنسان بعـــد أن يصد الموت؟ رغم كل هذا التقدم الهائل في وسائل التحكم، والتمكن من أسرار الحيـــاة المادية؟ هذا التضخم الجبار في قوة الفضائيات، والمعلوميات، والحواسيب، والإلكترونيات، وتوظيفاتها المتعددة في التطبيب والتنقيب.. كل هذا.. كل هـــذا لم يفـــد الإنســـان في اكتشاف سر الموت؟ هذا الرقي المادي الرهيب الغريب، المتدفق بلا حد ولا حصـــر.. ألم يفد الإنسان في أن يمد من عمره بعض يوم؟ ها هو ذا لم يزل كما كان، يتساقط كأوراق الخريف الذابلة، ما بين الستين والسبعين.. أو نحو ذلك، لا يزيد ولا ينقص إلا قلـــيلا!.. كلا! كلا! بل هو إلى النقصان أقرب! تقدم كل شيء في حياة الإنســـان إلا تفكـــيره في الموت! فلم يزل قلقا، وحيرة قاتلة!

ومما أرويه من لطائف في هذا السياق، ما حدثنا به أستاذنا الكبير الدكتور رشدي فكار رحمه الله، من أن الفيلسوف الفرنسي (ألتوسير) سئل بعد محاولته الانتحـــار: لمـــاذا أقدمت على الانتحار؟ فقال:

- (أردت أن أستدعي الموت قبل أن يستدعيني!)

فانظر إلى هذا الكذب الجبان! المبطن بالفلسفة! وإنما هو قد فزع من فكرة الموت إلى الموت! لعله يجد بعد قلقه استراحة. وهو حال كثير من الذين تفزعهم حقيقة المـــوت، وهم يفكرون فيها خارج أفق الإيمان الرحب الفسيح، حتى إذا تطور بهم التفكير إلى حيرة وجودية؛ تمكنت العبثية من مشاعرهم، فلم يبالوا بعد ذلك بأي هاوية تردوا..! ذلـــك أن قلق اللغز، ورهبة المصير، وحتمية الوقوع (قبل أن يستدعيني!).. كل ذلك جعـــل هـــذا الفيلسوف لا يتحمل التفكير فيه. وليس له إلا أن يفر إلى الأمام؛ طلبا للنجاة الوهمية مـــن مطرقة القلق المزلزل! ثم ليخرج الصورة للناس على أنها بطولة! على عادة كثير من سفهاء الناس اليوم، الذين يصورون المنتحرين من المفكرين الفاشلين، والشعراء المنهزمين أبطـــالا! ويعلم الله أنهم أجبن من فكر في حقيقة الموت!

الموت إذن حقيقة وجودية!

فأيُّ لذة حقيقية في هذه الدنيا؟ إذا كان بدء المتعة مشعرا بفنائها القريب!؟

ألا بئست حياة يبني فيها الإنسان متعا شتى، حتى إذا هو قارب تمام البناء مات!

هنا إذن يتدخل المفهوم الإسلامي للموت ليعطيها بعدا جميلا!

وإنه حقا لجميل!

فلجمال الموت في الإسلام متعة الوصول!

هل سافرت يوما إلى مكان بعيد وأنت في شوق شديد، أو حنين قوي إليه؟.. هل عدت من غربتك يوما إلى وطن الطفولة والأحباب؟.. صوت الحافلة وهي تقترب مـــن الحمى، أو نفير القطار وهو يطرق المدينة، أو أزيز الطائرة وهي تشـــرف علـــى تـــراب الأحبة.. هل وجدت قلبك يدق فرحا وغبطة؟ إنها متعة الوصول!

الموت باب الدخول إلى وعد الله الكريم.. وإنما يخاف عندئذ المكذبون، ولا خوف على من آمن بالله ثم استقام.. بل إنه يرجو وعد الله الكريم، وفضله العميم. قال سبحانه:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ. وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ. نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ)(فصلت: 29-31). إنها آية من الروعة بمكان! فهي تصل - في إحساس العبد المؤمن - الحياةَ الدنيا بالحياةِ الآخرة: (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ). وتملأ المؤمن سكينة وسلاما، فإنما الملائكة القُبَّاض بالنسبة للمؤمن المستقيم رسل سلام من الله السلام! (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ!)(النحل: 32).

هذا العبد الصالح والمؤمن الطيب، يسلك سبيل ربه في الحياة، مستجيبا لنداء الله الجميل، يرجو رحمته ويخاف عذابه، يحلق في الفضاء بجناحي الخوف والرجاء، متوازن السير، لا يضره خوف فيقتله يأسا، ولا يطغيه رجاء فيملؤه غرورا؛ وإنما يفرح بالدمعة الذاكرة إذا فاضت بحب الله؛ حتى إذا وصل إلى عتبة الرحمن بسلام، ورأى ملائكة الموت تطرق بابه؛ غلب الرجاء على حاله، وملأت البشرى أفقه؛ أملا لا يخيب أبدا في عطاء الله العظيم الذي لا ينفد أبدا! وذلك تفسير النبي ρ للآية السابقة. جاء في قصة من بحر الغيب العذب الثجاج، قال ρ في الحديث الصحيح: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس! معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان! فتخرج، فتسيل كما تسيل القطرة من السقاء، فيأخذها..

فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفةَ عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون فلان بن فلان — بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا — حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا، فيستفتحون له، فيُفتَح له، فيشيعه من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي إلى السماء السابعة..

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوا عبـــدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى! فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقـــول: ديـــني الإسلام. فيقولون له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول هو رسول الله. فيقولان له: وما عِلْمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله؛ فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من الســـماء أنْ صدق عبدي؛ فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة؛ فيأتيه من رَوْحهـــا وطيبـــها! ويفسح له في قبره مد البصر!..

ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيّب الرائحة، فيقول: أبشـــر بالـــذي يَسُرُّك! هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بـــالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رَبِّ أَقِمِ الساعة! رب أقم الساعة! حتى أرجع إلى أهلي ومالي!)([90]) يعني: أهله وماله في الجنة.

فيا لها من صورة روحانية ذات جمال، فكأن روح المؤمن الصالح كـــوثر يتـــدفق ينبوعا من الأرض، فيعلو، ويعلو؛ حتى يخترق طبقات السماء برفق وسلام، ثم يتدفق مـــن أعلى، رقراقا كالبلور الصافي.. ثم يستقر بقبره، ويوصل من الجنة ببـــاب مـــن الرحمـــة والرضوان، يهب عليه بأنسامها وبركاتها حتى تقوم الساعة! أبإمكانك أن ترســـم لهـــذه الصورة (تشكيلا)؟ بأي ريشة أم بأي ألوان تستطيع استيعابها؟ كيف ترسمها حبا متدفقا، ورضى متفتحا؟ أهذا هو الموت؟ أم أنه انسياب الروح في مملكة السلام، وانطلاق الشوق إلى الرب السلام؟

ألم أقل لكم: إن الموت جميل حقا؟

ولكنه جمال مقصور على الذائقين، الذين تفطرت أكبادهم شوقا إلى يوم الدين.. (يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)(الشعراء: 89) وذلـــك خفـــق القلب بالإسلام لله رب العالمين.

---

[90] – رواه أحمد، وأبو داود، وابن خزيمة، والحاكم، والبيهقي، والضياء، وصححه الألباني في (ص.ج.ص): 1676.

ومن هنا كانت حياة المؤمن كلها أمنا وسلاما في الدنيا وفي الآخرة. وإنما هـذه بالنسبة إليه استمرار لتلك، من حيث الامتداد الوجودي، فلا فناء ولا انقـراض! وهـذا سبب من أسباب تلك الطمأنينة العالية، والراحة الشاملة، التي تهب على قلوب النفـوس المؤمنة بالله واليوم الآخر.. طمأنينة تطبع القلب بخفقات المحبة والشوق إلى لقاء الله، طيلة العمر الدنيوي، ثم تستحيل فرحا بالله وعطائه الكريم، عند باقة الموت، المبشرة بالانتقـال إلى المقامات العليا والمنازل الرفيعة.. فلا يكون نداء الموت للمؤمن إلا إذنا بالـدخول إلى حضرة المالك الكريم، إذنا يبشرك بأنك على أعتاب الجمال والجلال.. فارفع الحجـاب وادخل**!** لقد أُذِنَ لك.. فهنيئا..!

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَـادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي!)(الفجر: 27-30).

فأي فوز هذا وأي كرم!.. وأي عبد يوقن بهذه العطايا ثم يفضل قمامـة الحيـاة على كوثرها الفياض؟!

وتكبر الفرحة في قلب العبد الطيب بجمال النجاة؛ إذ يعلم أن دون خمائله وظلاله أوديةً من عذاب لقوم آخرين! إنهم الذين ظلموا أنفسهم فما آمنوا ولا استقاموا. (وَلَـوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ. ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ!)(الأنفال: 50-51).. بيد أن ههنا في رحاب النفس المطمئنة كمالات العطاء، وأنوار الرضى، والسلام! فهنيئا مرة أخرى..**!**

أما عندما تتعلق النفس ذلك التعلق الْمَرَضِي بمتاع التراب**!** وتغرق أنفاسها اللاهثة في الشهوات، تتكالب عليها، وتجري وراءها، دون النظر إلى زوال هذه الحياة، ولا إلى ما هو آت! فإن الموت آنئذ لا يكون لها إلا فَزَعاً! وتذَكُّرُه لا يكـون إلا هادمـا للـذات، ومنغصا على الشهوات! ومن هنا كان وسيلة تربوية للزجر، وأداة للردع عن الانسـياق وراء أوهام الغفلة، المتسربة إلى النفس الإنسانية. وعلى هذا المعنى تُحْمَلُ أحاديث النبي**ε**، والآثار التي سيقت هذا المساق. كقوله عليه الصلاة والسلام: (إن الْمَـوْتَ فَـزَعٌ!)([91])

[91] جزء حديث أخرجه مسلم ولفظه: (عن جابر بن عبد الله قال: مرت جنازةٌ فقام لها رسول اللهε، وقمنا معه، فقلنا: يا رسول الله إنها يهودية! فقال: "إن الموت فزع! فإذا رأيتم الجنازة فقوموا!") وأما

عندما قام للجنازة مع أصحابه؛ تربيةً لهم على تدبر هذه الحقيقة الكونية العظمى؛ بما هي مذكرة للإنسان: ماذا ادخر في رصيده الإيماني!؟

ومن هنا فإن المؤمن العامل الصادق لا يُقْبِلُ على الموت – المأذون فيه بِقَدَرِ الله – إلا بنفس مطمئنة راضية رضية! فقد أخرج الإمام البخاري قصة استشهاد خبيب بن عدي رضي الله عنه، عندما أسره أبناء (الحارث بن عامر) من كفار قريش، حيث (خرجوا بـه من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين! ثم انصرف إليهم فقال: "لولا أن تروا أن ما بي جَزَعٌ من الموت لزدت!" فكان أول من سَنَّ الركعتين عند القتل هو! ثم قال: اللهم أحصهم عددا! ثم قال:

ولستُ أبالي حين أُقْتَلُ مسلماً *** على أيِّ شِقٍّ كان لله مَصْرَعِي!

وذلكَ في ذَاتِ الإلَهِ وإنْ يَشَأْ *** يُبَارِكْ على أوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ!)([92])

وتُحَدِّثُ (ابنةُ الحارث) التي كان أسيرا عند أهلها – وهو آنئذ في بيتها – قالت: إنهم لما أجمعوا على قتله (اسْتَعارَ منها مُوسَى يَسْتَحِدُّ بها([93])، فأعارته. قالت: فأخذ ابنا لي – وأنا غافلة – حين أتاه! فوجدته مُجْلِسَهُ على فخذه والموسى بيده! ففزعتُ فزعةً عرفَها خبيب في وجهي! فقال: تخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله! قالت: والله ما رأيتُ أسيرا قَطُّ خيراً من خبيب!)([94]).

وكذلك أحوال غيره من الصحابة والصالحين كثير! من مثل قصة القُرَّاء السـبعين من أصحاب رسول الله ε الذين أرسلهم إلى قبيلة من العرب؛ ليعلموها القرآن، فغـدرت بهم وقتلتهم! وكان من بينهم الصحابي الجليل "حَرَام" خال أنس بن مالـك رضـي الله

الحديث الذي رواه الترمذي وغيره، وفيه قوله: (أكثروا من ذكر هادم اللذات!) فقد ذكر الألباني في تعليقه بأنه ضعيف جدا! كما أن صيغة (هادم اللذات) في وصف الموت قد وردت ضـمن حـديث طويل، عند الطبراني، في قصة موت النبي ε، وحكم عليها الإمام الهيثمي بالوضع! قال رحمه الله: (رواه الطبراني، وفيه عبد المنعم بن إدريس وهو كذاب وضاع!) مجمع الزوائد:29/9.

[92] رواه البخاري.

[93] يستحد بها: أي يتطهر بها من شعر العانة ونحوه.

[94] رواه البخاري.

عنهما. فلما شرعت في قتلهم قال بعضهم: (اللهم بلغ رسولَك أنا قد لقيناك فرضينا عنك! (...) وأتى رجلٌ "حراما خال أنس" من خلفه، فطعنه برمح حتى أنفذه، فقال حرامٌ: فُزْتُ ورَبِّ الكعبة!)([95]) نعم! هكذا كانوا يجدون الموت - لحظةَ ذوقه – رضىً بالله وعن الله! وفوزا أكيدا يقينا! ولذلك قال أحد الصحابة وهو يواجه الموت في معركة أحد: (إني أجِدُ رِيحَ الجنة دون أُحُدٍ!)([96]). بل يصبح الموت في سبيل الحق لذةً ومتعةً روحيةً - في حد ذاته - يستحليها العبد الناظر إلى حقيقته الغيبية. ولذلك قال رسول اللهε مُقْسماً: (والذي نفسي بيده! لَوَدِدْتُ أني أُقْتَلُ في سبيلِ الله، ثم أحيا ثم أُقْتَلُ، ثم أحيا ثم أُقْتَلُ، ثم أحيا ثم أُقْتَلُ!)([97]) والأمر ليس متعلقا بأحوال الاستشهاد في سبيل الله فقط، كما هو ظاهر هذه الأمثلة، ولكنه حال المؤمن الموقن بالله عموما، الظان به خيرا، في سائر عمله الصالح. فقد رَتَّبَ النبيε في جزاء الأعمال الصالحة، دخول الجنة على ولوج باب الموت! حتى لكأن الموت إنما هو باب من أبواب الجنة! قال مثلا: (من قرأ آية الكرسي دُبُرَ كل صلاة مكتوبة؛ لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت!)([98])

هكذا ما كان للموت في عقيدة الإسلام أن يكون (فوبيا)، تدمر الأعصاب، وتحطم شخصية الإنسان! وإنما هو لحظة من الجمال الروحي، تدخل بالسرور على أهل الشوق والمحبة، من الصديقين والشهداء والصالحين!

فأبشر أيها المؤمن الطيب.. إن الموت بشرى!

---

[95] متفق عليه.

[96] رواه البخاري.

[97] رواه البخاري.

[98] رواه النسائي وابن حبان عن أبي أمامة. وصححه الألباني في (ص.ج.ص) رقم: 6464.

المشهد الرابع: في جمالية الحياة الآخرة

الحياة الآخرة هذا المقابل للحياة الدنيا. فكلاهما حياة، ولكن شتان شتان بين الماء الزلال والسراب الهارب بين الرمال!.. فالحياة الآخرة وحدها هي الحيـــاة! (وَإِنَّ الـــدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ!)(العنكبوت: 64)

الحياة الآخرة جمال يومض بالجلال! فهي تبدأ بتغير أوضاع الكون، وإعادة خلقه من جديد. في عملية خلق إلهية عظيمة، ذات وقع على النفس كبير، يملؤها رغبةً ورهبـــةً، في سيرها الراحل إلى الله الملك العظيم..

عندما تقرأ آيات اليوم الآخر في القرآن؛ ينبعث فيك الإحساس بالهول الكبير، إزاء يوم القيامة، وتنقدح الحركة الكبرى في يقينك، موعدا عاما للقاء الله في يـــوم الفصـــل.. فتشعر وكأن الأرض تحت قدميك تُرَجُّ رجا! وكأن الجبال تهب في الفضاء الواسع ريحـــا وغبارا! والسماء تطوى طيا! بأفلاكها وكواكبها؛ تهييئا لخلق كوني جديد!.. انظـــر إلى الجبال تهترئ صخورها، فينسفها الله نسفا!.. فترى الأرض قاعا فارغا ممتدا، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا!.. ومد عينيك إلى الأفق وتملّ ذرات الغبار الراحل إلى الله.. فقبل قليل، بل قبل أقل من ومضة برق، أو قبل أقل من لمحة عين؛ كان جبالا راسيات، ترسخت متانتها أوتادا عبر أزمنة جيولوجية شتى!.. شيء رهيب، لا ينوب عن تصوير رهبته إلا أن تـــراه حقا!! تكوين جديد يفصل بين عالمين، أو قل بين نفختين! (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَـــنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْـــرَى فَـــإِذَا هُـــمْ قِيَـــامٌ يَنْظُرُونَ!)(الزمر:68) وترى بعينيك أهوال القيامة، صَعْقا ونشورا، فيزداد مقام الخـــوف والرجاء بذاتك توهجا، وتتذلل بين يدي سيدك مرتلا آياته عبر شلال دمع متبتل، منيب: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ! يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُـــكَارَى وَلَكِـــنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ!)(الحج:1-2)

فيتجلى ربك للقضاء بين خلقه، وما أدراك ما تجلي الرب للقضاء؟.. أين الملـــوك والجبابرة؟ وأين المردة والشياطين؟ وأين الأنبياء والأتقياء؟ وأين قوافل المستضعفين؟ ثم أين أنت بين ذلك كله؟

كانت الأنفس بارزة لا يخفى على الله منها شيء، وكانت الأبصار خاشـــعة (إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ!)(غافر:18) وتحل اللحظة الفاصلة بين الحق والباطل، بجلالها وجمالها، وينتظم الناس ليعرضوا على ربهم صفا، ويقوم جبريل عليه السلام والملائكة أيضا صفا.. و..

(وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)(الزمر: 69) فيتشكل الناس بعد ذلك فريقين، كل فريق يمضـــي إلى عكس جهة الآخر، أفواجا، أفواجا، فيفترق بافتراقهما (مقام الخـــوف والرجـــاء) إلى الأبد! (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا)(الزمر:71) (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَـــى الْجَنَّةِ زُمَرًا)(الزمر: 73).

كانت الصور تمر حية بمقامك، وأنت راحل عنك إلى حيث مشاهدها.. وكانت الجوانح يطفح لهيبها ببكاء عميق، خوفا أن يزيغ البصر عن محراب القانتين؛ فيرجك سؤال الملك الجبار:

- (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟)(غافر: 16) وتمضي مع الترتيل الجميل مُسَلِّما:
- (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ!)(غافر: 16). ([99])

وللآخرة في ذوق العبد السالك جمال آخر..

لو لم يكن من جمال الآخرة وجلالها؛ إلا حقيقة الفصل بين الخلائق؛ لكفى بهـــا جمالا في الشعور والاعتقاد! ألا ترى هذا التدفق البشري في الحياة الدنيا؛ وكيف يـــدوس بعضه بعضا في ظلمات من الظلم والطغيان؟.. كيف تمضي الحياة الظالمة مستقرة مطمئنـــة خلال قرون وقرون دون قصاص؟.. إنه سؤال كبير لمن تفكر!

[99] - انظر كتابنا: قناديل الصلاة.

الجزاء الأخروي، ذلك الوعد الإلهي العظيم، هو سر الأمل في الآخرة.. وسر الإخلاص في الأعمال هنا بهذه الدنيا.. وإن قسطا كبيرا من جمال الإيمان يرجع الفضل فيه إلى عقيدة الجزاء، أساس الإيمان باليوم الآخر.

بهاء سمت الصالحين المشع بالنور من العيون والكلمات.. وجمال العابدين الفواح بمسك المحبة.. وصفاء المؤمنين الراشح صدقا يشف من بين الجوانح.. كل ذلك مبعثة اليقين بالجزاء الأخروي. فأكرم بها عقيدة تهب أصحابها مقامات الجمال في الدنيا والآخرة!

وما ضل المسلمون اليوم إلا بسبب ضمور هذا الشعور الأخروي في قلوبهم.. ومن طرائف ما أرويه في هذا السياق ما حدثنا به أحد أساتذتنا، وهو فضيلة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي([100]) . قال: كلفت وزارة التربية والتعليم ببلد عربي، بعض الأساتذة الأفاضل بوضع كتاب في العقيدة، يكون مقررا دراسيا للطلاب. وعندما أكملوا مسودته؛ عرضها أحدهم على الأستاذ إحسان لمراجعته. قال: فلما تصفحت الكتاب وجدته قد احتوى على كل شيء في العقائد عدا ركن الإيمان باليوم الآخر.. فسألته عن سر غياب هذا الركن من المقرر، فأجاب بأنه موجود! فقلت له: بل هو غير موجود؟ فأخذ مني الكتاب وتصفحه، ثم لم يجد له أثرا!.. فأطرق ثم قال: لقد نسيناه!

قال الأستاذ إحسان: فكتبوا الفصل الخاص بعقيدة اليوم الآخر، بعد ذلك تحت عنوان: (الركن الذي نسيناه!)

وكان هذا العنوان عبارة في غاية الدلالة الموحية، والتعبير الدقيق عن واقع الأمة اليوم. هذه الأمة التي مزقتها الأهواء والأدواء؛ إذ نسيت (اليوم الآخر)!

ومن جمال اليوم الآخر في وجدان المؤمن أنه يوم موعد جميل.. موعد مع قافلة السالكين إلى الله، عبر قافلة النور الضاربة في الزمان الغابر، على امتداد تاريخ البشرية كله!.. بداء بأوائل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأتباعهم من الصالحين والصديقين والشهداء: نوح، وابراهيم، ولوط، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإسحاق، ويونس، وزكرياء، ويحيى، ويعقوب، والأسباط، وموسى، وعيسى.. والأنبياء كلهم ممن عرفت و لم تعرف؛ حتى نبينا الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. رسل وأنبياء خاضوا

---

[100] - مترجم كليات رسائل النور للنورسي إلى العربية.

معارك الحق في سبيل نشر النور، وعانوا من عنت الجاهلية شدة وآلاما؛ فثبتوا وكانوا خير العابدين.. أنت هنا في اليوم الآخر تلقاهم جميعا يحملون معهم تفاصيل قصصهم الشيق الجميل.. وأنوار سيرهم الطاهر المتبتل.. تعددت اللغات والقصد واحد! هذا هو الدين: رب واحد وأمة واحدة. فقد قال سبحانه في سورة الأنبياء بعد ذكر عدد منهم: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)(الأنبياء: 91) هذا هو الأصل، ولكن الناس اختلفوا.. قال عز وجل بعد ذلك مباشرة: (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)(الأنبياء:92).. فجاء الإسلام بعد هذا الشتات والتفرق عبر السبل؛ ونسخ الأديان السابقة كلها نسخ تصحيح وتأصيل؛ لإرجاع جمال الدين الأوحد إلى الناس (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ)(آل عمران: 19)

هذا هو الإسلام فيه جمال الاتباع للرسول محمد بن عبد الله ρ، وجمال الانتظام في سلك المحبين، تحليقا في سماء الروح، مع الطير الآئبة إلى الله.. فوحدة السير عبر التاريخ تملأ القلب العابد أنسا ونشاطا، ولو كان يمشي في زمانه الغريب فردا!

ولليوم الآخر أيضا جمال الرحيل إلى بلاد الله الخضراء: جنة الرضوان.. هناك حيث تلقى محمدا وصحبه، وقافلة الأحبة! وللجنة في أخبار القرآن الكريم والسنة النبوية بهاء آخر.. لا تغني عنه كلمات عبد عاجز مثلي، ولا تنوب عن عبارة الوحي فيه ألفاظ مخلوق أسير التراب، ولقد صور الله دخولها تصويرا فيه بهاء وجلال، يأخذ بالألباب، وتتعلق به القلوب، فإذا هي تخفق شوقا إلى تلك اللحظة ذات الجمال والدلال. قال تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ. وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(الزمر:73-75).

إن هذا المشهد المشرق ليرسخ في ذاكرة العبد المحب؛ فيملؤه شوقا إلى هذه اللحظة الكريمة. من ذا الذي لا يشتاق إلى اللحاق بموكب تحدوه الملائكة إلى جنة الرضوان؟ حيث النعيم المقيم والجمال المستديم.. خلود متجدد النعم والبهاء، خلود لا يغيم ضحاه، ولا يغبر

سماه! مشهد تميد أحواله بين ظلال الجنة وأنهارها، وصحبة الملائكة وأنوارها، وأنـــس الله ورضاه..

ولجمال الجنة في الحديث أوصاف أخرى تملأ القلب بهجة وسرورا. قـــال عليـــه الصلاة والسلام: (الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كمـــا بـــين الســـماء والأرض! والفردوس أعلى الجنة، وأوسطها! وفوقه عرش الرحمن! ومنها يتفجر أنهار الجنة. فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس!)([101]) ذلك رَوْحٌ من أرواح البشارة.. وعبير من أريـــج الحـــداء النبوي.. عسى تسابق إلى مغفرة من ربك ورضوانه.. يا أيها العبد الراغـــب في الخـــيرات والحسنات!.. فالجنة إذن منازل ومقامات! وإنها لدرجات على حسب العمل! وإن لذلك كله بهاء آخر.. يملأ القلب خوفا ألا يكون في عليين! وإن لمشاهد الجمال هنـــاك لـــذوقا تواقا! إذا استقر كل عبد في مكانه بالجنة، وتباعدت المنازلُ الدرية طبقاتٍ في سماء الله! قال الحبيب المصطفىε: (إن أهل الجنة لَيَتَرَاءَوْنَ أهلَ الغُرَفِ من فوقهم كما تَرَاءَوْنَ الكوكبَ الدري الغابِرَ في الأفق، من المشرق والمغرب؛ لتفاضل ما بينهم!)([102]). فيا لسرعة النـــبض بهذا القلب الكليل! ويا لخوفه ألا يكون من السابقين!

ثم إن في اليوم الآخر لموعدا آخر، يملؤه ضياءً ونورا.. موعدا عَمِلَ لـــه الأنبيـــاء والصِّدِّيقُون! وتعلق به المحبون أولا وآخرا!.. إنه رؤية الله!.. الله ذي الجـــلال والجمـــال! تقدس تعالى في صفات الكمال! وتنـــزه سبحانه عن الشبيه والمثال! رؤية يســـتمد منـــها العابدون جمالهم، ويستدرون بها أنوارهم! ويكتسبون من تجلياتها حياة الخالدين! من الرب الأعلى واهب الحياة لمن شاء من العالمين.. سبحانه وتعالى في عليائه علوا كبيرا.. تقدست أسماؤه وتنـــزهت صفاته.

الرؤية السعيدة موعدٌ للمحبين البررة، الأخلاء، الأوفياء، الأصفياء! قـــال ســـيدنا رسول اللهε لأصحابه، ذات ليلة بدرية وافية صافية: (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر! لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلَبُوا على صلاة قبل طلوع الشـــمس،

---

[101] جزء حديث سبق تخريجه

[102] روه مسلم.

وصلاة قبل غروبها فافعلوا!)[103]. ولرؤية الله أَثَرُ النُّورِ المتدفقِ على الوجوه المحبة، وطيب المسك النافح للأبدان، وشذا الريحان السارب بين الأغصان.. ففي لقطة من لقطات التجليات أخبر النبي ρ بما يلي: (إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة! فيها كثبان المسك، فتهب ريح الشمال، فتحثو في وجوههم، وثيابهم، فيزدادون حسنا وجمالا! فيرجعون إلى أهليهم، وقد ازدادوا حسنا وجمالا، فيقولون لهم: والله لقد ازددتم حسنا وجمالا!)([104]) (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)(الحديد:21).

وفي الجهة الأخرى أشياء أخرى.. نعوذ بجمال الله منها!

---

[103] – متفق عليه.

[104] – رواه مسلم.

الإشراق الثالث: في جمالية العبادة

المشهد الأول: في جمالية (الانتساب) التعبدي

العبادة: هي عنوان الجمال في الإسلام، وشعار المحبة. وإذا أحب الله الإنسان خاطبه بلفظ: (عبدي)! أو (عبادي)!.. فنسبه إليه تعالى نسبة خصوص وإضافة!

وقد سبق أن معنى العبودية دال على خضوع وانقياد، في غير سخط ولا إكراه، ولكنه خضوع المحب الرَّضِيِّ! ومن هنا لم تكن الأعمال لترتقي إلى مستوى العبادة حقيقة إلا إذا أداها العبد برضاه! ولو كانت هذه الأعمال من أركان الإسلام، من صلاة وصيام وزكاة وحج. وقد ذكر العلماء أن الغني إذا امتنع عن أداء الزكاة، فقَوَّمَ السلطان عليه ماله وانتزع منه مقاديرها وصرفها في وجوهها، فإن ذلك يسقط عنه حقوق المستحقين، ولا يكلف بإعادة إخراجها بعد، ولكنه لا يسقط عنه حق الله؛ لأن حق الله في العمل إنما هو الشعور بالتعبد. وهو معنى الرضى والمحبة الذي يُخالط قلب العامل عند الدخول في عمله. وهذا ما لم يحصل بالنسبة لهذا الممتنع عن أداء الزكاة! ومن هنا كانت حقيقة العبادة شعورا وجدانيا قبل أن تكون أعمالا مادية! وكانت إحساسا بحب من يوجه إليه العمل وهو الله تعالى، لا (ضريبة) يؤديها المرء وهو كاره!

ولذلك وصفت أعمال بأنها لا تكون إلا لله! مثل الصوم. على نحو ما جاء في الحديث القدسي: (كل عمل ابن آدم له؛ إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به)([105])؛ وذلك لما للإخلاص في هذه العبادة من نصيب! ولما للصدق والرضى فيها من أساس في النية الباطنة! فما يمنع العبد أن يغلق عليه الأبواب ويفطر سرا؛ إلا أن يكون محبا راضيا، راجيا ما عند الله حقا؟

إن العبادة (رغبة) قبل أن تكون (رهبة)! [لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ] (البقرة: 255) أما (الخوف) المذكور مع (الرجاء) في سياق التعبد فله مدلول آخر، سوف نقف عليه بإذن الله. ومن هنا كان وصف الإنسان بأنه (عبد) من أحب الأسماء والصفات الإيمانية

[105] – متفق عليه.

إلى الله، ومن أحسنها في تسمية الإنسان، كما ورد في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: (إن أحب أسمائكم عند الله: عبد الله، وعبد الرحمن)([106])؛ وذلك لأن هـذين الاسمين فيهما نسبة العبد إلى اسم الجلالة (الله)، وإلى أعظم صفة لله عز وجل (الـرحمن): [قُـلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى](الإسراء: 109) وفي ذلك ما فيه من شرف الانتساب التعبدي لله الواحد القهار.

وبهذا المعنى استُعْمِلَ مصطلح (الانتسـاب الإيمـاني) أو (التعبـدي) في الفكـر الإسلامي؛ للدلالة على خصوص استناد العبد إلى الله في كل أمره، وما يجده في ذلك من أذواق وجمال.

ولعل الأستاذ بديع الزمان النورسي - رحمه الله - هو أول من اسـتعمله بهـذا الوضوح الاصطلاحي، في سياق تجديد الفكر التربوي الإسلامي. إذْ كَشَفَ النقاب بقوة عن مشاهده الجميلة! فرسم بذلك لوحة وجدانية خالدة، كلما طالعتَ أنوارَها تَـدَفَّقَتْ بالأسرار!

ذلك أن (المسلم عند النورسي لم يعد — باعتباره عبدا لله - مجردَ اسْمٍ عَلَمٍ ينادَى، أي: (عبد الله) أو (عبد الرحمان)، وإنما هو صاحب وظيفة مستنبطة من التفكر الخفـي، والتدبر الْمَلِيِّ؛ لطبيعة العلاقة بين المضاف والمضاف إليه، في اسم (عبد الله) الذي هو اسم وظيفي — لا عَلَمِي — لكل مسلم حق. إن الإضافة النحوية لها دلالـة عظيمـة، علـى مستوى المعاني بالقصد البلاغي والإيماني معا. أعني من حيث إنها تفيد اختصاص المضاف إليه بالمضاف، وتفرده به، على سبيل (الامتلاك). وكذا اختصاص المضاف بالمضاف إليه، على سبيل (الاستناد) والانتماء.

وهنا تكمن خطورة المصطلح: (الانتساب)؛ لأنه تصوير لعلاقة المطلق بالنسبي وما يكتسبه هذا من ذاك! فعلاوة على دقة العلاقة بين مفهومين لا يجمعهما في المنطق إلا معنى التضاد؛ بينما هما هنا يلتقيان في المعنى الإسلامي؛ في التناسب الجميل المستفاد من علاقـة العبادة، وما تحمله من ظلال روحية هادئة. قلت: علاوة على ذلك كله فـإن المصـطلح

---

[106] - رواه مسلم .

المدروس يصور بأدق ما يكون التصوير الرقي الإنساني، في مدارج الإيمان، حتى يكـون أهلا لمقام العطف الرباني والتضييف الرحماني.

وإني لأحسب أن تجديد التدين في المجتمع الإسلامي، لو أنه سعى هـذا المسـعى القائم على تحقيق معنى (العبودية)، حيث كانت الإضافة فيها إلى الرحمن نقطة اسـتناد؛ لكان له اليوم شأن آخر! إذ يمنح العبد معنى القوة والمنعة والحياة،كما في قوله تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ. وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً)(الإسـراء:65). فيـاء الضـمير: (المضاف إليه) الدال على الذات الإلهية، يخص المضاف (عباد) بخصوص (الانتساب) الذي يكتسب منه (العبد) شرف النسبة إلى الملك العظيم رب السموات والأرض. فذلك ما عبر عنه الأستاذ النورسي بـ(**الانتساب الإيماني**)، كما في قوله يخاطب المؤمن: "إنك تنتسب بهوية الانتساب الإيماني إلى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة"([107])، وقوله أيضا: "إن نـور الإيمان الذي بسط ذلك الانتساب والعبدية هو الذي يجعل النمل يغلب فرعونا؛ بقوة ذلك الانتساب!"([108])

وبهذا المعنى فسَّرَ - رحمه الله- سِرَّ بدء الأعمال كلها في الإسلام بـ(بسـم الله الرحمن الرحيم). يقول: "إن الذي يتحرك ويسكن، ويصبح ويمشي بهذه الكلمة: (بسـم الله) كمن **انخرط** في الجندية، يتصرف باسم الدولة، ولا يخاف أحدا، حيث إنـه يـتكلم باسم القانون، وباسم الدولة، فينجز الأعمال ويثبت أمام كل شيء"([109]). ويقول في بيان أوضح: "إذا انتسب أحد إلى السلطان بالجندية أو بالوظيفة الحكومية، فإنه يتمكن أن ينجز من الأمور، والأعمال أضعاف أضعاف ما يمكنه إنجازه بقدرته الشخصية، وذلـك بقـوة ذلك الانتساب السلطاني"([110]). فهذا التشبيه البليغ مقصود للدلالة على الطبيعة الوظيفية، للخدمة التعبدية التي بها فقط ينال المسلم شرف الانتساب الإيماني، ذلك أنه -كما يقول رحمه الله - "يرقى إلى مقام الضيف الكريم في هذا الكون، وإلى مقام **الموظف** المرموق فيه،

[107] اللمعات : 3/ 388 .
[108] الشعاعات : 4 / 13 .
[109] الكلمات : 1/ 6 – 7 .
[110] اللمعات : 3/ 278 .

رغم أنه ضئيل وصغير بل هو معدوم ، وذلك بسموه إلى مرتبة خطاب (إياك نعبـــد): أي انتسابه لمالك يوم الدين، ولسلطان الأزل والأبد"([111]).

ومن هنا كان الإيمانُ الْمُبَلِّغُ إلى مقام الانتساب انخراطاً وظيفياً في حركة الجمال، حيث عمل النورسي على تحسيس طلابه بالذوق الانتمائي للإسلام، وتجديد مفهوم الصفة الإسلامية التي أبلتها العادات الاجتماعية، وطمستها الظلمات العلمانية الزاحفة!)([112])

ثم إن الناظر في النصوص الشرعية المتضمنة لمفهوم (الانتساب) في القرآن الكـــريم والسنة النبوية؛ يجد أن لله – عز وجل – في مناداة الإنسان وتسميته باعتبار (النسبة) ثلاثة أحوال:

الأولى أن ينسبه إلى جبِلَّتِه وطبيعته الخِلقية، فيسميه (الإنسان). والثانية أن ينســـبه إلى أبيه؛ فيسميه (ابن آدم، وبني آدم). والثالثة أن ينسبه إليه تعالى فيسميه (عبدا، أو عبدي أو عبادي). ووحدها هذه النسبة الأخيرة تكون في سياق المحبة الإلهية العالية للعباد. فـــلا يذكر الإنسان بوصفة عبدا إلا للدلالة على حب الله له! إذ العبودية محبة متبادلة بين الرب الأعلى والمخلوق الأدنى!

ولبيان تفرد وصف الناس (بالعباد) بمعاني المحبة والتقريب، نذكر خلاصة مركـــزة عن كل من التسمية (بالإنسان)، والمناداة (ببني آدم):

ففي الأولى يسمي الله الإنسان (إنسانا) في سياق الابتلاء، وتحميلـــه المســـؤولية والأمانة! وهي عبارة ذات وقع حيادي على نفس المتلقي والقارئ للقرآن. ولذلك كانت أوضح الآيات في هذا المعنى قول الله عز وجل: (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَـــةَ عَلَـــى السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّـــهُ كَـــانَ ظَلُومًـــا جَهُولاً)(الأحزاب: 72). فبقيت عبارة (الإنسان) في القرآن محملة بهذه الدلالة، ومشحونة بهذا الإيحاء. إنه إذن صاحب أمانة! أمانة تكليف واستخلاف. ولا أمانة إلا وهي تلقـــي على صاحبها تبعات كبرى. أقل ما فيها المتابعة والمحاسبة!

---

[111] الكلمات : 1 / 45 .

[112] نقلا عن كتابنا: (مفاتح النور) بتصرف يسير. ص: 279-283.

ومن هنا كان بتحمله الأمانة ظلوما لنفسه، جهولا بخطورة ما تحمل وتقلد! فكان الحكم الابتدائي عليه بالخسران؛ لأنه راهن على شيء أكبر من حجمه! فلا ينجو من حيث هو (إنسان) إلا على سبيل الاستثناء! (وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)(العصر). وهو استثناء ثقيل يحمل – بعد الإيمان والعمل الصالح – شروطا ثقيلة: التواصي بالحق والتواصي بالصبر، و تلك هي خلاصة الأمانة! فالإنسان إذن مخلوق مغلول إلى التزامه، مرهَن بقضيته: (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا)(الإسراء: 13) (أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى؟)(القيامة: 36). بل هو ملزم بالسير الدائم إلى ربه، سير تتخله المشاق والصعاب؛ لأنه يشق طريقا تخالف ما تشتهيه نفسه البشرية، من دَعَةٍ وملذات دنيوية، ورغبات حيوانية؛ ولذلك عبر الله عز وجل عن هذا المعنى بـ(الكدح). وفي ذلك ما فيه من الإيحاء بمشقة السير، ووعورة الطريق! قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ!)(الانشقاق: 6)

و لم يكن ابتلاء الإنسان مهددا بالخسران؛ إلا لأنه ارتبط ابتلاؤه هذا بطبيعته الطينية، التي تشده إلى الأرض وإلى علائق التراب، بينما غاية (ابتلائه) أن يرتقي إلى السماء! فأعظم به من امتحان عسير! قال عز وجل: (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ)(الإنسان: 2). وما أدق تعبير الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في هذا السياق، قال: (محنة البشر أنهم مكلفون بالارتقاء إلى الملأ الأعلى، على حين أنهم خلقوا من حمأ مسنون!)[113] ولذلك وجدنا لفظ (الإنسان) يعبر به في القرآن للدلالة على هذا المخلوق من نطفة أمشاج للابتلاء. فكانت الآيات بمساقاتها تشير إلى أنه كلما انْقَضَّتْ عليه طبيعته الطينية، استجاب لأهوائه وشهواته!

ولذلك كانت له في القرآن الكريم – بهذا الاعتبار – صفات وأحوال كلها تدور حول هذا المعنى: يقول عز وجل: (إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(إبراهيم: 34) وقال سبحانه: (خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)(النحل: 4) وكذا قوله سبحانه: (إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا!)(المعارج: 19-21)

[113] – فن الذكر والدعاء: 15

إنها إذن؛ صفات مرتبطة بالخلق والطبيعة الجبلية! ولذا كان التعبير عنها في كثير من الآيات بلفظ (كان) للدلالة على الثبات والاستمرار كما في التعبير بها عن صفات الله عز وجل في القرآن، وذلك نحو: (وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً!)(الإسراء: 11)، (وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا)(الإسراء: 67)، (وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا)(الإسراء: 100)، (وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)(الكهف: 54).

ويلحق بها معنى الشرط وجوابه، كما في قوله تعالى: (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا!)(الإسراء: 83) إنه مخلوق مجبول على رغباته، وطلب شهواته التي تقوده إلى الفجور، والظلم والطغيان: (بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ)(القيامة: 5)، (كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى!)(العلق: 6)

هذا هو الإنسان!

تعبير لا يوحي بالأنس والطمأنينة والسلام وإنما يوحي بالتكليف والحساب!

وأما الثانية فهي نداء الله عباده بتعبير (بني آدم)، وهو قريب في الدلالة من لفظ (الإنسان). بل إن بينهما تداخلا واشتراكا؛ لأنه إذ ينسب إلى أبيه آدم يحيل على خصائص (الآدمية). وآدم هو ذلك المخلوق من طين، المنفوخ فيه من روح رب العالمين. إلا أن الإيحاء هنا لا يركز على جانب الأمانة، والمسؤولية، والتكليف؛ بقدر ما يركز على جانب واحد من ذلك كله؛ ظاهر على كل الصفات المضمرة في (الآدمية)، المشاركة للفظ (الإنسان). وهذا الوصف الظاهر البارز في النداء (ببني آدم) هو: ضعف العزيمة والنسيان! وهو مأخوذ من قول الله عز وجل: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا!)(طه: 115). ولذلك كان النداء (ببني آدم) دالا على معنى التذكير والتنبيه! إذ تعلق بمخلوق شأنه العام هو النسيان وضعف العزيمة. قال تعالى مذكرا: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ؟)(يس:60). وهذا العهد هو المذكور في قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)(الأعراف: 172).

وهذا سياق دال على ما نحن فيه من تعرض (الآدمي) للنسيان والغفلة. والتقرير القرآني هنا بإشهاد بني آدم على أنفسهم دال على أنهم سينكرون العهد، وتضعف عزيمتهم

عنه، وينسونه. وذلك الذي حصل! فلا بد إذن من إشهادهم على أنفسهم إشهاد فطرة! ومن هنا لما عبد الناس الشيطان قال تعالى مذكرا ومنكرا: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ؟)(يس: 60)! وهو التنبيه الذي تكرر على سبيل التحـــذير في قولـــه تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ!)(الأعراف: 27). إنه تذكير للإنسان (بآدميته): (كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ!).

وكل ما عبر فيه بوصف (الآدمية) والنسبة إلى الأب الأول، ملحق بهذا المعنى، ولو جاء في سياق التكليف الجزئي، فإنه يحمل في داخله التنبيه إلى خاصية النسيان، وضـــعف العزيمة، والتحذير منها، كما في قوله تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّـــونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَـــا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(الأعراف:35-36)

إنه تعبير يحمل في دلالته ذلك الإيحاء الأول بالتذكير بالعهد؛ أن تخرمـــه العـــزائم الضعيفة، والتنبيه من الغفلة والنسيان أن تحاصره الآدمية!

وقد تحيل عبارة (ابن آدم) على معنى (الإنسان) من حيث هو مخلوق على جبلـــة طينية شرهة! وقد أسلفنا أنَّ بين العبارتين اشتراكا. وعلى هذا المجرى جرى كـــثير مـــن الأحاديث النبوية التي تضمنت هذا التعبير (ابن آدم). وذلك نحو قوله ρ: (لو كان لابـــن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا! ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا! ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب! ويتوب الله على من تاب)[114]. وقوله ρ: (إن ابن آدم إن أصابه حَرٌّ قال: حَسِّ! وإن أصابه بَرْدٌ قال: حَسِّ!)[115] وعبارة (حَسِّ) اسم فعل مضارع بمعنى: (أتضجر!)

وهذان الحديثان إنما هما ترجمة لما ورد في القرآن عن (الإنسان) في مثل قوله تعالى عن المعنى الأول: (إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ. وَإِنَّهُ لِحُـــبِّ الْخَيْـــرِ لَشَدِيدٌ)(العاديات: 6-8) وكذا قوله سبحانه: (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا!)(الفجر:19-20). وقوله سبحانه عن المعنى الثاني: (إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا!)(المعارج: 19-21)

---

[114] – متفق عليه.

[115] – رواه أحمد والطبراني . وصححه الألباني (ص.ج.ص): 1527.

ويتفرد النداء الإلهي والتعبير القرآني بوصف الناس (بالعباد)؛ للدلالة على الرضى، والحب، والإشفاق، وكل المعاني الراجعة إلى صفات الله الرحمن الرحيم الودود الغفــــور؛ وذلك لما للإنسان بوصفه (عبدا) عند الله من مقام وقرب! وإنما العبد: من انقاد قلبه لربه رغبا ورهبا، وخضعت جوارحه لمولاه طاعة وحبا! وتلك هي الصفة التي جـــاء الـــدين لإسباغها على الإنسان؛ فيرقيه إلى أعلى منازل العبودية. وذلك أساس مقتضى شهادة: (لا إله إلا الله) كما تقدم. فكأن الدين كل الدين إنما هو إعطاء صفة (عبد) لهذا المخلــوق: الإنسان! أو كما قال الشاطبي رحمه الله عن وظيفة الدين المقاصدية؛ إنما هـــي: (إخـــراج المكلف عن داعية هواه؛ حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا)[116].

ثم إن وصف (عبد) أو (عباد)، ولو ورد مجردا عن الإضافة، لا معنى له إلا بتقدير الإضافة. وهي النسبة إلى الله سبحانه! أي (عبد الله) و (عباد الله). وقد تأتي العبارة صريحة النسبة والإضافة إلى الله، كما سترى إن شاء الله.

وهذا فرق جوهري هام جدا، في إطلاق ألفاظ: (الإنسان)، و(ابن آدم)، و(عبـــد الله)؛ إذ ينسب في الأول إلى أصله الخِلقي الجبلي، وينسب في الثاني إلى أبيه، وما تحملـــه هذه النسبة من دلالة على طبيعة (آدم)، بينما يتفرد التعبير الأخير بنسبته إلى (الله)! وكفى بذلك شرفا ورفعة وجمالا!

قلت: ولذلك كان وصف (العبودية) في القرآن لا يرد إلا في ســـياق البشـــارة، والمحبة، والرضى الإلهي الكريم! وما لم يكن ظاهره من الآيات كذلك فهو ملحـــق بهـــذا الأصل في المعنى؛ لأن الكلية الاستقرائية إذا استقرت (كلية) رجع إليها كل جزئي، ولـــو بدا أنه شاذ عنها، كما هو مقرر في الأصول [117]. وأوضح مثال لذلك قوله تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِـــي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)(البقرة: 185).

إن هذه الآية الكريمة هي عنوان محبة الرب لعباده في القرآن الكريم.. إنها شـــلال الواردات الخفي، الهامي بالرحمة والمغفرة على قلوب عباده التائبين، الطارقين بـــاب الله،

---

116 - الموافقات: 168/2.

117 - الموافقات: 53/2

فقراء محتاجين! ولقد التقط الأستاذ سيد قطب رحمه الله منها لطائف من رَوْح الله فقال: (إضافة العباد إليه، والرد المباشر عليهم منه.. لم يقل: " فقل لهم ": إني قريب.. إنما تـولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال: قريب! (...) إنها آية عجيبة.. آية تسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة والود المؤنس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين.. ويعـيش منها المؤمن في جناب رضي، وقربى ندية، وملاذ أمين وقرار مكين). [118]

ذلك أن الطريقة الغالبة في السؤال والجواب في القرآن – كما قرره علماء القرآن – أن يجيب الله عز وجل على أسئلة الناس بقوله تعالى لنبيه محمد ρ: (قُلْ!)؛ إمعانـا في ترسيخ نبوته، ورسالته إلى الناس، معلما ومربيا ورسولا! وتلك خلاصة (عقيدة الاتبـاع) في شهادة: (أن محمدا رسول الله)، وهو أغلب أسلوب القرآن في هذا الشأن. وذلك نحو قوله تعالى: [يسألونَكَ عن الأهلة قُلْ هي مواقيتُ للناسِ والحجِّ](البقرة: 189) وقوله عز وجل: [يسألونكَ عن الشهر الْحَرَامِ قتالٍ فيه، قُلْ قتالٌ فيه كبيرٌ](البقـرة:215) وقولـه أيضا: [يسألونكَ عن الخمرِ والْمَيْسِرِ قُلْ فيهما إِثْمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس](البقـرة: 217) وفي الآية نفسها قوله سبحانه: [ويسألونكَ ماذا ينفقون قُلِ العَفْو]، وكذا قولـه تعـالى: [ويسألونكَ عن اليتامى قُل إصْلاَحٌ لهم خير](البقرة: 218) ومثله: [ويسـألونكَ عـن الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أذَى](البقرة: 220) ثم قوله: [يسألونكَ عن الأنْفَالِ قُـل الأنفـالُ لله والرسولِ](الأنفال:1) وقوله: [ويسألونكَ عن الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أمْرِ رَبِّي!](الإسراء: 85) وقوله: [يسأَلُكَ الناسُ عن الساعة قُلِ إنَّما عِلْمُهَا عند الله](الأحزاب: 63)..ونحـو ذلك كثير جدا، فلا داعي للإطالة.

وإنما المهم عندنا هنا أن خلو هذه الآية: (وإذا سألك عبادي عني..) من لفظ (قُلْ) يدل على خصوص السؤال الآتي من (العباد)؛ ذلك أنهم هنا يسألون عن (معبـودهم) لا عن كيف يعملون في أمور الدين! إذ أن قضايا الشريعة والأحكام هي شـأنُ الرسـول الْمُعَلِّم، الذي بُعِثَ ليعلم الناس كيف يعبدون الله. أما هؤلاء فإنهم الآن يسألون عـن الله ذاته سبحانه، لا عن كيف يعبدونه! يسألون عن باب معرفته ورضاه! إنه سـؤال محبـة

[118] – في ظلال القرآن: 173/1.

وشوق ووجدان! فهو مثل ذلك الذي قال الله تعالى فيه، في الحديث القدسي: (ذلك بيني وبين عبدي.. ولعبدي ما سأل!)[119]

إذن فالقضية (عبادة)، والعبادة وجدان، لا تصح إلا إذا خلت من كل شريك، ولو كان نبيا! والدين إنما هو إخلاص القلب لله وحده! وهؤلاء إنما سألوا عن مثل هذا! فـــلا موضع لـــ (قُلْ) هذه؛ في هذا السياق! فاعبد ربك تجده أمامك بلا واسطة، ولا حجاب يحجبه عن قلبك المحب المشوق! (أُجِيبُ دعوةَ الدَّاعِي إذَا دَعَانِ ...) إنه يجيبك أيها العبدُ الداعي ربَّكَ تضرعا وخفية، وإنما (الدعاء هو العبادة!)[120] كما قال النبي ρ.. هكذا على سبيل الاستغراق والشمول! ولا عبادة حقة إلا خالصة لله. «ذلك بـــيني وبـــين عبـــدي ولعبدي ما سأل» [121].

فغالب الخطاب إذن للعباد – بوصفهم عبادا – تبشير وتحبيب مشوق للقلوب إلى ديار الحبيب. قال عز وجل في سياق التبشير: [فَبَشِّرْ عِبَادِ](الزمر: 16) وقال ســـبحانه: [ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ](الشورى: 23).

وإنما يتوب الله - عز وجل - على (العباد)، إذ هم الأحبة الذين يتجاوز الـــرب الكريم عن سيئاتهم مهما كثرت؛ ما داموا هم (العباد)، الذين ذلوا لله وخضعوا له. قـــال سبحانه: [أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ] (التوبة: 104)، وقال سبحانه: [وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ] (الشورى:25). وتوبة (العبد) لحظة فرح عند الله سبحانه، فرح يليق بجمال وجهه، وجلال سلطانه تعالى. وقد بيَّنه الحديث القدسي بيانا جميلا، فيه من معاني الشوق، والقرب، والتقرب، والتقريب المتبادل بين العبد وربه؛ ما يملأ القلب ببهجة السرور والاحتفال! إنه جمال الرب الـــذي يبادل (عبده) – وإنما هو عبده – بحبه حُبّاً أكرم وأعظم، وبتقربه تقريبا أشرف وأحلـــم!

---

[119] – جزء حديث أخرجه مسلم.

[120] رواه أحمد ن وابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، والأربعة أصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم، عن النعمان بن بشير، كما رواه أبو يعلى عن البراء. وصححه الألباني في (ص.ج.ص): 3407.

[121] – تقدم

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ρ أنه قال: (قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني! والله لَلَّهُ أفْرَحُ بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في الفلاة! ومن تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعا! ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا! وإذا أقبل إلي يمشي، أقبلت إليه أهرول!)[122] فأي جمال هذا وأي بهاء؟ وأي كرم إلهي وأي سناء؟ يهمي على (العبد) – إذْ يتوب – بالواردات والمقامات التي لا توصف ولا تفسر؛ إلا أن تذاق! ذلك مقام (العبودية) المحبوب عند الله.

ومن أروع التعابير القرآنية في هذا السياق، آية تتدفق كلماتها، بل حروفها؛ بكوثر المحبة الإلهي الفياض! جمالا يغمر قلوب كل من سماهم الرحمن (عبادي). ولو كانوا حديثي عهد بالضلال البعيد، والتيه الرهيب، وشردوا بعيدا في ظلمات الآثام والذنوب! ثم جاؤوا فقراء يطرقون الباب، وما بأيديهم من حسنات إلا هذه التوبة النصوح! قال عز وجل: [قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ](الزمر: 53). فعلامَ ييأس (العبد) أو يقنط؟ وها الله تعالى يغفر الذنوب جميعا.. نعم جميعا! أأنت الذي جئت تطرق باب الله تائبا؟ إذن؛ أنت آمن إن شاء الله! لا تخفك أهوال الذنوب التي تجرها وراءك! ما دمت قد جئت في الوقت المناسب.. ودخلت إلى حضرة الرحمة الإلهية من باب الانتساب إلى الله (عبدا)!

نعم، إن (العباد) – وهم عباد السلام – ينعمون عند الله بالأمن والطمأنينة والسلام، سكينة تملأ الوجدان شوقا إلى لقاء الله. قال عز وجل: [يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ] (الزخرف: 68) إنهم الآمنون المحميون بجواره الحصين في الدنيا والآخرة: [أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟] (الزمر: 36) بلى! وإن من كفاه الله حماية وحفظا لهو الآمن حقا؛ فما له وللخوف أو القلق والضياع؟ ولذلك فقد توعد إبليس اللعين أن يُضِلَّ الناسَ، ويتخذ منهم نصيبا مفروضا، فقال له الله تعالى: [إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ! وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً](الإسراء: 65).

فلك الحمد إلهي.. لك الحمد؛ إذ أكرمت (عبادك) بالحفظ الجليل، والستر الجميل!

---

[122] – رواه مسلم

وإن للستر جمال القرب، والتناجي الودود مع الرب الكريم. أخبر النبي المصطفىε في الحديث القدسي، محدثا عن تجلي الرحمن لعبده يوم القيامة، تجليا يليق بكماله.. كـــان ذلك في حديث النجوى، وما أدراك ما النجوى! فعن صفوان بن مُحرز قال: (قال رجلٌ لابن عمر: كيف سمعتَ رسول الله ρ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: يُدْنَى المـــؤمنُ يوم القيامة من ربه عز وجل؛ حتى يضع عليه كَنَفَهُ!([123]) فيقرره بذنوبه فيقـــول: هـــل تعرف؟ فيقول: أي رب أعرف! قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لـــك اليوم، فَيُعْطَى صحيفةَ حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادَى بهم على رؤوس الخلائـــق: (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم!)[124]

ذلك حظ المؤمن الذي عاش (عبدا) لله في الدنيا، فكان له الستر الجميل، والقرب الجليل، في الدنيا وفي الآخرة. ذلك المؤمن الذي كان يتلذذ بالنجوى في الدنيا، وكانت له فيها أذواق لا تنقضي حلاوتها أبدا! وأي ذوق ألذ من خطاب الرحمن للعبد إذ يخشع هذا مصليا لله، يسكب من إبريق عبوديته كؤوسا من السبحات السافرة في خلـــوة الصـــلاة، شرابا من رَوْحٍ رقراقٍ لذةٍ للشاربين! فأي وصف أليق بالمؤمن – حينئذ- وأشرف مـــن وصف (عبدي)؟ ولقد قرر محمد النبي العربي ρ تقريرا في الأسماء فقال: (إن أحب أسمائكم عند الله: عبد الله وعبد الرحمن!)[125]

وَيْ..! وما أفضل من أن يكون المرء مشـــمولا بوصـــف (عبـــاد الله) و(عبـــاد الرحمن)؟.. ألا إنها أوصاف المحبين في الدنيا وفي الجنة معا! فهم هنـــا يســـلكون إلى الله بمسالك عباد الرحمن، خُشَّعاً لله، حلماء، كرماء.. يَسْرُونَ بالليل ويسربون بالنهار، مـــع قافلة العبّاد، على طريق الخضرة والنور، على أثر الأنبياء الأصفياء، بعيدا عن مســـتنقعات الجهل بالله، والخوض في دخان الحرائق المشتعلة بأسواق الفساد: [وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّـــذِينَ

---

[123] قال ابن حجر: (كَنَفَهُ: بفتح الكاف والنون، بعدها فاء، أي جانبه، والكَنَفُ أيضا: السِّتْرُ، وهو المراد هنا. والأول مجاز في حق الله تعالى، كما يقال: فلان في كنف فلان؛ أي في حمايته وكلاءته.) فتح الباري: 488/10.

[124] – متفق عليه.

[125] – رواه مسلم.

يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا. وَالَّذِينَ يَبِيتُـــونَ لِـــرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَاماً] .. إلى آخر السورة([126]). وللآيات بعدها انسياب الماء المشع برضـــاء الله، وعطائه الغيداق من كمالات الصفات! كمالات تغري القلب بمواجيـــد ذات أشـــواق، وكؤوس ذات أذواق! لا يغنيك بذوقها حق الذوق كأسا كأسا غير المصحف الكريم!

ذلك جمالهم في الدنيا، وإنهم في الآخرة بين خمائل الجنان، عباد الله الأبـــرار مـــع الكوثر الفياض، يقدحون عيون الماء بأيديهم؛ تلذذا بمعينه وصفائه العـــالي: [إِنَّ الأَبْـــرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَـــا تَفْجِـــيرًا] (الإنسان:5-6).

فيا لجمال نداء الناس أحدَهم: (يا عبد الله..! ويا عبد الرحمن..!) ويا لجمال نداء الله عبدَه: (عبدي..!) نسبة عالية الانتماء، ترتقي شرفا في علياء السماء.

قال الحبيب المصطفى ρ ناثرا من كلام الله العلي سنى قدسيا:

- قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل:
- فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين،
- قال الله تعالى: حمدني عبدي!
- وإذا قال: الرحمن الرحيم
- قال الله تعالى: أثنى علي عبدي!
- وإذا قال: مالك يوم الدين؛
- قال الله تعالى: مجدني عبدي!
- فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين!
- قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل!
- فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضـــوب عليهم ولا الضالين!
- قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل!)[127]

---

[126] الفرقان: 63-64.

[127] - رواه مسلم.

فأي كرم هذا، وأي نعماء؟ وأي فيض هذا وأي عطاء؟ فمن يأنف أن يكون (عبـــدا) لله إذن؛ إلا عديم الذوق متخشب الإحساس؟.. (هذا بيني وبين عبدي.. ولعبدي ما سأل!) أتسمع؟ إنه يخاطبك: (عبدي!) فأنتما هناك يصل (بينكما) ود التنـــاجي: (بـــيني وبـــين عبدي)! إنه ود خفي، إنه بينكما.. تذوقه أنت وحدك، هناك في محراب التعبد السَّـــنِي، الموصول بواردات السماء! حيث التجلي الجليل يفيض عليك بالنجوى، جمالا وســـلاما ... فهنيئا لك يا عبد!

وما سمى الله أنبياءه الأصفياء – وهم خير العباد – إلا (عِبادا).. فـــذلك كمـــال رضاه تعالى عليهم: شرف نسبتهم إليه سبحانه. وما كان منه ذلك إلا في سياق الرضـــى الواسع البديع! قال تعالى في شأن محمد ρ سيد العابدين: [سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَـــا إِنَّـــه هُـــوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ] (الإسراء: 1) وقال: [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا] (الكهف: 1). وكذا قوله: [فأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى](النجم:10). ولقـــد وصف الرسولُ عليه الصلاة والسلام نفسَه بأنه (عبد)؛ فقال معلما أصحابه، ما يجب أن يعرفوه من منـــزلته: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولـــوا: عبد الله ورسوله!)[128] ذلك ذوق العبد المحب، الذي ذاق ما العبودية لله العلي العظـــيم! ومن لم يذق – في مثل هذا– فلا سبيل إلى إفهامه!

وقد مدح الله الأنبياء السابقين فوصفهم بصفة العبودية له. قال سبحانه في شـــأن نوح عليه السلام: [إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً](الإسراء: 3)، وقال في غيره: [وَاذْكُرْ عِبَادَنَا: إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ](ص: 45). وقال عز وجل: [وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُـــلَيْمَانَ. نِعْـــمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ](ص:30)، وقال: [واذْكُرْ عَبْـــدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْـــدِ](ص: 17)، وقـــال سبحانه: [واذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ](ص:41) ثم وصفه فقال: [إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً. نِعْمَ الْعَبْـــدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ](ص: 44).

[128] – رواه البخاري.

بل إن العبودية كانت – قبل ذلك وبعده – من أرقى مقامات الملائكة! قال تعالى يُجَهِّلُ الكفارَ الْمُفْتَئِتِينَ على الله: [وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا] (الزخرف: 19)

(العباد) إذن؛ هم الآمنون السالمون بإذن الله.. هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وما ذكر الخوف في شأنهم إلا لنكتة خاصة، كما في قوله تعالى: [ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ!] (الزمر: 16) فمثل هذا إنما هو تخويف محبة لا تخويف بغض وغضب! إنه شأن المربي المشفق على من يربيه أن يكون من أهل الضلال.. كما هو شأن الأب الرؤوف – ولله المثل الأعلى – إذ يرى ابنه المحبوب يزل أو يضل أو يخطئ الطريق؛ فيهدده أو يخوفه بوسيلة من وسائل التخويف والإنذار، وهو إذ ذاك يضمر له في قلبه من الحب والإشفاق ما الله به عليم! والله عز وجل أرحم بعباده من الأم؛ إذ تحنو بثديها الثر على رضيعها! إن الله عز وجل قد قرر مبدأ ثابتا قبل ذلك، فقال سبحانه: [اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ] (الشورى: 19) وقال أيضا: [واللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ] (البقرة: 207) فالتخويف المذكور في الآية في شأن العباد إنما يفهم في ضوء قوله تعالى: [ولاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ] (الزمر: 7). فهم (عباده) إذن وهو تعالى يرضى لهم ويكره. وكفى بذلك حبا رفيعا!

ويا لروعة التعبير القرآني! إذ يفصل هذا المعنى الذي هو واقع منه تعالى بقصد (التخويف) التربوي، إذْ يكشف الله تعالى فيه عن جمال من سر الحب الإلهي عجيب! جمالٍ يضرب بأنواره الباهرة في أعماق الوجدان؛ فيبهر القلوب، ويخطف العواطف! قال سبحانه: [يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون!](يس: 30).. يا سلام! نعم، صحيح أن الله تعالى – كما تنقل تفاسير السلف – لا يتحسر! وإنما يصور سبحانه بأسلوب جذاب أخاذ ما يقع بقلب العبد المؤمن من أسى وحسرة؛ إذ يشاهد مآل الكفار ومصيرهم البئيس التعيس، وما فرطوا فيه من النعيم المقيم والخير العميم! مما لا يملك معه الإنسان إلا الحسرة والأسى![129] بَيْدَ أن العبارة دالة أيضا على

[129] – وقيل أيضا: هو بيان لما يقع بقلوب الناس من حسرة وندامة؛ مما فرطوا في جنب الله؛ فكفروا وكذبوا! رواه الطبري عن مجاهد وقتادة، ونحوه عن ابن عباس: جامع البيان: ج23/ص: 2 و3.
وهذا المعنى وذاك كلاهما وارد عند الطبري والقرطبي وابن كثير في تفسير الآية من سورة يس.

منتهى الرحمة في خطاب الله لعباده ولو كانوا كافرين! وأي قلب لا يتحسر إذ يدرك هذه الحقيقة الرهيبة؟ هؤلاء الناس الذين يتسابقون سراعا نحو هاوية الجحيم، يلقون بأنفسهم في غياباتها تباعا! (يا حسرة!) والتعبير (بالحسرة) لا يكون إلا في سياق الأسى على فوت محبوب، أو ضياع مرغوب! ولذلك فهو دال على المحبة. والله عز وجل – تنزه عن التحسر – إذ ذكر ذلك مصورا عاطفة إيمانية بشرية، سمى أُلئك الكفار (عبادا)؛ لأن السياق سياق محبة وإشفاق! والأصل في الأمر الكوني أن الله تعالى يحب الناس، كل الناس. وما كان يرضى لهم ما وقعوا فيه من كفر وضلال، فهو الذي قال: [ولاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ] (الزمر: 7).. ولكن هم ظلموا أنفسهم إذْ أغضبوا الله عز وجل! [ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ] (آل عمران: 182).. أفلا يستوجب الأمر إذن أن تصرخ: « يا حسرةً على العباد! »؟.. كلمات في قمة البلاغة ودقة التعبير! كلمات ذات إيحاء لطيف لا يُكشف عن سره إلا ذوقا!..

المشهد الثاني: في جمالية الصلاة، أمّ العبادات([130])

الدين هو العبادة. والعبادة هي الصلاة! نعم لعبادة الله أشكال شتى من الفرائض، والنوافل، والأعمال، والحركات.. سواء مما شرع للتعبد أصالة كالعبادات المحضة، أو مما شرع للتعبد تبعا، ككل أعمال العادات والمعاملات.. ولكن ذلك كله مجموع في معنى الصلاة. فلا شيء من ذلك يكون عبادة حتى يرتقي إلى معنى الصلاة، ذوقا ووجدانا! ولذلك كان الصلاة هي أعظم ما في الدين! كما ما في قوله ρ: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة) [131]، وكان (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح له سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله!) [132]. فالصلاة إذن هي الدين من حيث معناه الذي هو الخضوع لله الواحد القهار، رغبا ورهبا.

وللصلاة في الإسلام جمال الدخول في موكب الكون العابد، سيرا إلى الله تسبيحا وتمجيدا. فذلك إذن مقام الأنس البهي، حيث يستشعر العبد صحبة الكائنات كلها، تنافسه في حبه الجميل، ووجدانه العليل، وتسابقه في مسراه عبر قافلة العابدين الراجين الخائفين: [وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ](الرعد: 13). فيا أيها الإنسان! [أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ. وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ. وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ؟] (الحج: 18) أي تناسق هذا بين الأرض والسماء؟ وأي تناغم هذا بين شتى المدارات؟ وأي شذوذ هذا الذي يمارسه الإنسان، في تمزيق وحدة الوجهة نحو الخالق العظيم؟ فَلِمَ لا يسجد داود لربه في هذا الموكب المتسق التغريد والتجويد ؟ [وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ] (الأنبياء: 79)، [إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ](ص:

---

[130] هذا المشهد مختصر بتصرف يسير من كتابنا (قناديل الصلاة).

[131] – جزء حديث رواه أحمد والترمذي وقال حسن صحيح. ورواه أيضا الحاكم وابن ماجة والبيهقي. وصححه الألباني في (ص.ج.ص): 5136.

[132] – رواه الطبراني في الأوسط، والضياء عن أنس، وصححه الألباني في (ص.ج.ص): 2573.

18-19)، [وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ] (الإسراء: 44).. و [كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ](النور: 41)

إن هذا القرآن يخاطب الإنسان باعتباره كائنا (كونيا) بامتياز! إنه يعيش في الأرض نعم؛ ولكنه يمتد بفكره الطموح إلى الآفاق البعيدة بملايين السنوات الضوئية، بل بملاييرها وزيادة! فهو (كوني) بما هو عبد الله رب العالمين، يحمل رسالة الله في رحاب هذا الكون كله! (الكون) بمفهومه القرآن الفسيح، الممتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، لا بمفهومه الفزيائي الضيق – على سَعَتِهِ! – الذي يقف علماء العصر عند حدوده حائرين! فما النجوم والكواكب كلها بفضاءاتها وسُدُمِهَا إلا سقف هذه السماء الدنيا! والكون القرآني يمتد فوقها سبع سماوات! و(السماء) في القرآن مفهوم غيبي لا علاقة له بالمادة المتجلية في عالم الشهادة. قال جل وعلا: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)(الصافات:6). وقال سبحانه: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)(نوح:15-16).

أيْ عبدَ الله! اُنْظُرْ!.. هذه الأجرام السماوية تسبح اللهَ وتصلي، سابحة في مدارها السائر أبدا إلى الله.. [وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ] (الأنبياء: 33).

أما أنت أيها العبد المؤمن ففلكك السيار إنما هو مواقيتك الخمسة، تجري بك عبر أبراج المحبة، ومنازل الشوق، فالبِدارَ البدارَ يا سالك بأوقات المطالع! فقد جمعت كل الخير في تجليات الجمال، وما بقي بعدها إلا التيه في فيافي الضلال.. عجبا! وأي كوكب هذا الذي يرحل في مداره مجذوبا إلى جاذبيته، ثم يتخلف عن مطالعه؟ كيف وها [إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا] (النساء: 102).

كان الوقت فكانت الصلاة! .. وإنما الوقت هو الصلاة.. فتأمل!

الإنسان.. هذا الجرم الكوني الصغير، كان المفروض فيه أن يدور بفلكه كسائر الأجرام السيارة في الكون طوعا لا كرها.. ولكن؛ لو كان يدري!..

إن هذه الآية العظيمة تضعه في مداره الطبيعي؛ ليسلك سبيله إلى ربه ذلولا.. (إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتاً).. وما الإنسان إن لم يكن هو هذا العمر

المحدود: بداية ونهاية، وبينهما يوجد شيء اسمه: الإنسان! فتأمل! وإنما الصلوات الخمس مواقيت لرموز التحولات الزمنية. فالفجر بدء وبه تبدأ الحياة.. وما بدأ شيء إلا لينتهي! والفجر اسم وقت قبل أن يكون اسم صلاة! لأننا إنما نعبد الله بالوقت.. وإنما الوقت هو الصلاة لله رب العالمين الذي أنعم عليك بالبدء.. أنعم بالحياة! فاملأ رئتيك يا سالك بالنفَس الأول من صلاة الميلاد.. ميلاد الحياة. ويا لخيبة من نام عن شهود النبع الأول من عين الصفاء، فكرع من بعد الوقت ماء مسنونا!.. وهل يكرع الكارعون في آخر الماء إلا غسالة الأولين والسابقين؟

ويدور الكوكب العابد في مداره هونا؛ حتى إذا توسطت الشمس كبد السماء؛ اشرأبت الأعناق لسماع المؤذن يعلن بدء الزوال، وانقلاب الظل إلى الجهة الأخرى.. زوال الشمس يا صاحبي بداية العد العكسي في عمر الإنسان، فمذ دشن فجره وهو يعد عدا تصاعديا؛ حتى إذا زالت الشمس وامتد الظل قليلا إلى الجهة الأخرى بدأ الانحدار؛ ففرارا إلى الله إذن؛ تشهد منتصف عمرك صلاة ظهر، فما بقي أكثر مما سلخت من أنفاس! ذلك هو التحول الفلكي الثاني: محطة كبرى من محطات الزمن الأرضي، تشهدها عابدا، لا شاردا عن باب الله. حتى إذا صار الظل مثل طول كل قامة امتد عنها؛ بدأ العصر ينذر بقرب الأفول!.. وما العصر إلا إنذار لك يا سالك: أنْ لم يبق لك من العمر إلا لحظات وتنتهي الأضواء إلى ظلمة القبر! ماذا أعددت لذلك البيت الموحش من مؤنسات؟ والعصر محطة فلكية أخرى، ينعصر فيها الزمن انعصارا؛ ليشهد تحول الصهد المنخنق إلى أصيل.. ذلك آخر الزاد إذن من سبحات النهار، ليس بعدها إلا مسك الختام. ومن هنا النذير الشديد لمن غفل عن هذه الساعة الفاصلة!.. فلحظة أو لحيظة – لا تدري كيف؟ – ويكون الغروب!..

هنالك تشهد كيف يموت الضوء.. بل كيف تموت الحياة! وتصلي.. وإنما المغرب غروب؛ تلك هي الحقيقة الأولى التي نطق بها الفجر مذ تفجر عن أنواره لو تعلمون!.. فيا عبد! ما أخرك عن شهود حقيقتك؟ هذا الكون كله يغرب.. ولا عودة للحظة ماتت.. لا عودة لها أبدا! محطة فلكية من تحولات الأزمنة، تشهدها صلاة خاتمة للأضواء، وفاتحة

للعتمات.. ثم ندلج إلى الله بالعشاء صلاة سارية.. وإنما العِشاء من العَشاء، وهو في الأصل ضعف البصر: حيث العتمة تمنع الإبصار إلا قليلا..

تلك إذن هي الصلوات الخمس: أوقات للتحولات الفلكيـــة الكـــبرى.. نعـــدها بالصلاة عدا..

ألم أقل لكم؟: كان الوقت فكانت الصلاة!.. وإنما الوقت هو الصلاة.. ولقد قلت لك يا صاح.. فتأمل!

وإنما الأوقات الخمسة رموز لليوم كله: فجر، فظهر، فعصر، فمغرب، فعشـــاء..! فماذا بقي بعد ذلك من الوقت إلا امتدادات لهذه أو تلك؟.. فالوقـــت كلـــه إذن هـــو الصلاة!.. أنت تصلي الأوقات الخمسة؛ إذن أنت تصلي العمرَ كله، قلت: كلـــه! وإنمـــا فرض الله الصلاة عمرا، لا حركة ولا سكنة إلا صلاة! ألم يفرضها عز وجـــل أول مـــا فرضها خمسين صلاة؟ ثم خففها إلى خمس، كل وقت منها ينوب عن عشـــرة أوقـــات! والحسنة في ديننا بعشرة أمثالها.

أن تعبد الله بالوقت يعني أنك تعبده بمهجتك، وما المهجة إلا العمر، وما العمر إلا زمن، وما الزمن إلا أعوام، وما الأعوام إلا أشهر، وما الشهر إلا أيام، ومـــا الأيـــام إلا ساعات، وما الساعات إلا دقائق، وما الدقائق إلا ثوان..! فما عمرك يا ابن آدم؟

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ *** إنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِ!

هكذا إذن؛ أن تعبد الله بالخمس يعني أنك تعبده بالعمر كله، تنثر مهجتك بـــين يديه تعالى وقتا وقتا، أو قل: نبضا نبضا، مادام هذا الفلك يعبر العمر إلى ربه هونا..!

أما أن يفوتك وقت فيعني أنك قد خرجت عن مدارك!.. فانظر أي حافـــة مـــن الفراغ العاصف تنتظرك؟ وأي قوة بعد ذلك ستعود بك إلى هدوء المدار؟

أن يفوتك وقت: يعني أنك فقدت جزءا من العمر!.. ومن ذا قدير على اســـتعادة الزمن الراكض إلى وراء؟ ولقد قال الفقهاء لفعل الصلاة إذا كان في الوقـــت (أداء)؛ وإذا كان بعد الوقت (قضاء)؛ لأن الذي يقضي لا يؤدي أبدا. هل يمكنك استعادة الوقت؟ هل يمكنك استعادة التاريخ؟ هل يمكنك أن تعيش اللحظة مرتين؟ ولقد صـــدقوا في الفلســـفة القديمة إذ قالوا: (لا يمكنك أن تسبح في النهر مرتين)!.. لو لم تكـــن الصـــلاة (وقتـــا)؛

لأمكنك أن تفعل ذلك على سبيل التشبيه والتقريب، أما وإنها وقت فإنك لن تفعل، وإنما الذي تفعله أنك (تعوض) تعويضا، وما كان العِوَضُ- بعذر أو بغير عذر – ليكون كالأصل أبدا..! لسبب بسيط: هو أن المسألة وقت! فانظر لو أنك لم تأكل طعام عشائك حتى كان الصباح.. ثم طلبته؛ أتكون حينئذ تتعشى أم تفطر؟.. طبعا إنك لن تتعشى عشاءك ذاك بعدُ أبدا.. ولو كان الطعام هو عين الطعام! لسبب بسيط: هو أن المسألة وقت!.. ولا صلاة تفوت فتؤدى بعد ذلك أبدا! وإنما فرصتك الوحيدة أن تقضي إن جاز لك قضاء.. وشتان شتان بين أداء وقضاء!

ألم أقل لكم؟: كان الوقت فكانت الصلاة!.. وإنما الوقت هو الصلاة!

وأول البدء في الصلاة تجمل بالوضوء، فهؤلاء المؤمنون يتسابقون إلى تزيين وجوههم، وأيديهم إلى المرافق، ورؤوسهم، فأرجلهم إلى الكعبين. و(تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء!)[133] ذلك شرط المرور إلى عتبة الصلاة. إذ (لا تُقْبَلُ صلاةٌ بغير طُهُور)([134]).

وتتقاطر أفواج المصلين على الماء؛ ليرِدُوا من بعد عطش شديد، مما أصابهم من دخان المال والأعمال.. وتمتد الأيدي خاضعة، ذاكرة، يدفعها الحنين إلى ارتداء أوسمة الإيمان، طهورا، ينقلهم مباشرة إلى مناجاة الرحمن. وإن (الطهور شطر الإيمان) [135] كلمة سِرٍّ مُودَعَةٌ في كتاب الاستئذان من حديثك يا رسول الله!

وتدور الفصول من حر إلى قر، فيبقى الوضوء سرا من أسرار الجمال، الذي ينسخ نوره آثار معركة الحياة، من سهام إبليس ورشاقته.

كانت كلمات النبوة بلسما، يوضع على الجروح فتشفى بإذن الله! فها أنا ذا يا حبيبي أرتحل إليك، مخترقا حدود الزمان والمكان؛ لعلي أصيب رذاذا مما أصاب الصحابة الكرام، فجنبات المعمور مازالت تردد أصداء النور النبوي:

- (ألا أدلكم على ما يمحو به الله الخطايا، ويرفع به الدرجات؟

---

[133] – رواه مسلم.

[134] –رواه مسلم

[135] –رواه مسلم

- قالوا: بلى يا رسول الله!

- قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فذلكم الرباط، فذلكم الرباط!) [136]

والمكاره شتى في هذا الزمن الرهيب يا نبي الله! فهذا قر الشتاء أصبح اليوم خنقا، بتوقيت تعده عليّ ساعات الدرهم والوظيفة! ووثنية تفرضها أغلال الحلاقة واللباس! و(...) وأشياء أخرى من تقيين النساء، أكرمك عن ذكرها يا حبيب الله! ما سلمت منها عين، ولا خد، ولا يد، ولا رجل! فبأي حميء آسن امتلأت برك هذا العصر الغريب!

ألا هونا عليك يا صاح! فما في الدنيا وسخ، أو دَرَنٌ لا يغسله أريج الطهور! لكنما التحلي مقام ينبئ عن تمام التخلي! فهلم إذن، وَأْتِ من أي الجهات أتيت، وبأي الأدواء ارتديت، فكل حفنة من الماء كفيلة بمسح بعض غبار الطريق!

أوَليس (إذا توضأ العبد المسلم، أو المؤمن، فغسل وجهه؛ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه، مع آخر قطر الماء ؟!

- فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه، مع آخر قطر الماء!

- فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع آخر قطر الماء.. حتى يخرج نقيا من الذنوب!) [137]

- بلى يا رسول الله!

فما أبطأ بك إذن يا صاحبي؟ هذي جموع المؤمنين سارعت إلى لقاء رسول الله ρ بيوم القيامة، يَرِدُونَ حوضه الكريم، بأوسمتهم النورانية:

كانت الخيل وهي مقبلة فأل خير، ترفع غُرَرَها البيضاء نحو سماء الانتصار، ولقوائمها المحجّلة – وهي تباري الأسنة راكضة – جمالٌ، لا يضاهيه إلا جمالها وهي تقف هادئة بين يدي رسول الله ρ بوجه أغَرَّ وأطْرَافٍ مُحَجَّلَة([138]). وإنما ذلك في المؤمن نور

---

[136] -رواه مسلم

[137] - رواه مسلم.

[138] الغرة: بياض في ناصية الحصان - إذا كان أسود أو أحمر – والتحجيل: بياض في يديه.

يكتسبه؛ بسبب ما كان يحلي به وجهه وأطرافه من طهارة، في مسرى العبادة، السالك إلى الله.

فلتسبغوا الوضوء على المكاره إذن سادتي الأتقياء، فإنكم (أنتم الغُرُّ الْمُحَجَّلُــونَ يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله) [139] تلك سيم الجمال في وجوهكم، وأطرافكم، يوم تَرِدون على المصطفى ρ، وهي سِيَمٌ (ليست لأحد من الأمم) [140]، بها تعرفون في كثرة الخلائق يوم القيامة، كالدر المتناثر في دجلة الفضاء!.. هذه ومضة الإبراق النبوي تبشر برشح الأنوار على أطراف المتوضئين الساجدين، رشحا لا يذبل وميضه أبدا! فإذا النبي الكريم يميز المحبين وسط الزحام واحدا واحدا:

- (ما من أمتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة!
- قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟
- قال: أرأيت لو دخلت صُبْرَة [محجرا] فيها خيل دُهْمٌ، بُهْمٌ، وفيها فرس أغر محجل، أما كنت تعرفه منها؟
- قالوا: بلى.
- قال: فإن أمتي يومئذ غُرٌّ من السجود، مُحَجَّلُونَ من الوضوء!) [141]

هذه قصة الماء الطهور في جداول السلوك إلى الله. وفي الماء سقاء لدالية الشعور بالرضى الرباني، والقبول للمثول أمام جلال الله.. ألا ما أعمق الفرق في الغصـــن الواحــد بــين زمانين:

الأول سنوات عجاف، لا نصرة ولا نعيم، ولا صدى لصهيل، إلا قعقعة الحطب في ليالي الريح..!

والثاني عام فيه يغاث الناس، فتتسلق الدوالي أغصان البروق، ويحتفل المطر، فــإذا الأشجار مورقة ريانة، وإذا صفوف المصلين تتراص عند فاتحة الزمان الجديد، والوجـــوه مازالت ترشح بماء الطهور!

---

[139] - متفق عليه.

[140] - متفق عليه.

[141] - رواه أحمد بسند صحيح. (صفة): 158.

وتكون الصلاة.. (والصلاة نور) [142]

كانت كلمات الإقامة إشعارا ثانيا – بعد الأذان – بضرورة نفض كل ما بقي من علائق التراب قبل الإذن للأجنحة أن تقلع في طريقها إلى مقام المحبة:

- قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة!

وترتفع الأيدي المحجلة تجاه القبلة في تكبيرة الإحرام، لتفريغ البال من جميع الأحوال، إلا حال الفقر المرفوق بالشوق إلى الغني الحميد، ثم تتأدب بالتزام الصدر في وقفة العبد بين يدي الملك العظيم، تأسيا بجمال الامتثال في قيام النبي ρ، وقد كان في وقوفه بباب الله (يضع اليمنى على ظهر كفه اليسرى والرسغ والساعد)[143]، و(كان يضعهما على الصدر) [144]، ثم تشرق التجليات!

والقِبلة جامعة لشتات القلب والبصر، وإنقاذ للعبد السالك من مقام الحيرة إلى حدائق الطمأنينة. قال تعالى: [قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ](البقرة: 144) وكيف لا يحتار هذا الفكر الجزئي البسيط، القابع في مدار كوكب ضئيل، يدب في بحر لُجِّيٍّ من ا لكواكب والمجرات، وتيه من العوالم والمخلوقات، مما يستعصي حتى على مجرد التصور الشامل والاستحضار الكلي! فكيف إذن لا يحتار هذا الفكر المحدود المنحصر، وهو بصدد الاتصال، وعلى أعتاب المناجاة، مع رب هذه العوالم، المحيط بجميع هذه المخلوقات!

فلتكن القبلة إذن قنديلا آخر، في طريق التعبد يجمع المصلين في العالم أجمع، حول قلب واحد، ينبض بتوحيد الله ذي الجلال، ويبعث من مكة المكرمة أنوارا، تتلقاها أفئدة العابدين في كل مكان أن هلموا، هذا بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس، فتحج الأرواح من محاريبها خمس مرات في اليوم!

- الله أكبر!

---

[142] – رواه مسلم.

[143] – رواه أبو داود والنسائي وابن خزيمة بسند صحيح: (صفة صلاة النبي للألباني)، ص: 79.

[144] – رواه أبو داود وابن خزيمة في صحيحه: (صفة صلاة النبي): 79.

كان سيف النور قد قطع الزمان نصفين: الأول إلى خلف، فما زال راكضـا في تغيره يذوب فناء، بذوبان الأشكال والألوان المتهاوية تترى، في عالم الأوراق السافرة بين ربيع وخريف، ولا برعوم يورق مرتين! [كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ] (الرحمن: 26-27).

والثاني إلى أمام، ما يزال متوجها إلى مقام البقاء، فالنور المتجلي على الغرر البهية، مستمد من معين لا ينضب!! والعبادة لحظة تستمد خلودها من مناجاة الحـي الـذي لا يموت! فتفنى الذوات عند آجالها، وتبقى لحظات الصلاة حرما آمنا لا يناله أثر الزمـان! ليرسم نعيما سرمديا بقناديل تستمد زيتها الوضاء من مشكاة الله.. ويُتَخَطَّـفُ السـعي العابث من حوله، فإذا هو محض سراب!

كان الوارد نورا يهمي من أعلى، فينفتح القلب بكلمات من نور آخـر، فـإذا اللحظة مناجاة بين الخالق والمخلوقات!

أنت الآن أمام جلال الله، تقدم إيمانك إخباتا بين يديه تعالى، والقلـب مفتـوح الأبواب، فلا شيء به يبقى مستورا! وقد تنتابك أدخنة الطين رياء ونفاقا، ما بين الـذرة وأقل، فتفر إلى ربك مذعورا.. وتناجيه حزينا أن أبرئني يا سيد هذي الأوراد مني!

- أوَ لست تصلي؟.. و(إنَّ أحدكم إذا صلى يناجي ربه!) [145]

عجبا! فأي قوة مازالت تصمد في ساقيك، فتمتثل وقوفا أمام عظمـة الواحـد القهار.. والجبل قد اندك وراءك من خشية الله؟

- أن تصلي: يعني أنك تقابل ربك غصنا منفوض الأوراق! فأنت كما أنـت، لا تخفى منك خفقة قلب واحدة؛ صَفَتْ أم خالط دمعتها ريحُ الحمأ المسنون! و(إنَّ أحدكم إذا كان في الصلاة، فإن الله قبل وجهه!) [146] والله قبل ذلك وبعده [يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَـا تُخْفِي الصُّدُورُ](غافر:19). فكيف يمكن لهذا البصر أن يمتد قيد أنملة نحو السماء، والـرب بجلاله قِبَلَه؟ إذن؛ تندك ضلوعه، فيخر القلب صعقا، ولا يبصر شيئا بعدها أبـدا!! كـان التحذير النبوي حريصا على أمر المحبين بالتزام آداب المحبة؛ حتى لا تستحيل حديقة النور إلى

---

[145] - رواه البخاري.

[146] - رواه البخاري

ظلام دامس. قال عليه الصلاة والسلام: (لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة؛ أو لا ترجع إليهم!)[147].

وأما التفات عن يمين، أو شمال؛ فهو (اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد!)[148] وأنى لعبد في مقام الخضوع؛ أن ينصرف عن مشاهدة الجمال بقلب ملؤه التقوى والورع؟ وأنى لعبد في مقام الخضوع، أن ينصرف عن تذوق كؤوس الترتيل، الطافحة بشهود الفلاح؟ كيف و[قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ](المومنون:1-2)

يا لآيات البهاء! تنطلق كلماها من ألسنة رطبة بذكر الله، مصطفة مثلما تَصُفُّ الملائكة عند ربها؟

- (وكيف تَصُفُّ الملائكة عند ربها؟

- قال: يتمون الصفوف الأُوَلَ، ويتراصون في الصف!)[149]

ألا صلى الله عليك يا رسول الله! أصَفٌّ في الأرض؛ وصف في السماء؟ والصلاة جامعة؟ هكذا إذن تخف الأجنحة المثقلة بأحزاها، وتنطلق الأسراب محلقة؛ لمزاحمة الملائكة في مدارات النور، عند أعتاب ملك الكون الظاهر والباطن!

ألا ما أشقى ذلك الجمل الشارد في صحراء الظلمات! لا يفتأ يلهث راكضا خلف سراب مال متسخ، حتى يتسخ وبره، وتنتن رائحته، فيرين على قلبه ما يحجب رؤيته لجدول الصلاة الرقراق، وراء رمال العصيان، ثم يموت يلهث عطشا دون ظل المورد العذب. وما بين استحالة الموت ميلادا إلا أن يركع لمالك خزائن القطر، فإذا القفر حواليه حدائق ذات بهجة، ترشح غصوها بأنداء الطهور، نورا يصفيه من جميع الأدران!

كان البهاء يحيط الحبيب المصطفى، وهو في هالة صافية من أصحابه إذ قال:

- (أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات؛ هل يبقى من دَرَنِه شيء؟

---

[147] - متفق عليه

[148] - رواه البخاري.

[149] - رواه مسلم .

- قال: فكذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا!)[150]

ويوقد الحبيب قنديلا آخر فيقول:

- (ما أدري أحدثكم بشيء أم أسكت؟

- فقلنا: يا رسول الله إن كان خيرا فحدثنا؛ وإن كان غير ذلك؛ فالله ورسوله أعلم!

-قال: ما من مسلم يتطهر، فيتم الطهور الذي كتب الله عليه، فيصلي هذه الصلوات الخمس؛ إلا كانت كفارات لما بينها!)[151] وفي ومضة قنديل آخر: (وذلك الدهر كله!)[152]

... هذا المسرى الربيعي إلى الله، رَغَبا في ينابيع الرحمة والمغفرة، تتعانق الصلوات فيه أقواسا من الدوالي المورقة، حيث تتشكل العناقيد قناديل خضراء، ترسم خطوات النور الهادي إلى الرحمن، فتختزل العدد والزمان، إذ بكل خطوة عشر خطوات في طريق الله، فقد فرض الله على نبيه ρ - في السماء السابعة، وبغير واسطة الملاك جبريل عليه السلام — خمسين صلاة في كل يوم وليلة، ثم خففها سبحانه، اختزالا في خمس، ثم قال في الحديث القدسي: (يا محمد! إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة!)[153]

أي فريضة هذه التي هي فضل كلها؟ ورحمة كلها، ونور كلها، وجمال كلها؟.. وإن عبادة فرضت في السماء من بغير واسطة الملاك؛ لحرية بالارتقاء صعدا بعشاقها إلى مقامات السماء!

---

[150] - متفق عليه.

[151] -متفق عليه.

[152] - رواه مسلم.

[153] - رواه مسلم.

فاصطبري يا أبدان على إدامة التطهر بنهر النور! فإن غصنا ينبت في جوار الغدير لا يجف أبدا! إن لم ينل من فيضه؛ نال من نداه! والأمل يسري نضرة وجمالا في قده المياد ركوعا وسجودا![154]

[154] – انظر هذه المعاني مفصلة في كتابنا: (قناديل الصلاة).

الإشراق الرابع: في جمالية منازل العبادة

تمهيد في معنى (المنازل) و(الأحوال)

من جماليات الدين أن العبد السالك إلى ربه، متنقل في عبادته بين (منـــازل)، أو (مقامات)، ومتلذذ في (مواجيده) (بأحوال). وهذه العبارات وإن كانت من اصطلاحات المتصوفة؛ فإن معانيها ومفاهيمها من أصول الدين في الإسلام. إلا أن لنا قبـــل البـــدء في التفصيل كلمةً نقولها ههنا. وذلك أن الناس في التصوف بين مُفْرِطٍ ومُفَرِّطٍ، وبين مُسْرِفٍ وغَالٍ. وقلما تجد الاعتدال![155] والحق في كل الأمور أوسطها. وإنما الميزان ما أنزله الله في كتابه الحكيم. قال جل وعلا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ! وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا. اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى! وَاتَّقُوا اللَّـــهَ إِنَّ اللَّـــهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ!)(المائدة:8).

نعم؛ هذا المجال قد خالَطَتْهُ بِدَعٌ وخرافات، وأوهـــام ومنكـــرات، تســـربت إلى مصنفات القوم، وتلبست بأقوالهم. فذلك أمر معلوم. بَيْدَ أنهم ليسوا طبقة واحـــدة، ولا مدرسة واحدة، بل إن من بين رجالهم لَبِحَاراً زاخرةً بالحقائق القرآنية، والمعاني الإيمانيـــة، والإشارات الربانية، وإن من بين مصنفاتهم لكنوزا عامرة بالحِكَمِ الرحمانية، والعطـــاءات النورانية، والأذواق الراقية؛ وذلك لما اختصوا به من النظر العميق في طبائع النفوس، ومـــا ثَقِفُوهُ من التشخيص الدقيق لأهوائها وأدوائها! وما رسموه مـــن المشـــاهدات الرحمانيـــة الصافية، التي وُهِبُوهَا أثناء السياحات الروحية – متفكرين ومتدبرين – في عـــالم الملـــك والملكوت! ومن هنا فإنه لا يميز الحق من الباطل في أقوالهم وإشاراتهم إلا نقَّادة فاحص!

---

[155]– أعد الدكتور عمر عبد الله كامل دراسة جيدة بعنوان: (التصوف بين الإفراط والتفريط)، نشر دار ابن حزم، بيروت. ط. الأولى: 1422هـ/2001م.

إن بعض الناس قد تحدثه عن شيء من ذلك؛ فيتبادر إلى ذهنه أنك سوف تقيده — بعد ذلك - بسلسلة من البدع، من وساطات منكرة، واصطلاحات غامضة، ودعـــاوى أخرى ما أنزل الله بها من سلطان؛ إلا الافتئات على الله ورسوله عليه الصلاة والسلام!

مع أن المسلم غني ولله الحمد عن (وساطة) الأشياخ والأوتاد والأبدال؛ بكلام الله جل ثناؤه وحديث رسول اللهρ، المتاحين لكل من أقبل على الله بقلب مفتقـــر، يرجـــو عطاءه المتدفق كوثرُه على العالمين! لا يتوقف كرمُه وفضله تعالى على (إذن) شـــيخ، أو رضى (غوث)! وإنما نوره سبحانه متجل أبدا، متدفق سرمدا — وذلك سر مـــن أســـرار جمالية الإسلام دين التوحيد الحنيف. وهو لازم عن جمال أسمائه الحسنى، وكمال صـــفاته العلى. سبحانه وتعالى عما يصفون.

نعم؛ للعلماء المربين وللحكماء المرشدين من (أهل الله وخاصـــته)([156]) فضـــل الدلالة على الله، والتبصير بمسالك السير إلى منازل الحق سبحانه؛ لِمَا لهم من سابقة العلم والذوق والمعرفة بالطريق، والانتصاب للدعوة إلى الله. وما دون ذلـــك مـــن دعـــاوى الخصوصات الشاطحة، والفلسفات المخرقة، باطل منكر، لا يقود إلا إلى العمى والضلال!

ونحن هنا - بحول الله - ذاكرون في هذا السياق من المعاني ما لا يخرج عن ســـنة النبي المصطفى ρ، بل لا نذكر إلا ما وجدنا له أصلا في الكتاب والسنة إن شاء الله. ذلك أن هذا المجال قد انتسب إليه الصالح والطالح، والولي والزنديق! فاختلط الحق فيه بالباطل؛ مما سبب نفور عدد من الناس من التصوف نفورا كليا. ورحم الله ابن القيم العالم المحقق، والناقد لمذاهبهم، البصير بمثالبها وبركاتها. قال في هذا كلمات حقهـــا أن تكتـــب بمـــاء الذهب: (هذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس! إحداهما: حُجِبَت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتـــهم، فأهـــدروها لأجـــل هـــذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساؤوا الظن بهم مطلقا! وهذا عدوان وإســـراف!

---

[156] قال رسول اللهε : (إن لله تعالى أهلين من الناس. أهل القرآن: هم أهـــل الله وخاصـــته!) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم. وصححه الألباني في (ص.ج.ص)، بينما حسنه الشيخ شـــعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

فلو كان كل من أخطأ، أو غلط؛ تُرِكَ جملة، وأُهْـدِرَتْ محاسـنُه؛ لفسـدت العلـوم والصناعات والحِكَم، وتعطلت معالمها!

والطائفة الثانية: حُجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصـفاء قلـوبهم، وصـحة عزائمهم، وحسن معاملتهم عن رؤية شطحاتهم، ونقصها، فسحبوا عليها ذيل المحاسـن، وأجروا حكم القبول والانتصار لها. واستظهروا بها في سلوكهم. وهؤلاء أيضا معتـدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: – وهم أهل الإنصاف – الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي مترلة مترلته!)[157]

ونحن إن شاء الله نرجو أن نأخذ من رحيق أزهارهم، وأنداء أنسـامهم، حاشـا أباطيلهم وشطحاتهم. وإنما قصدنا تتبع معالم الجمال في حركة الدين؛ لتزيين السير إلى الله، بمواجيد الأنس والشوق والمحبة والرضى!

قلت: إن المسلم سائر إلى الله.. والسير: إنما هو قطع العمر في عبادة الله. منـذ أن أدرك الإنسان أنه إنما يسكن هذه الأرض إلى حين، وهو يعيش حياته باحثا عن نفسـه، كادحا إلى ربه! ليس ذلك لأنه سيرحل عنها بالموت فحسب؛ ولكن أيضا؛ لأن عنصـره الجوهري الذي يشكل حقيقته الوجودية، وعيا وإدراكا وحياة؛ ليس منها! بل هو عنصر من السماء، ذو طبيعة أخرى، طبيعة غريبة عن هذه الأرض وعلائقها، غربة تامة!

وإذ يدرك المؤمن هذه الحقيقة يملأ قلبَه الشوقُ والحنين إلى موطنه الأول، حيـث سكن آدم قبل أن يترل إلى الأرض. حيث الرضى والر ضوان الإلهي. والملائكة يـدخلون من كل باب.

إنك ميت!

فأنت راحل إذن؛ أحببت أم كرهت!.. ولكن قليل هم السالكون، الذي يعبرون الأعمار سيرا إلى الله، مكتسبين منازل ودرجات عبر ذلك السير؛ حتى إذا كان الأجـل؛ وجدوا أنفسهم على أعتاب الديار، حيث الأحبة والأبرار. إن العبادة تقرب إلى الله شبرا شبرا. إنها رقي في السماء. والسماء طبقات ودرجات. وكل عبد في طريقه إلى الله يترقى.

---

[157] – مدارج السالكين: 2/39-40.

إنها إذن لمنازل، أو (مقامات) – كما يعبر آخرون – تماما كمنـــازل قـــراءة القـــرآن في الآخرة؛ إذ (يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارقَ! ورتلْ كما كنت ترتل في الـــدنيا؛ فـــإن منـــزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها)[158]. بيد أن سبل العبادة لا تكاد تنحصـــر، بـــدءا بالعبادات المحضة إلى كافة أشكال أنشطة الحياة الصالحة، وكل أنواع الكـــدح في ســـبيل عمران الحياة الدنيا بالخير. ولذلك كانت العبادة بكل أشكالها مسابقة إلى رضـــوان الله، وتنافسا في الخيرات؛ ومن هنا كانت الجنة منازل ودرجات، تماما كمنازل النجوم السيارة، وأبراج السماء السابحة في الفضاء. قال عليه الصلاة والسلام: (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم!)[159]

فالعبد السالك يسري ليله ويسرب نهاره؛ سعيا لاكتساب الرضى. والرضى كما رأيت منازل. فكان الصالحون يجدُّون ويجتهدون في السير؛ عســـى أن يـــدركوا أعلـــى المقامات وأرفع المنازل، يقول حادي المحبين ρ: (من خاف أَدْلَج ومن أدلج بلغ المنـــــزل! ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة!)[160] ومن هنا كان التسابق لكسب أعلـــى المنازل؛ ولذلك قالوا: (المقامات مكاسب، والأحوال مواهب).

(فالأحوال): جمع حال، وهي ما يجده العبد في سيره إلى الله من أذواق للعبـــادة، تختلف من لحظة إلى أخرى، ذات لذات ومواجيد متفاوتة، مما ينشطه في سيره، ويحدو به إلى ربه، ويزيد شوقه إلى مولاه اتقادا. فالأحوال: أوضاع نفسية للمؤمن لا تستقر علـــى أمر. بل هي متقلبة به بين نشاط وفتور، وبين قبض وبسط، كما في حديث النبي ρ (لـــو أنكم تكونون على كل حال؛ على الحالة التي أنتم عليها عنـــدي لصـــافحتكم الملائكـــة بأكفهم! ولزارتكم في بيوتكم! ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم!)[161]؛ مشيرا إلى تقلب (حال) العبد، بين نشاط وفتور في سيره إلى الله. وأصرح منـــه مـــا في الحديث الصحيح عن النبي ρ أنه قال: (إن لكل عمر شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت

[158] – رواه أحمد، وأبو داود والترمذي والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني: (ص.ج.ص): 8122.

[159] – متفق عليه.

[160] – رواه عبد بن حميد، وأبو نعيم، والقصاعي، والحاكم وصححه الألباني: (ص.ج.ص): 6222.

[161] – رواه أحمد والتمرذي عن أبي هريرة، وصححه الألباني: (ص.ج.ص): 5253.

فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك) **[162]**. فالشِّرَّةُ: هي حال النشاط في العبادة، والإقبال على الله، والفترة: عكسها، أي من الفتور. فهما (حـــالان)، وللشرة مراتب تزيد وتنقص من حيث الذوق، والوجد، والشوق، فهي أحوال.

ومن هنا قال أبو نصر السراج الطوسي رحمه الله: (فإن قيل: ما معنى المقامـــات؟ يقال: معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل، فيما يقام فيه من العبادات، والمجاهـــدات، والرياضات، والانقطاع إلى الله عز وجل (...) [قال:] وقد سئل أبو بكر الواسطي رحمه الله عن قول النبيε "الأرواح جنود مجندة"([163]) قال: "مجندة" علـــى قـــدر المقامـــات. والمقامات: مثل التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والرضا، والتوكل، وغير ذلك. (...) وأما معنى الأحوال: فهو ما يحل بالقلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكـــار. وقد حكي عن الجنيد رحمه الله أنه قال: الحال نازلة تنـــزل بالقلوب فلا تدوم.)([164])

وللإمام أبي الحسن الهجويري عبارة لطيفة في تعريف هذين المصطلحين بصـــورة أدق وأوضح. قال رحمه الله في سياق حديث عن المريد: (ولا يجوز أن ينتقل من مقامـــه دون أن يقضي حقه، فمثلا: أول المقامات التوبة، ثم الإنابة، ثم الزهد، ثم التوكل، ومـــا شابه ذلك. فلا يجوز أن يدعي الإنابة دون التوبة، أو يدعي التوكل دون الزهـــد. وقـــد أخبرنا الله تعالى عن جبيرل عليه السلام أنه قال: (وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُـــومٌ)([165]) ثم إن الحال: معنى يرد من الحق على القلب، دون أن يستطيع العبد دفعه عن نفسه بالكســـب حين يرد، أو جذبه بالتكلف حين يذهب. فالمقام: عبارة عن طريق الطالب وموضـــعه في محل الاجتهاد، وتكون درجته بمقدار اكتسابه في حضرة الحق تعالى. والحال: عبارة عـــن فضل الله تعالى ولطفه إلى قلب العبد، دون أن يكون لمجاهدته تعلق به؛ لأن المقام من جملة

---

[162] - رواه البيهقي، وأحمد، وابن حبان، عن ابن عمرو، وروى نحوه الترمذي وابن حبان، والطحاوي، عن أبي هريرة وصححه الألباني: (ص.ج.ص): 2152.

[163] قال ε: (الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف!) متفق عليه.

[164] اللمع: 65-66

[165] سورة الصافات: 164.

الأعمال، والحال من جملة الأفضال! والمقام من جملة المكاسب والحال من جملة المواهب!)([166])

ولذا كانت المنازل أو المقامات مراتب، إذا حصل عليها العبد وجب أن يحافظ عليها؛ لأنها مستوى معين من التدين، والفهم للدين، والقرب من الله، لا يجمل به أن يتراجع عنه. فهو إذن ثابت. فإذا انتقل العبد إلى غيره من المنازل اصطحب معه كل ما اكتسبه في المترل الأول من الخيرات؛ لأن المنازل لا ينسخ بعضها بعضا. بينما الأحوال لا تستقر، وينسخ بعضها بعضا. إذ هي مما يطرق نفس الإنسان بشكل لا إرادي ولا شعوري، فلا يدري المؤمن حتى يجد من نفسه ذوقا ما، تماما كسائر الأحوال النفسية التي تصيب المرء في حياته العادية، مما لا طاقة له في كسبه أو رده، كالحب والبغض، والسخط والرضى، والحزن والسرور.. بينما هي هنا في مجال العبادة تتعلق بأذواق الإقبال والإدبار، من أحوال النفس في التعامل مع العبادات، وأعمال الخير عموما. فقد يصلي المرء الصلاة مثلا بوجد فاتر، وقد يصليها بوجد متوقد، كأنما يحلق في السماء! وبين هذا وذاك صور عديدة من المواجيد والأذواق والحلاوات، هي: الأحوال. ولذلك لم يكن ممكنا إلا أن تكون (مواهب) كما قالوا. إذن؛ فالمقام نتيجة العمل، والحال ذوق المقام؛ فآل الجميع إلى العمل! وما أحسن قول أبي بكر الكلاباذي رحمه الله: (الأحوال مواريث الأعمال، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال!)**[167]**.

فالبدار البدار يا سالك! إن الأعمار ماضية إلى ربها، فإن لم تتخذها النفوس مطايا؛ نزلت إلى دركات الهالكين، وكان أولى بها أن تترقى عبرها إلى درجات الصالحين، ومنازل المحبين!

والمنازل أو المقامات عند أرباب السلوك شتى([168]).. بيد أنا ذاكرون في هذا الكتيب ما هو ضروري للعبد المحب، وما لا غنى له عنه في سيره إلى ربه؛ مختصرين،

---

[166] كشف المحجوب: 409

[167] – التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي: 97.

[168] أوصلها بعضهم إلى أكثر من مئة مقام! وهناك من اختصرها اختصارا، من مثل أبي عبد الله الساحلي المالقي، الذي جمع كل ما ذكره القوم في ثلاث مقامات، استخلصها من حديث جبريل

ومدمجين ما أمكن إدماجه من المعاني، بعضها في بعض، إن شاء الله. مع مراعـــاة طبيعـــة حاجة الإنسان الروحية في هذا العصر خاصة.



المشهور، وهي: الإسلام، والإيمان، والإحسان. وفي إطارها بحث كل المنازل والمقامات. انظر كتابه: بغية السالك.

المشهد الأول: في جمالية التوبة

يقول ابن القيم رحمه الله: (منـــزلة التوبة أول المنازل، وأوسطها وآخرها. فـــلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات. وإن ارتحل إلى منـــزل آخر ارتحـــل بـــه، واستصحبه معه ونزل به. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته.) **[169]** وهذا تأصيل حسن وجب البدء به. ومِنْ قَبْلِهِ قَسَّم ذو النون المصري التوبة قسمين، فجعلها توبتين: (توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة!)[170] والقصد بالعوام: المريدون المبتدئون، وأما الخواص – كما جرى عليه اصطلاح القوم – فهم: الذين قطعوا مراحـــل متقدمـــة في الطريـــق، واكتسبوا معرفتها وخبروا مسالكها. وهذا كلام جميل أيضا.

إن التوبة يا سادتي هي شلال الجمال المتدفق من كوثر الرحمن، الفواح بأريج عطاء الله وكرمه.. التوبة هي وضوء النفس وطهورها. تماما كما أن للأعضاء البدنية وضـــوءها وطهورها.. فأن تتوب إلى الله يعني أنك تتطهر، وأنك تجرد نفسك من خبائثها تجريدا. إن التوبة تجمع كل منازل (التهذيب والتصفية)، وترتقي بصاحبها عبر الأمواج الدافقة نحـــو السماء. إنها جمال الطهور المفضي إلى بحر المحبة الإلهي! قال جل جمالـــه: [إِنَّ اللهَ يُحِـــبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ](البقرة:222). وبذلك كان يدعو سيد المحبين محمد ρ إثـــر الوضوء: (اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين)**[171]** فقرن بذلك بين طهورين في سياق واحد: طهور النفس، وطهور البدن.. فعليك السلام يا محمد عليك السلام**!**

التوبة: هي أول باب يلجه السالك في مسرى المحبة الدائم الاخضرار..

والتوبة بهذا المعنى توبتان:

توبة العبد الآبق الشارد عن باب الله، وتوبة العبد السالك إلى الله. قال أبو بكـــر الكلاباذي: (سئل الحسين المغازلي عن التوبة، فقال: تسألني عن توبـــة الإنابـــة أو توبـــة

---

[169] – مدراج السالكين: 178/1.

[170] اللمع للطوسي: 68.

[171] – رواه الترمذي عن عمر، وصححه الألباني (ص.ج.ص) ك 6167.

الاستجابة؟ فقال السائل: ما توبة الإنابة؟ قال: أن تخاف من الله من أجل قدرته عليـــك. قال: فما توبة الاستجابة؟ قال: أن تستحي من الله لقربه منك!)[172]

فأما الأولى فلا تكون إلا بعد مقام اليقظة، يقظة الإنسان من غفلته، واكتشافه أنه غارق في مستنقع الشهوات والمعاصي؛ فيشتاق إلى لحظة سعيدة مع الطـــاهرين، بعـــدما ضاقت أنفاسه بالروائح النتنة، المنبعثة من جيفة العلق المسنون! فيقرر بدء المصالحة مع الله؛ وذلك أول الدخول إلى مقام (الإرادة)، مع قافلة الصالحين، هاربا من رفقتـــه الأولى مـــع الأشرار الغفلة: [وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَـــعَ هَـــوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا]!(الكهف: 28). سواء كان ذلك توبة من كفر صريح، أو من معصية دائمة. فهي في جميع هذه الأحوال خروج من فوضى الشرود ودخول إلى نظام المـــدار، حيث يستقيم العبد في السير إلى ربه. وتلك هي التوبة النصوح: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا!] (التحريم: 8). أو كما قال النبي ρ: (قُلْ آمنت بالله ثم اســـتقم!)[173].

والثانية توبة العبد المستقيم السالك إلى الله، إذ يصيبه الشيطان في طريقه بـــبعض الرشقات والنخسات؛ فيصيبه القبض بعد البسط؛ وينتبه إلى ما به من أذى؛ فيجأر فارا إلى الله. وهي المشار إليها في قول الله تعالى يصف عباده الســـالكين: [التَّـــائِبُونَ الْعَابِـــدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَـــنِ الْمُنكَـــرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ](التوبة: 112).

إنها صورة ذات إشعاع بهي، ترى فيها قافلة المحبين تقطع المسافات إلى الله توبةً، وعبادة، وحمدا، وسياحة، وركوعا، وسجودا.. آية تعبر بتصويرها الجميل هذا عن حركة السير! ألا ترى أن الركوع والسجود إنما هما فعل واحد هو: الصلاة؟ لكن الله تعالى ذكر كلا منهما على حدة؛ لترى العبد في حركة دائمة بين ركوع وسجود! فيوحي لك ذلك بالاستمرار والتجدد في الأفعال، المستفادة مما سبق من عبـــارات: (التـــائبون العابـــدون

---

[172] – التعرف لمذهب أهل التصوف: 108-19.

[173] – رواه مسلم.

الحامدون السائحون) رغم أن التعبير باسم الفاعل (الفاعلون) دال بذاته على ذلك؛ ولكن تتأكد الصورة المتحركة السائرة باستمرار إلى درجة التشخص الحي! تماما كما في قولـــه تعالى: [تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ](الفتح:29). (تراهم ركعا سجدا) لا يفترون، يحدوهم الشوق، في حركة سائرة أبدا إلى الله؛ إلى أن يلقوه على المحبة والرضى!

فهم هنا إذن المؤمنون (التائبون) باستمرار.. المجددون لتوبتهم بلا انقطاع. قـــال عليه الصلاة والسلام: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها..!) [174]

وابن آدم لا بد أن يذنب؛ فمن هنا كان هو ابن آدم، قال تعالى: [وَعَصَـــى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى](طه:121-122)، وقال سبحانه: [فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ] (البقرة:37). ثم تلك هـــي إرادة الله الجميلة في خلقه، وكرمه الفياض من أنوار أسمائه الحسنى. جاء في الحديث النبـــوي: (ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم!) [175].

والتوبة بجميع معانيها من أبهى منازل العبادة في الإسلام.. إنها خضرة الأمل الممتدة في أفق السير إلى الله، المتصلة بمنازل الرجاء، والمحبة، والشوق، والأنس بالله.. ظلال مـــن النور البهي تظلل العبد أبدا وهو يتنقل من منزل إلى منزل، ويسبح من فلك إلى فلك؛ وهو يمضي صعدا في اتجاه السماء، عبر مدارج المحبين!

إنك أيها العبد إذ تسير إلى ربك تشعر أن لك ربا توابا رحيما.. يقبلـــك مـــتى عدت، وكيف عدت!.. المهم هو أن تعود..!

إنه الله.. هل تعرفه؟..

مقام التوبة يتيح لك أن تعرفه! معرفة الله قربى، واقتراب.. ومن اقترب من الجمال أحبه! والحب غايته الوصال، ومن وصله الحبيب كان حاله أنسا وسرورا! فأنى له إذن أن يقنط أو ييأس؟ هنا في ظلال الله لا قنوط ولا يأس.. وإنما أبواب السماء تنهمر بـــواردات

---

[174] - جزء حديث رواه أبو داود ن وأحمد، والترمذي، والحاكم، والبيهقي، وابن عساكر حسنه الألباني في (ص.ج.ص): 97.

[175] - جزء حديث سبق تخريجه.

من النور، ذات رواء علوي، يملأ الوجدان بأنداء المحبة.. قال عز وجل لعباده الغارقين في أوحال الذنوب: [قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ](الزمر: 53). إنها لتعجز الكلمات والعبارات البشرية، عن وصف ما ينفتح عنه هذا الباب السماوي الفسيح، من خيرات ورحمات! (إن الله يغفر الذنوب جميعا!).. فما أجل جمالك يا لله! وما أندى عطاءك الكريم!

هذا شلال البركات يتفجر من عند الرحمن.. فيا عبد! [ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ]!(سورة ص: 42).

الكل إذن مقبول عند الله، مأذون له في الدخول إلى حضرته تعالى، موعود بموعد للوصال.. موعد غير بعيد ولا عسير، لا تحجبه الوسائط، ولا تثقله البروتوكولات! [وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا](النساء: 110). وإنما أنت.. أنت أيها العبد المحب عليك أن تسأل.. أن تسأل فقط! [أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ] (التوبة: 104).. ذلكم الله الذي يعطي قبل أن يُسْأَلَ، فكيف إذا سئل؟

إن التوبة حسنة بنفسها عظيمة! وذلك لأنها تجمع خصالا تعبدية شتى:

فالتوبة توحيد: ذلك أن العبد العائد إلى الله تائبا، هو عائد إلى الله أولا، ثم هو عائد إلى الله وحده. وفي ذلك ما فيه من اعتقاد أن الله هو وحده سبحانه التواب الرحيم؛ إذ لا ملجأ منه إلا إليه. وذلك توحيده سبحانه في إلهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته تعالى؛ ولذلك كثيرا ما ذكرت التوبة والاستغفار في سياق التوحيد. قال تعالى: [قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ](الرعد: 30). وقد سبق أن التوبة مترل والاستغفار بابها. ومن هنا علَّم النبي ρ أمته أَرَقَّ عبارات الاستغفار. فكان أجمع الكلام في هذا ما سماه ρ بـ(سيد الاستغفار)، وهو عبارات في الإقرار الوجداني العميق بتوحيد الإلهية، والاعتراف لله سبحانه بكمال إنعامه وإفضاله، والتعبير عن مواجيد العبودية لجلاله تعالى. قال عليه الصلاة والسلام: (سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت. خلقتني وأنا

عبدك. وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت، أبـــوء لـــك بنعمتك علي. وأبوء بذنبي؛ فاغفر لي.. فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت!)[176]

كلمات وجيزات عظيمات في تمجيد الله في عليائه والاعتراف بآلائه. إلها واحدا لا شريك له، سواء في واقع الأمر، أو في وجدان القلب. منه وحده الغفران، لأنه تعالى المالك وحده للضر والنفع. فالعبد مدين لله، غارق في فقره إليه تعالى، وحاجته المطلقة إلى إفضاله وإنعامه، في كل لحظة وحين. مدرك لعجزه عن القيام إلا بالله، ويأسه من النجاة إلا بـــه. وها الذنب يحيطه بالرهب من كل جانب! فكان هذا الاستغفار الجميل تعبيرا عن وجدان القلب الهارب إلى ربه، الفار من ذاته الضيقة إلى ذات الله الواسعة! وكان إذن أن فاضت الأحاسيس بأرقى معاني التوحيد والإخلاص لله. وأشد ما يكون العبد موحِّدا، ومخلصـــا، هو في حال الحاجة الجارفة! فكان (سيد الاستغفار) بلسما للعابدين. ومـــن هنـــا كـــان استغفار يونس في بطن الحوت، وهو يضرب به في مجاهيل المحيطات وظلماتها؛ ما حكـــاه الله تعالى من قوله: [فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّـــي كُنـــتُ مِـــنَ الظَّالِمِينَ!] (الأنبياء: 86)

والتوبة استغفار: إذ هي مترل، أو مقام، والاستغفار بابهـــا، أو – إن شـــئت – فمفتاحها! ولذلك قال سبحانه: [اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ](هود: 2). ومن هنا كادا يكونان مترادفين في كثير من السياقات القرآنية والحديثية. قال عز وجل: [وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى](طه: 82). وقال عليه الصلاة والسلام: (يـــا أيهـــا الناس توبوا إلى الله واستغفروه! فإني أتوب في اليوم مائة مرة!) [177] وقال أيضا: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) [178].

والتوبة تسبيح: لأنك إذ تستغفر الله وتتوب إليه، تفرده في عليائه موحـــدا لذاتـــه وصفاته – كما ذكرنا – وذلك في حد ذاته تتريه له سبحانه أن يشاركه أحد في صفة، أو أمر! فاستقرار هذا المعنى في نفس العبد الفقير، العائد إلى ربه عود ذل وافتقار، تتريه لله في

---

176 – رواه البخاري.

177 –رواه مسلم

178 – رواه البخاري.

كماله، وتسبيح له في عليائه. ولذلك كان استغفار يونس المذكور آنفا تتوسـطه عبـارة التسبيح الصريح: "سبحانك "! إذ الشعور الوجداني الموحد لله تأليها إنما هو خضوع لله؛ اعترافا بكماله وجماله، وهو غاية التسبيح والتتريه. ومن هنا قال سبحانه: [فَسَبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً] (النصر: 3).

والتوبة دعاء: لأن بابها الاستغفار كما سلف. ولذلك فهي دعاء بما للكلمة مـن معنى. دعاء فيه خصائص العبودية ما قد لا تجده في غيره من العبادات! إذ التوبـة إقـرار بالذنب أولا، ثم شعور بالذلة، والفقر إلى الله. وذلك أساس من أسس التعبد في الإسلام. وشروط التوبة الثلاثة دالة على هذا المعنى الوجداني العميق. وهي الإقلاع عن المعصـية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها [179]، وتلك كلها هي شروط الرحلة إلى الله. فالندم على فعل الشر، هذا الإحساس الوجداني الجميل، الذي يدرك العبد من خلاله – إذ تذوق مرارة التيه وشقاء الشرود – ما للعودة من حلاوة، وما للأوبة مـن أثـر في عمران القلب بالسلام. ولذلك يبقى الندم حافزا قويا على الدخول إلى مقـام (الإرادة)؛ فيسلك المريد إلى ربه سبيل الرشاد والمحبة، مصرا على التزام تعاليم الهدى ولـو حفـت بالمكاره! لأنه يدرك ما للشرود والتيه من خطر على نفس، وشقاء في المعيشة!

ويكفي التوبة رفعة أن تكون دعاء؛ إذ (الدعاء هو العبادة)[180] كما في الحـديث. بل لك أن تقول: "التوبة هي العبادة"! مادامت التوبة واردة في الحديث مرادفـة للـدعاء والرجاء. قال عليه الصلاة والسلام حاكيا عن ربه تعالى في الحديث القدسي: (يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي!)[181] فقولـه هنـا: " دعوتني " هو بمعنى استغفرتني؛ لأن جوابه كان هو قوله: " غفرت لك".

وتاج جمال التوبة – بعد ذلك – أنها معرفة بالله: معرفة قائمة على نور المشاهدة، وألطاف التجلي! وللحديث القدسي - المذكور قبل قليل - تتمةٌ فيها من الجمال الرباني

---

179 – نزهة المتقين شرح رياض الصالحين: 32/1.

180 – نص حديث تقدم تخريجه.

181 –رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ما تعجز العقول عن الإحاطة به تصورا، ومن العطاء الرحماني ما تفنى القلوب دون إحصائه تشكرا..!

قال: (يا ابن آم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي! يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبُك عَنَانَ السماء، ثم استغفرتني؛ غفرت لك! يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا؛ لأتيتك بقُرابها مغفرة!)[182].. وللنداء بـ(يا ابن آدم!) في سياق التوبة تذكير بالخطيئة الأولى: [وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى] (طه: 118-119). وفي النداء بهذا اللفظ إشارة لطيفة إلى طبيعة الإنسان الخطاءة والتوابة في الوقت نفسه! والجميل أن في هذا السياق يبرق الإذن بولوج باب معرفة الله! سياحة في فضاء كرمه الذي لا يحد، ومنّه العظيم الذي لا ينتهي.. ثم تدخل!

وتتدفق غدران الغفران!

أن تبلغ ذنوب ابن آدم عَنان السماء.. أن يأتي ربَّه بقُراب الأرض خطايا.. وليس بين يديه من أعذار! ولكنه فقط يأتي، يطرق الباب؛ يسأل، يدعو.. ثم كأن شيئا لم يكن، بل كأنك إنما كنت تجمع الحسنات، لا السيئات! ركام النتانة والجيف يتحول في طرفة عين مسكا وعنبرا! [إلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيماً] (الفرقان: 70). ذلك؛ لأنه هو الله!

فهل ذقت ذلك حقا؟ إذن أنت من العارفين!

إن الله على المؤمن السالك أن يعرف أن الله يعطي بلا حساب! عندما تذوق ذلك ذوقا تجد له في قلبك ظلا جميلا، يمتد في الآفاق إلى ما لا نهاية! ولن تذوق حتى تدعو وتدعو..! تستغفر الله، تطرق باب كرمه المفتوح أبدا! ثم.. ثم تدخل؛ لتشاهد كيف أنه سبحانه يغفر الذنوب جميعا! ترى شلال الرحمة تنهمر أنواره عليك واردات من الفرح الإلهي! وتسكن لجمال المحبة الذي لا يوصف! هذا نص النبي ρ يحدثنا، قال: (لَلَّهُ أشد فرحا بتوبة عبده – حين يتوب إليه – من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيس من

---

[182] – رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

راحلته؛ فبينما هو كذلك إذا بها قائمة عنده! فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك! أخطأ من شدة الفرح!)[183]

عندما تصل ربك فيصلك، وتحبه فيحبك، وتقترب منه فيقربك! وترى ذلك حقا وتشاهد جماله ذوقا ووجدانا؛ تكون قد عرفت الله، وعرفت كرمه العظيم. لكن أنت؟.. هل دخلت؟ هل طرقت الباب؟ إن الخطوة الأولى هي منك.. وإنما عليك أن تأتي وتسأل! قال عز وجل في الحديث القدسي: (يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا؛ فاستغفروني أغفر لكم) [184]. إنه وعد الله ذي الجمال.. ومن أحصى على الله إخلافا؟ ألا سبحانه وتعالى من سيدٍ كريم، وربٍّ رحيم، ومَلِكٍ بَرٍّ حليم. [لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ] (الروم: 5).

ومن مدارج التوبة يمارس العبد أول محاولة الطيران!.. عندما تشرع في تحسي كأس الاستغفار، تتحرك الطائرة على مدرجات المطار، رويدا رويدا، ثم تسرع مندفعة إلى أمام بقوة عجيبة؛ حتى إذا كانت على درجة عالية من السرعة بدأت أول حركات التحليق! وتطير الطائرة محلقة في الفضاء، تخرق طبقات الجو منازل وطبقات!

أن تتوب إلى الله يعني أنك انطلقت عبر مدارج الإقلاع؛ حتى إذا بدأت مقدمة الطائرة في الإرتفاع في الجو كانت لك منزلة أخرى! إنها منزلة الخوف والرجاء.

---

183 - رواه مسلم.

184 - جزء حديث رواه مسلم.

المشهد الثاني: في جمالية الخوف والرجاء

هذا الطائر المحلق إلى ربه في سماء صافية جميلة، يحدوه الشوق إلى ديار الحبيب؛ فيضرب بجناحيه – رغم شقة السفر – بحيوية الذي عرف ما قصد؛ فهان عليه ما وجد! هو الآن يطوي المسافات طيا، ويختزل الأزمنة اختزالا.. اللحظة الواحدة تحت شلال الوصل بعمر كامل من أعمار بني آدم! وذلك هو (الوقت)، مقام العارفين المحبين. وفي هذا قالوا: (فلان له أوقات!) ذلك أن كل غفلة من العمر عن الاتصال بالله ليست لك يا ابن آدم بوقت! وإنما وقتك ما كان لك. وليس لك إلا ما كان بالله. وتلك محنة القلب المشوق بلحظة الوصل العالية؛ خوفا ورجاء بين احتمالين لا ثالث لهما!

ذلك ذوق منـزلة الخوف والرجاء في كبد المحب.. فانشر جناحيك يا صاح وَارْقَ! فما دون النشر إلا التردي، والسقوط الرهيب في أوحال التراب! نقل ابن القيم كلاما لطيفا لأبي علي الروذباري رحمهما الله، قال: (الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه. وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص)[185]. فهما إذن يشكلان معا مقاما واحدا؛ إذ لا يجوز أن يتفرد أحدهما بالعبد، وإلا كان من الهالكين، قنوطا ويأسا، أو بطرا وغرورا! وكلا الأمرين من أخلاق الكافرين. ومن هنا وجب على العبد السالك أن يطير إلى ربه بهما معا، فهما وجهان لعملة واحدة كما يقولون. وما أكثر ما وردا مقرونين في كتاب الله تعالى. قال سبحانه: [يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا](الإسراء: 57). وقال سبحانه يصف حال المحبين إذ يترلون بهذا الوادي العجيب: [تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ] (السجدة: 16) وقال عز وجل يصف سير العبد المشوق، وهو يضرب مسافرا في عمق الأزمنة، يطوي ليل السرى عارجا إلى ربه: [أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ] (الزمر: 9).

[185] – مدارج السالكين: 36/2.

ألا ترى هذا الطيف النوري وهو يتحرك في الظلام، متخفيا في محـــراب التبتـــل، مظللا بأجنحة الملائكة، يميل من فرط الوجد ركوعا وسجودا، مثل النخلة إذ تســـتجيب لريح الهوى، فتعطف عراجينها خشوعا لله الواحد القهار؟.. هذا وجهه يرفعه خاشعا من سجوده، عفوا! بل يرفعه من وصاله، مشرفا بأثر الرضى والقبول.. كذلك كـــل صـــور الخوف والرجاء تتميز بالجمال، والبهاء، والنور الدفاق. إذ كلها أوصاف لحركـــة المحبـــة الرائحة إلى الله، يحدوها نسيم الشوق المتردد بين هاجسي الخوف والرجاء.

فأما الرجاء، فهو الجناح الأيمن؛ لأنه الأقوى والمهيمن على الطيران والتحليق! وإنما الخوف خادم له كما سترى إن شاء الله. إذ الأصل في علاقة العباد بربهم رجاء.

وقد اختلف المربون في هذه المسألة منذ القديم على ثلاثة آراء: الأول رأى أن على السالك أن يغلب الخوف على الرجاء، والثاني رأى العكس. والثالث رأى أنه يجب تغليب الخوف؛ حتى إذا أدركه الموت غلب الرجاء، وسبب اختلافهم في هذه المسألة هـــي ورود نصوص مستقلة في كلا الأمرين: الخوف والرجاء، فمن رأى أن نصوص الخوف خادمـــة للرجاء، وأن رحمة الله إنما تدرك بالخوف غلب الخوف، كما في قوله تعالى: **[**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**]** (الرحمن: 46). وقوله سبحانه: **[** إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَـــا يَوْمًـــا عَبُوسًـــا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا**]**(الإنسان: 10-11). وكذا قوله تعالى: **[**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَـــنِ الْهَـــوَى فَـــإِنَّ الْجَنَّـــةَ هِـــيَ الْمَأْوَى**]**(النازعات: 40).

وأما من رأى أن نصوص الرجاء هي الأصل؛ فذلك لأن رحمة الله سبقت غضـــبه عز وجل، هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى فإن مفهوم الرجاء هو الأكثـــر تـــواردا في القرآن الكريم والسنة النبوية. قال عز وجل: **[** فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَـــلْ عَمَـــلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**]**(الكهف: 105). وقال سبحانه: **[** مَنْ كَانَ يَرْجُـــو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**]**(العنكبوت: 5). وقال أيضا: **[** لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّـــهَ كَـــثِيراً**]** (الأحزاب: 21). وجعل الأعمال مبنية على الرجاء؛ فقال سبحانه: **[** إِنَّ الَّـــذِينَ آمَنُـــوا

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ](البقرة: 216).

وأما من غلب الخوف في الدنيا حتى إذا أدركه الموت غلب الرجاء، فباعتبار أن من خاف هنا أَمِنَ هناك، كما سلف في قوله تعالى المذكور آنفا من سورة الإنسان: [إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا] الآية. ثم باعتبار أن الخوف أنفع للعبد السالك من الرجاء؛ إذ هو الأجدى علاجا لأمراض النفس والهوى! لكن إذا أشرف على لقاء ربه وجب أن يستبشر بلقائه، ويغلب الرجاء حينئذ على الخوف؛ لقول الرسول ρ: (لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى) [186].

والتحقيق في المسألة ما ذكرناه أولا، من أن الأصل في الدين هو غلبة الرجاء، وإنما الخوف خادم له، خاصة وأن (الخوف) بمعناه الإيماني إنما هو خوف المؤمن، وهو إنما يكون مبنيا على العبودية لله، والمحبة لله؛ ولذلك كان خوفا مأجورا. ومن هنا كان مبنيا على الرجاء، فخوف يقود إلى الجنة ليس خوفا بمعناه الْمَرَضِي، وإنما هو خوف باطنه سرور، كما حكي عن الجنيد رحمه الله في وصف دمعة الخشية لله: (إن العين بها لتدمع وإن القلب بها ليفرح!) أما الخوف المرضي، فهو يقود إلى الاكتئاب، واليأس والقنوط، وهذا منهي عنه شرعا، بل هو من أوصاف الكافرين. قال عز وجل: [وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ](يوسف: 87). فالتخويف الإلهي إذ يتعلق بعباده المؤمنين – كما بينا في فصل سابق – إنما هو تخويف تحبيب وإشفاق وتربية: [ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ](الزمر: 16). فإنما هم (عباده) إذن.

و استعمال فعل (يُخوّفُ) يدل على القصد التربوي، وكأنه إنما يخوف عباده؛ قصد الوصول بهم إلى شاطئ التقوى والأمان؛ إذ الخوف الذي يسكن قلب العبد إنما هو خوف التقوى، والتقوى إنما تحصل بالمعرفة بالله تعالى وأسمائه الحسنى، فبقدر معرفتك بالله تكون تقواك وخشيتك له عز وجل. وذلك يقود إلى السكينة والاطمئنان. وهو معنى الرجاء في نهاية المطاف! قال تعالى: [إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ] (فاطر: 28)،

---

[186] – رواه مسلم.

وقال سبحانه في حق البشرية ابتداء، أي في بداية خلق الإنسان وإسكانه الأرض: [قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ] (البقرة: 37).

بل إن غلبة الرجاء على الخوف قَدَرٌ إلهي كريم! فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ρ قال: (لما خلق الله الخلق كتب في كتابه – فهو عنده فوق العرش – إن رحمتي تغلب غضبي)[187]. وهذا والذي قبله نص في أن التبشير هو الأصل، وبه يتعلق الرجاء لدى العاملين! وهو تقرير إلهي ثابت: [فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ] (الزمر: 71). فالخوف نبض القلب الراجي رحمة ربه! يحدوه إلى أعلى منازل الصديقين، في جنة رب العالمين! كما في الحديث المذكور قبل: (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، ومَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ! أَلاَ إنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ! أَلاَ إنَّ سِلْعَةَ الله الْجَنَّةُ!)[188] فإنما هو خوف له أنوار، وجمال في القلوب السارية إلى الله.

ولعل بعض الناس اختلط عليهم مفهوم (الخوف) بين معنييه: التعبدي والتعودي. ذلك أن الخوف نوعان: (خوف عادة)، و(خوف عبادة). فالأول هو الموجود بالفطرة لدى كل إنسان، وهو الذي إذا جاوز حده كان مرضا نفسيا، أي: (فوبيا) تدمر الأعصاب، وتحطم الشخصية! وهذا خوف مذموم شرعا، لا يكون إلا عند شخص ضعيف الصلة بالله، أو جاهل بعقيدة الإسلام!

وأما (خوف العبادة) فهو ذوق نوراني، وخاطر رحماني، يفيض على قلب العبد من صفات الجلال في أسماء الله الحسنى! لِمَا يشاهده في سيره إلى ربه تعالى من مشاهد الْمُلْكِ العلوي، وشؤون الربوبية العظمى، ومقامها الجليل، المهيمن على الكون كله؛ خلقا وأمرا، وتقديرا وتدبيرا، من يوم التكليف بالأمانة إلى يوم التجلي للقضاء بين العباد! وما يتراءى للعبد في ذلك من مشاهد القهر والقوة والعزة والجبروت! ثم ما تنطوي عليه تلك الأقدار جميعُها من حِكَمٍ وأسرار، تضرب في عمق الغيب المجهول! مما ينتج عنه خوفٌ له لذة العبادة لله الواحد القهار، والأنس بالتقرب إليه تعالى. إنه إذن؛ خوف المحب من محبوبه!

---

[187] – رواه مسلم.

[188] – رواه عبد بن حميد، وأبو نعيم، والقصاعي، والحاكم، وصححه الألباني: (ص.ج.ص) 6222.

ومن هنا أنكر المحققون أن يكون الخوف – مُجَرَّداً – هو أصل العبادة إنكارا شديدا! قال الإمام ابن القيم رحمه الله منكرا على الإمام الهروي: (شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه!)[189] ثم قال في السياق ذاته: (هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات!)[190]، ثم قال بعد ذلك رحمه الله يحلل الإشكال في نص نفيس: (فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمتِهِ غَضَبَهُ، ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع، وبِيَعٌ، وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا! بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات (...) وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء. فكل محب راج خائف بالضرورة. فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه. وكذلك خوفه، فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرد محبوبه له وإبعاده، واحتجابه عنه! (...) لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة، بخلاف خوف المسيء. ورجاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير.)[191]

فأما قوله رحمه الله: (فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته) فهو راجع إلى ظن العبد بربه تعالى كما في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي!)[192] ومن جمال الله عز وجل أنه أحب أن يعرفه عباده، من باب الكرم والإحسان! فهذه أنواره تتدفق أبدا من علياء السماء، أَنْهُراً كوثرية صافية الود، عظيمة المد، ليس لها حد! ولكن أين المحبون؟ قال محمد إقبال رحمه الله:

تَجَلِّي النُّورِ فَوْقَ الطُّورِ بَاقٍ *** فَهَلْ بَقِيَ الْكَلِيمُ بِطُورِ سِينَا؟

فإنما المسألة أن تقترب أيها العبد.. اقترب قليلا نحو المنابع يصبك الرذاذ الجميل؛ فيعلق قلبك الشوق إلى مصدر النبع، وتهب ريح الرجاء الطيبة! نعم لو عرفت حقا لرجوت رجاء الموقن! وإنه كلما اقترب إليه عباده بالطاعات كلما ازدادوا به معرفة وعلما! واستنارت قلوبهم بنوره الذي لا يخبو. الطاعة تورث الجزاء من الرب الكريم، فما جزاء

---

[189] – مدارج السالكين: 37/2.

[190] – مدارج السالكين: 39/2.

[191] – مدارج السالكين: 42/2-43.

[192] – متفق عليه.

الله؟ توفيق، وتسديد، وحفظ، وبشارات في الدنيا، وفضل، ورحمة في الآخـــرة. عنـــدما تعرف الله تعرف بشارته، إذ تأتيك تطرق قلبك السالك إليه تعالى، فلا تشبع من جمالها، حتى تلقى الله؛ ذلك لأنها تزيدك قربا. وإذا ازددت قربا ازددت شوقا، وذلك هو وقـــود الرجاء، كما قيل:

وأبْرَحُ ما يَكُونُ الشَّوْقُ يَوْماً *** إذَا دَنَتِ الْخِيَامُ مِنَ الْخِيَامِ

وأما قوله: (لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة، بخلاف خوف المسيء، ورجـــاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير.) فهو بيان أن (الخوف) متضـــمن للرجـــاء؛ ولذلك فهو لا يفضي إلى القنوط، ولا تصيب صاحبه وحشة من عبادته، بل هو في أنس دائم مع ربه، وأنواره التي تملأ فضاء خطواته فيما بين يديه! وذلك هو الرجـــاء حقيقـــة. وليس هو خوف المسيء كفرا وعصيانا، فهذا خوف حقيقي مدمر والعياذ بالله! كما أن رجاء العبد المحب لا ينتج عنه ما خشيه بعض المربين، من علة الركون إلى التمني، وتـــرك الأعمال؛ فغلب الخوف على الرجاء، بل رجاء المحب سليم لا علة فيه. بل هو حـــاد إلى الزيادة في الأعمال؛ لأنه ناتج عن المعرفة بالله كما رأيت. ومن عَرَفَ ما قَصَدَ هَانَ عليه ما وَجَد، كما قيل!

أما أبواب المعرفة المفضية إلى بطحاء الرجاء فهي الأعمال. وللأعمال أذواق العطاء الإلهي، والكرم الرباني، والفيض الإحساني.. فذق!

قال النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: (إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك: فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة. وإن هَمَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حســـنات، إلى ســـبعمائة ضـــعف، إلى أضعاف كثيرة! وإن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة! وإن هَـــمَّ بهـــا فعملها كتبها الله واحدة!)[193]

وما أجمل قصة ذلك العالم العارف، الذي أرشد قاتل بني إسرائيل، إلى باب التوبة، بعلمه ومعرفته بالله، وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، فملأ نفسه رجاء بعدما ملئت يأســـا. قال رسول الله ρ: (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا! فسأل عن أعلم

---

[193] – متفق عليه.

أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا! فهل له من توبة؟ فقال: لا! فقتله فكمل به مائة! ثم سأل عن أعلم أهل الأرض؛ فدل على رجـــل عـــالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم! ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انْطَلِقْ إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله تعالى، فاعبد الله معهـــم، ولا ترجـــع إلى أرضك، فإنها أرض سوء! فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريقَ أتاه الموت، فاختصـــمت فيـــه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقـــبلا بقلبـــه إلى الله! وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط! فأتاهم ملَكٌ في صورة آدمي فجعلوه بينهم – أي حكما – فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو لـــه. فقاســـوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد؛ فقبضته ملائكة الرحمة!)[194] وفي رواية: (فكـــان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر؛ فجعل من أهلها!) وفي أخرى: (فنآى بصدره نحوها!) أي أن الشبر الزائد إنما كان بصدره الممتد نحو الأرض الصالحة!

فانظر إلى الرجل الزاهد كيف كان رغم زهده جاهلا بالله! فأتاه بغير علم فضل وأضل! فكان أن أكمل القاتلُ عددَ المائة به! وانظر إلى الرجل (العـــالم) – وقـــد سمـــاه الحديث عالما – كيف أفاده بعلمه ومعرفته بربه! وكيف أن الرجاء باب فسيح، لا يغلـــق دون العباد شيئا؛ ما طرقوا باب هذه التوبة المباركة! وكيف لا يمتلك الرجاءُ قلْبَ عبـــدٍ عرف أن هذا هو ربه؟ يعطي من يشاء ما يشاء بلا حساب!

إنها منزلة الخوف والرجاء، خوف من غير قنوط، ورجاء من غير غرور.

ويكفي من جمالها أنها الحداء الملائكي، الذي يملأ قلوب السالكين بأطاييب الجنة، ورياحيين المحبة، ويسوق السراة في خضرة النور الساجي، ســـيرا إلى الله.. حـــتى إذا ذاق البعد لذة التعبد، كانت التجليات؛ فعرف ربه! فإذا عرفه أحبه! وحينئذ يضرب الجنـــاح بمواجيد الشوق ضربة أعلى في طبقات السماء، رقيا إلى منزلة المحبة! وما أدراك ما منزلـــة المحبة!؟

[194] - متفق عليه.

المشهد الثالث: في جمالية المحبة

منـــزلة المحبة هي أشرف منازل العبودية، وأصدقها ترجمة لشهادة: أن (لا إله إلا الله)؛ ذلـــــــــــــــــــك أنهـــــــــــــــــــا ترفع العبد إلى شهود العبودية. أي أن العبد يدخل باب الأنس بالله؛ فيجد لأعماله الصالحة لـــــــذة الســــــير، ومتعــــــــة الركـــــــوع والســـــــجود. حيث يشهد خضوعَه الجميلَ لله وانقيــادَه المتــدفقَ لأمــره ونهيــه، طاعــةً يغمرهــا الشوقُ إلى رضى المحبوب، شوقٌ يَسْلُكُ العبدَ في قافلة المحبين، الضاربة في تاريخ الــدين، من يوم أن أشرقت أنوار النبوة على العالم إلى أن دخلت البشرية في ظلمات هذا العصــر الرهيب! وهي ما تزال – رغم الفتن والمحن – تَجدُّ السيرَ الحثيث إلى الله الواحد الأحــد: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِــي التَّــوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُــوقِهِ يُعْجِــبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِــرَةً وَأَجْــرًا عَظِيمًا)(الفتح:29).

فمع هؤلاء لا يشعر السائر بمشقة ولا عنت، بــل يجــد في مكــاره الطريــق رائحة الجنة، وأريج ظلالها الريانة. أنت مع محمد؛ إذن أنت من السابقين بــإذن الله! نعــم، نحــن في آخــر قافلــة الســراة إلى الله، ولكننــا نصــل أولا إن شــاء الله. قال عليه الصــلاة والســلام: (نحــن الآخِــرون، الســابقون يــوم القيامــة، بيــد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا)([195]).

مَنْ لي بمثلِ سَيْرِكَ الْمُدَلَّلِ؟ *** تَمْشِي رُوَيْداً وَتَجِي في الأَوَّلِ!

---

[195] رواه البخاري

ذلك أنك مع أحب الخلق إلى الله، محمد رسول الله. و(المرء مـــع مـــن أحـــب)([196])
فإن كنت (معه) حقا، فإن المعية تقتضي التشبه بصفاته، ألا وإن أعلاها هي القرآن الكر
يم. ومـــــــــــــا القـــــــــــــــرآن إلا كتـــــــــــــاب المحبـــــــــــــة!
وإن أول تجليـــات المحبـــة علـــى حركـــة المحـــب أن ينقـــاد شـــوقا إلى المحبـــوب؛
ينقاد حبا ورغبة، انقيادا يحدوه الطمع في الرضى، والرجاء في الوصال!

نقل أبو بكر الكلاباذي تعريف المحبة عن الجنيد رحمهمهـــا الله تعـــالى، فقـــال:
(المحبـــــــة: ميـــــــل القلـــــــوب). ثم قـــــــال الكلابـــــــاذي شـــــــارحا:
(معنـــاه أن يميـــل قلبـــه إلى الله وإلى مـــا لله مـــن غـــير تكلـــف)([197]).
وقـــال ابـــن القـــيم رحمـــه الله تعـــالى: (لا تحـــد المحبـــة بحـــد أوضـــح منـــها!
فالحـــــــدود لا تزيـــــــدها إلا خفـــــاء وجفـــــاء! فحـــــدها وجودهـــــا!
ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة)([198]).

رحم الله ابن القيم فقد أورد للمحبة ثلاثين تعريفا، مروية عن أرباب القلوب، لم
يـــــرض أيـــــا منـــــها تمـــــام الرضـــــى! ولقـــــد صـــــدق رحمـــــه الله:
(لا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة!) وما ذلك إلا لأنها أمر ذوقي وجداني شعوري
. فهي التدفق العاطفي للقلب تعلقا بالمحبوب، أو كما قال الجنيد في رسمه: (ميل القلوب)
، وحيث يميل القلب فإنه لا يجد مشقة في السير، بل إنما يجد متعة وراحة كما في قول ال
نـــبي **ε** : (جُعِلَـــتْ قـــرةُ عـــيني في الصـــلاة!)([199]) وإنمـــا (قـــرة العـــين)
كناية يعبر بها عما تسكن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب، من أعز ما يحبه الإنسان، كا
لأبناء والأزواج؛ ولذلك قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: (فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ
كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ)(طه:40)، وقال سبحانه في وصف عباد الـــرحمن: (وَالَّـــذِينَ

---

[196] متفق عليه

[197] التعرف لمذهب أهل التصوف: 128

[198] مدارج السالكين: 9/3

[199] رواه أحمـــد، والنســـائي، والحـــاكم، والبيهقـــي في الســـنن، والخطيـــب في التـــاريخ، عن أنس، كما رواه الطبراني عن المغيرة وصححه الألبـــاني في (ص.ج.ص): 3098 وفي السلســـلة الصـــحيحة: 1809.

يَقُولُونَ رَبَّنَا هَـــبْ لَنَـــا مِـــنْ أَزْوَاجِنَـــا وَذُرِّيَّاتِنَـــا قُـــرَّةَ أَعْـــيُنٍ وَاجْعَلْنَـــا لِلْمُـــتَّقِينَ إِمَامًا)(الفرقان:74). فإذا فقدت النفس قرة العين قلقت وفزعت، تماما كما يحصل للثكل ى إذ تفقد ولدها! فلا قرار لعينها بعد ذلك ولا سكن لقلبها! هكذا كانت الصلاة عند الحبيب محمدε ، قرة عين لا يجد راحته إلا في ظلالها، ولا يجد سكينته إلا بين أحضانها!

وهـــــو مـــــراد قـــــول الكلابـــــاذي في شـــــرحه المـــــذكور: (أن يميـــــل قلبـــــه إلى الله وإلى مـــــا لله مـــــن غـــــير تكلـــــف). وهو أيضا مقتضى قولهم في السير إلى الله: (يبدأ العبد حاملا وينتهي محمولا).

وذلك أن العبد إذ يكون حديث العهد بتوبته من الشرود عن باب الله، وربقة العبوديـــة، قـــد يجـــد للتكـــاليف الشـــرعية – وهـــو حـــديث عهـــد بهـــا – كلفة ومشقة. فإذا كان حـــديث عهـــد بـــأداء الصـــلوات الخمـــس مـــثلا، ربمـــا وجد لها مشقة في نفسه، من حيث إسباغ الوضوء على المكاره، والتحرز من النجاسات ، والالتـــــــزام بالأوقـــــــات، ومـــــــا إلى ذلـــــــك. لكنه في سيره ذلك يترقى شيئا فشيئا في مراتب التعبد؛ حتى يجد من الحلاوة للعبادة ما لم يجده في الأول!

وبقدر ما يقبل على ربه خاشعا يقبل عليه ربه بالتسديد والتأييد، حتى يحبه، فيسبغ عليه من نعم التجليات أنوار الرضى والسكينة والجمال. فيخرج العبد بذلك من مشاهـــــدة الأعمـــــال إلى مشـــــاهدة ربـــــه! أي أنـــــه لا يقـــــى في سيره إلى ربه شاعرا بوطأة الأعمال على بدنه وجوارحه، وإنما يشعر بآثارها الجميلة على قلبه ووجدانه؛ لما لها من قبول عند الله، الذي أنعم عليه بواردات السلام، فيجد لها حينئذ لـــذة وراحـــة لا توصـــف، وإنمـــا يجـــد المشـــقة حينئـــذ – كـــل المشـــقة – خارج العمل، وفيما كان يحسبه راحة ودعة. وهو معنى قولهε: (جُعِلَتْ قرةُ عيني في الصـــــــــــــــــــــــــــــــلاة). فتكون التكاليف الشرعية عندها هي التي تحمل العبد لا هو الذي يحملها! وهو معـــنى : (يبـــــــدأ العبـــــــد حـــــــاملا وينتـــــــهي محمـــــــولا). وهو كذلك مقتضى قول من قال من عدول المتصوفة، المشهود لهم بالصلاح: (سقطت

عنا التكاليف!) أي سقطت عنا كَلَفَتُهَا، ومَشاقُّها، فلا نجد لها إلا اللذة والجمال! حاشا مقاصد الزنادقة والمبتدعة، الذين استغلوا (إشارت القوم) لبث ضلالهم وشطحاتهم!

إن منـــزلة المحبة هي من الأهمية بمكان في تقرير حقيقة التدين في الإسلام؛ ذلك أ نها – وهي أساس العقيدة الإسلامية، كما تبين في الإشراق الأول من هذا الكتـــاب – هي من المنازل التعبدية التي لم تعط لها المكانة اللائقة بها في تدين المسلمين اليوم، وبرامج تربيتـــهم؛ فكانـــت فـــيهم الآفـــات في الفهـــم والســـلوك علـــى الســـواء! ذلك أن من أضاعها فقد أضاع من الدين جوهره، ومن التقوى روحها!

المحبة يا سادتي هي استعداد القلب لاستقبال النور الإلهي، إذ القلب الصالح كالكأ س، يعكس نـــور الـــرحمن! قـــال عليـــه الصـــلاة والســـلام في حـــديث جميـــل: (إن لله تعالى آنية من أهل الأرض! وآنية ربكم قلوب عبـــاده الصـــالحين! وأحبـــها: أرقهـــــــــــــــــــــــــــا وألينـــــــــــــــــــــــــــــــــها!)([200])

والناس في عكس أنواره العلوية، ومشاهدة تجلياته الحسنى، طبقـــات ومنـــازل شـــتى! والمعرفة بالله سير لا ينقطع إلا بالموت الجميل، والانتقال إلى جواره الكريم، حيث موارد الأنس واليقين! وقد سبق لرسول اللهε كلام لطيف في وَصْفٍ إشاريٍ لنـــور الله جـــلَّ جلالُه. فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (قام فينـــا رســـولُ اللهε بخمـــسٍ كلمات، فقال: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام! يخفض القِسْطَ ويرفعه. يُرْفَعُ إليـــه عملُ الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عَمَلِ الليل! حِجَابُهُ النـــور! لـــو كشـــفه لأحرقتْ سُبُحَاتُ وجْهِهِ ما انتهى إليه بصرُه من خلقه!")[201] والسُّبُحَات، جمع سُـــبْحَة: وهي ما يفيض عن الذات الجميلة من لآلئ النور، ونوابض الحسن، وأشعة الجمال.([202]) ومن تدبر أسماء الله الحسنى – في سيره وعبادته – وجدها نجوما رحمانية في سماء المعرفـــة بالله، تشرق عليه في لحظات النجوى والصفاء الروحي، كالشموس والأقمار، وتفـــيض

[200] رواه الطبراني وحسنه الألباني في (ص.ج.ص): 2163

[201] رواه مسلم، وأحمد، وابن ماجه واللفظ له. ورواه أيضا ابن حبان في صحيحه، وأبو عوانة والبزار.

[202] انظر شرح الإمام النووي على صحيح مسلم: 14/3.

عليه – من نور الله – بأسباب الوصال، ومواجيد الجمال والجلال! فلا يملك القلب آنئـــذ إلا أن يلقي بمهجته في بحار المحبة!

فما أجمل نور الله إذ يتدفق على القلوب المحبة، فيضا من الكوثر الثجاج! فَتَشْخَصُ ببصرك الولهان تجاه مصدر النور، تتملـــى مشـــاهد الجمـــال في محـــراب المحبـــة! وإنما ذلك نوره العظيم بجماله وجلاله! فما أروع نوره سبحانه! ما أروعه إذ يتجلى مَثَلُه في صفات الكمال، مثَلٌ ولكن ليس له مثال! قال عز وجل: (اللَّهُ نُـــورُ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَـــبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عَلِيمٌ)(النور:35).

ومهم جدا أن تعرف أن بعد هذه الآية المباركة، العظيمة، الجليلة، قال عز وجل مباشرة في الآية التي تليها: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَـــا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ. رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَـــافُونَ يَوْمًـــا تَتَقَلَّـــبُ فِيـــهِ الْقُلُـــوبُ وَالأَبْصَارُ)(النور:36). فكأن نور الله المذكور قبل إنما يهدي الله إليه هؤلاء الذين هم : (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)... الآية. وقد قال قبل ذلك: (يَهْدِي اللَّـــهُ لِنُـــورِهِ مَـــنْ يَشَاءُ). إنهم هنا يدورون في فلك العبادة، بالغدو والآصال، لا يستطيعون منها فكاكا! كيف وها هي ذي قلوبهم معلقة بأنوار الله مع السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ! ومنهم: (رجل قلبه معلق بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه!)([203])

ويا لتعلق القلب إذا تعلق! والتعلق إنما هو الحب والهيام.. اذهب إلى حيث شئت ! واشـــرد في التيـــه مـــا شـــئت؛ فإنـــك لابـــد تعـــود! تعود إلى قلبك، ونبضك، هذا المعلق هنا في بيت الله، يومض بالمحبة، ويتقد بالشـــوق! إنه معلق هنا، تماما مثل مصابيح النور التي تتوسط فضاءات المحاريب الجميلة! هذه القلوب هي (آنية) الرحمن، قلوب عباده الصالحين: (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ

[203] متفق عليه.

اللَّـــهِ)، يســـبحون ربهـــم، ويلـــهجون بـــذكر محبـــوبهم بالغـــدو والآصـــال!
هذه آنية الله من أهل الأرض، التي تعكس أنواره، وتفيض بجماله. وإن أحبـــها إلى الله: أرقهـــــــــــــــــــــــــــا وألينـــــــــــــــــــــــــــها!
ذلك فعل الحب؛ إذا خالط قلبا عَطَفَهُ ليونةً ورقةً حتى يذل! فيكون المعنى إذن: أحبها إ لى الله ما كان منها أكثر حبا له!
القلـــب المحـــب لا يلامســـه الحـــب حـــتى يشـــرق بنـــور الله إشـــراقا! فكأنما هو كأس من زجاج تشع بما انهمر عليها من أنوار، فتفيض به في كل اتجاه! هل تم لك الكأس أن تمسك النور؟ لا أبدا! إنها تمتلئ بجماله ثم تفيض؛ ولذلك كان لسائر الجس د من نور الله تجليات المحبة والجمال!

وهنا مزلق كثير من المتصوفة ومهلكهم، حيـــث قـــالوا بـــالحلول والاتحـــاد! وحاشا جلال الله وجماله أن يكون كما قالوا، بل تعالى الله سبحانه عما يقولون علوا كب يـــرا!
فإنما هي أنواره تعالى يهدي بها وإليها من يشاء! ويفيض على قلوب عباده الصالحين – كمـــــــــــــــــــــــــــا في الحـــــــــــــــــــــــــــديث – من كرمه الذي ليس كمثله شيء، فيضا لا تحده الرسوم والتعريفات إلا أن يُقَرِّبَ تقريبا !

نعم إذا أشرقت القلوب أشرقت الوجوه والأجساد.. أليس القلب ملك الجسد ك لـــه؟
(ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)!([204]) ولذلك كانت رؤية الصالحين تذكر بالله! وإنما هي رؤية! ولذل ك كـــــان مـــــن الصـــــالحين مـــــن يـــــرى بنـــــور الله! كيف لا وقد قال الله عز وجل في الحديث القدسـي عـن العبـد العابـد المحبـوب: (فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ور

[204] متفق عليه.

جله التي يمشي بها!)([205]) فكيف يكون ذلك لو لم يكن قلبه آنية من أواني الله؟ (ذَلِــكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)(الحديد:20).

وإن ربك إذا تجلى لشيء إما أن يجعله دكا، وإما أن يشرق بنوره، حسب أمره ت عالى ومراده: (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا!)(الأعــراف:143) وقال سبحانه: (وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِــالنَّبِيِّينَ وَالشُّــهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)(الزمر: 66).

ذلــــك عنــــوان المحبـــة! أي أن يكــــون القلــــب مــــن آنيــــة الله؛ قنديلا معلقا بالمساجد، يعكس أنوار الرحمن! وإن هذه لمترلة، وإنها لأرقى منازل الصالح ين، وأعلى مقامات العابدين!

وإنهـــــا هـــــــي بــــــــدورها لمراتـــــــب، ودرجــــــــات! فما كــل مــن ادعــى المحبــة قــد أدركهــا كاملــة، وحقَّقَهــا صــافيةً نقيــةً بلا شائبة! ومن هنا كانت العبادة سيرا دائما إلى الله، لا ينقطع إلا بالانتقال إلى جواره ا لكريم! فالمحبة تبدأ بذورها بمترلة التوبة، ثم تورق بتحقيق التوحيد: (وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِــنْ دُونِ اللَّــهِ أَنــدَادًا يُحِبُّــونَهُمْ كَحُــبِّ اللَّــهِ! وَالَّــذِينَ آمَنُــوا أَشَــدُّ حُبًّــا لِلَّهِ!)(البقرة:165). وتترقى شيئا فشيئا، وتنمو؛ حتى تبلغ مواجيدها درجة (الْخُلَّة). وه ي التفريــــــــغ التــــــــام للقلــــــــب ممــــــــا ســــــــوى حــب الله، فــلا ينظــر العبــد لنفســه حظــا إلا في حــب المحبــوب! وهــذه حال أشبه بالعصمة، بل أعلى درجات العصمة! ولذلك لم تُذْكَرْ إلا في وصف النبِيَّيْن ا لخليلَــــيْن: ســــيدنا إبــــراهيم وســــيدنا محمــــد، عليهمــــا وعلــــى آلهما الصلاة والسلام! كما في الحديث: (إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا!) ([206]) ولذلك لم (يخالل) سيدنا محمدε أحدا من الناس، وإنما صاحب صحبة! قــالε: (لو كنت متخــذا مــن أهــل الأرض خلــيلا لاتخــذت ابــن أبي قحافــة [يعــني

[205] جزء حديث رواه البخاري.

[206] رواه مسلم.

أبا بكر] خليلا! ولكنَّ صاحِبَكُم خليلُ الله!)([207]) وفي رواية لمسلم: (ولكنه أخي وصاحبي؛ وقد اتخذ اللهُ صاحبَكم خليلا!) ولو فعل لابتلي فيها كما ابتلي إبراهيم!
وما أجمل كلام ابن القيم رحمه الله في هذا السياق - وهو عندي عالم العارفين — قال: (والخُلَّةُ: هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه ؛ حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب !! وهذا هو السر الذي لأجله - والله أعلم - أُمِرَ الخليلُ بذبح ولده، وثمرة فؤاده، وفلذة كبده؛ لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه! و"الخلة" منصب لا يقبل الشركة والقسمة! فغار الخليل على خليله؛ أن يكون في قلبه موضع لغيره؛ فأمر بذبح الولد؛ ليخرج المزاحم من قلبه! فلما وطَّن نفسه على ذلك وعزم عليه عزما جازما؛ حصل مقصود الأمر، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة؛ فحال بينه وبينه، وفداه بالذبح العظيم!)([208])

إنها إشارة من ألطف الإشارت! وموافقة من أصدق الموافقات! ومثل هذا لا يصدر إلا عن قلب ذاق حقيقة المحبة! فرحمه الله وأجزل له الثواب!

ولك يا صاح في المحبة منازلُ مأذون فيها، منازل تشهد لأصحابها بجمال الولاية. أدناها (محبة الرجاء)، وأعلاها (محبة الصِّدِّيقِيَّة)، كما كان حال أفضل الصحابة الكرام سيدنا أبي بكر (الصديق) رضي الله عنه وأرضاه! وهو الوصف الذي أكرم الله به — مِنْ قَبْلُ — مريمَ ابنةَ عِمْرَان. قال تعالى في سياق بيان حقيقة المسيح عليه السلام: (وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ)(المائدة:75). ومن هنا فقد كانت من النساء الكوامل، كما في ورد في الحديث النبوي الصحيح([209]). فالصِّدِّيقِيَّةُ هي الكمال في التصفية التعبدية حتى أعلى مراتب المشاهدة الإحسانية! بما أتيح للإنسان من مجاهدات صادقة في مجال الطاعات. وبين الضفتين من بحار المحبة مراتبُ متعددة بتعدد الاستعدادات الفطرية والإمكانات البشرية!

---

207 رواه مسلم عن ابن مسعود، وروى البخاري نحوه عن ابن عباس، وعبد الله بن الزبير .

208 مدارج السالكين: 30/3 .

209 قال رسول الله ε: (كَمُلَ من الرجال كثير، و لم يَكْمُلْ من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون. وفَضْلُ عائشةَ على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام!) متفق عليه. وله روايات بصيغ أخرى صحيحة فيها: (و لم يكمل من النساء إلا أربع. وزاد: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمدε).

سادتي الأحبة لن أستطيع بهذه الورقات، ولا بغيرها، أن أوصل إليكم معنى المحبة، فإنمـــــــا هـــــــــي يـــــــا صـــــــاح ذوق، فـــــــذق! وإنمـــا الـــذي أحاولـــه إن شـــاء الله أن أدلـــك علـــى طريقهـــا مـــا اســـتطعت، وليس لي في ذلك جهد الابداع والاختراع، وإنما هو تتبع لآثار المحبين واتباع. وقد ذكر وا في هذا الكثير من الأسباب والأبواب، لكني أوجزها بحول الله؛ تركيزا وتسهيلا، في م عنى واحد ذكره القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف. وهو مفهوم (الاقتراب والتقر ب)، وهو الذي عليه مدار سائر الأعمال في الإسلام. وبيان ذلك كما يلي:

إن المعـــــــــنى العـــــــــام للتقـــــــــرب بالقربـــــــــات:
هو عمران الوقت بالأعمال، حسب ما يناسب الوقت من فريضة أو نافلة، أو أي شيء من (العمل الصالح)، بدءا بكل صور (التخلي) من اجتناب للمنهيات والمنكرات، وكل صـــور (التحلي)، من قراءة للقرآن، وذكر الله تعالى على كل حال، ودعائه في العسر واليسر، والتفكر والتدبر، ومطالعة آيات منـــته تعالى، والحرص على اتباع سنة نبيه عليه الصلاة والسلام.. إلخ. وهذا كثير ومتنوع.

وللحصول على موجدة (التقرب) لابد من مجاهدة النفس بهذه الأعمال، ورياضت ها بها؛ حتى تصبح سجية لها، تسري فيها سريان النفَس راحة وعذوبة؛ حتى إذا دخلت في العمل التعبدي؛ شعرت أنك ولجت عتبة باب الله! ليس الإكثار من رسوم الأعمال ه و المطلـــوب بالقصـــد الأول، وإنمـــا الإكثـــار مـــن المعـــنى: (التقـــرب). (وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ!)(المدثر:6)

ويحك! طرقت الباب، فهل انفتح؟.. إذن؛ فتقرب!

هل خرجت يوما إلى مكان بري؟ ذي أشجار تطل بأغصانها من شرف أخضر، على بطحاء معشبة مزهرة، وجداول ماء عذب وشلالات، وبحيرات، وأسماك، وطيور غر يبة لها أشكال وألوان!! ثم اعتليت الشرف بين الأشجار ونظرت إلى ذلك الفضاء الصافي ، فهبت عليك أنسام ذات أنداء، محملة بأريج كأريج الجنة، يملأ قلبك شوقا إلى غموض

الجمال؛ فانفتحت رئتاك انفتاحا، واهتز صدرك شوقا؛ ليعب من عذوبة ذلك النسيم العليل، عب المحب الموصول بعد عطش شديد..؟

شيء من هذا يشبه لذة العبادة، شيء من هذا يشبه التقرب، إذ تقدم القربات فَتُجْزَى بالوصال والإنعام! فإنما عليك إذَنْ أن تدخل العبادة بمقام الشهود لترى! ولتطرد سِنَةَ الغفلة عن عينك! فإنها سبب تخشب الأعمال! فتقرب..! تقرب! فإنما التقرب عبـادة شاهِدَةٌ مشهودة!

والأعمـال الصـالحة لا حصـر لهـا.. وإنما أفضلها أركان الإسـلام وفرائضـه، ثم تليهـا نوافـل الخـيرات الصـالحات. كثير من الناس يقول: هذه أعمال عادية! فلا يجدون لها لذة وجمالا، إلا قليلا قلـيلا.. وإنما المشكلة أنهم يؤدونها ولا يحسنون (التَّقَرُّبَ) بها!

أن تتقرب إلى ربك: يعني أنك تشهد عبادتك له! أي أنك تذوق كؤوس التذلل والتضرع إليه تعالى، وتفرغ قلبك له وحده ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وتكون لوساوس الشيطان بالمرصاد؛ أن يُدخِل على قلبك حظا من حظوظ النفس! فإنك حينئـذ - وأنـت يقـظ الوجـدان - إذ تصلي صلاة مفروضة أو نافلة مثل الناس، تكون متقربا! وإذن تذوق طعـم المحبـة! وتلك هي منزلة الولاية، فإنما الولاء حب! قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه: (إن الله تعـالى قـال: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب! وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه! ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه!)([210]) أليس هذا العبد إذن آنية من أواني الله؟ ألم يفض قلبه بالأنوار على سائر جسده؟ فإذا هو بالله وله!

نعم، كثير منا قرأ هذا الحديث مرارا، فيبادر إلى الإكثار من نوافل الخيرات من الصـلوات والصـدقات..

---

[210] رواه البخاري.

ولكن هل حُقِّقَتْ فريضة واحدة لا غير، تحقيق عبادة ومشاهدة وتقرب؟ ذلك هو الإش
كـــــال! إن الله تعـــــالى يقــــول في هـــــذا الحــــديث القدســــي:
(وما تقرب إلي عبدي..) وقال قبل ذلك في القرآن الكريم: (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ!)(العلــق: 20) لا قيمة لسجود الجسد إن لم يصحبه سجود القلب! نعم إن الإنسان ليغفو ويسهو !! ولكن هنا باب المجاهدة، هنا معراج الاقتراب! وذلك هو الإحسان، الذي عرفه النبي ε فقـــــــال:
(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك!)([211]) ولكي نعرف معنى (الرؤية) هنا لابد من إيراد سياق الحديث، وهو حديث جبريل المشهور، حيث سأل الملاك جبريل عليــــه الســـلام نــــبي الله محمـــداε عـــن الإســـلام، والإيمـــان، والإحســـان؛ فأجابـــه عـــن الأول، فقـــال:
(الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا! قال: صدقت! فعجبنا له يسأله ويصدقه! قال: فأخبرني عن الإيمان! قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليو م الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره) الحديث.

لقد رأيت أن الإسلام ههنا إنما هو الترجمة الفعلية للإيمان. إنه التعبير الفعلي عن ا لشعور القلبي، وبقدر صـــدق التعـــبير يكـــون (إحســـان) العبـــد. إن (الإحســـان) ليس شيئا خارجا عن الإسلام والإيمان، وإنما هو (حُسْنُ) المطابقة بينهما! إذ أن الإيمان ه و المضـــمون الوجـــداني للإســـلام، وأنـــه لا يـــتم إســـلام المرء على الحقيقة إلا باستشعار ذلك المضمون، في كل حركات (الإسلام). وإنما الإسلام إسلام القلب لله أولا، كما تبين في شهادة ألا إله إلا الله! ومـــن هنـــا قـــال في بـــدء تعريـــــف الإحســـــان:
(أن تعبد الله!).. الحديث. إذن هو عبادة. وما العبادة إلا ما جاء في (الإسلام)، أي الأر كان الخمسة وما تفرع عنها من نوافل. فالإحسان من الناحية الشكلية هو تطبيق الإسلا م، لكـــن بمضـــمون خـــاص. وهـــو قولـــه:

---

[211] رواه مسلم.

(كأنك تراه!) وهذا هو بالضبط ما ينتج للعبد من (حال) عند استشعار (الإيمان). فاستحضار الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ كل ذلك إنما هو استحضار المضمون الغيبي للدين، الذي هو جوهره الحقيقي. وهذا الاستحضار يملأ القلب بعمران ذوقي، من أنوار القرب والوصل مع السماء، والارتقاء إلى مصاف الملأ الأعلى من حيث المعية الوجدانية؛ فإذن يكون العبد بالله ولله ومع الله! أو بعبارة أخرى يجعل من قلبه آنية لله، كما مر في الحديث؛ فيفيض بنوره ويبصر به تعالى!

ثم إن المتدبر يلحظ كأن هذا الحديث يتحدث عن درجتين من (الإحسان): الأولى: (أن تعبد الله كأنك تراه)، والثانية: (فإن لم تكن تراه فهو يراك!) ذلك أن عبادة الله (كأنك تراه) أعلى رتبة من الأخرى، إذ توطين القلب وتطهيره إلى درجة أن يشرق بنور الله أمرٌ دونه مكابدة ومجاهدة، كما قلنا قبل. إنه عمل وجداني، وسير قلبي، ونهي للنفس عن الهوى، أيا كان هذا الهوى! إنه السعي والمجاهدة لتفريغ القلب مما سوى حب الله، من الأزواج والولدان والأموال والشهوات! وهذه وأمثالها حبها فطري في الإنسان. وههنا الصعوبة والمكابدة والمجاهدة! (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأنْعَامِ وَالْحَرْثِ!)(آل عمران:14) ولذا كان الجهاد في سبيل الله صورة من صور الإحسان العالي؛ لأنه بذل للنفس وإهدار لها على باب محبة الله، ولا يكون مثل هذا - إذا تحقق على وجهه - إلا إخلاصا رفيعا لله تعالى! إنه رباط المحبة الخالص! قال سبحانه: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)(المائدة:56).

إن هذا الشعور أقرب إلى (الحال) منه إلى (المقام) بتعبير القوم، أو قل بعبارة أخرى قد يكون (مقاما) لخاصة الله، من أوليائه المقربين المحبين المحبوبين، ولا يكون إلا (حالا) للمقارِبين المسدِّدين

! إنه مقام: (الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُـــنَ أُوْلَئِـــكَ

رَفِيقًا!)(النساء:68). ولذلك فقد كانت مترلة المحبة ذات شأن، وطريقها إنما هو طريق ا لمنجرفين بتيار الحب الإلهي، الذين لا يرفعون من سجود إلا ليخروا إلى سجود، في خفق منجذب إلى النور أبدا، وحركة دائمة دوام العمر، ودور مستمر ما دام الفلك يدور..!

فعن ربيعة بن كعب رضـــي الله عنـــه قـــال: (كنـــت أبيـــت مـــع رســـول اللهε فآتيه بوضوئه وحاجته، فقال لي: سلني! فقلت: أســـألك مرافقتـــك في الجنـــة! قـــال: أوْ غير ذلك؟! قلت: هو ذاك! قال: فأعِنِّي على نفسك بكثرة السجود!!)([212])

إنها من كثرة السجود إذن! وما عسى من (يرى) الله ذا الجلال والجمال في عبادته أن يفعـــــل؟ تلـــــك مرتبـــــة لا جـــــزاء لهـــــا إلا رفقـــــة محمـــــدε في الجنة، وأعظم بها من رفقة! وأكرم به من جزاء..! ذلك أن رفقة محمـــد – عليـــه الصـــــــــــــــــــــــــــــــلاة والســـــــــــــــــــــــــــــــلام – تعني العمل على بلوغ مرتبة المحبين السابقين! ممن ذكرنا من النبيئين والصِّدّيقين والشهداء والصـــــــــالحين. الـــــــــذين قـــــــــال الله فـــــــــيهم: (وَحَسُنَ أولَئِكَ رَفِيقاً!) وإن هذه الشهادة الرفيعة العالية من رب العالمين لهي خير ما يمكن أن يبلغه العبد من خَيْرَيْ الدنيا والآخرة سواء! لقد طلبها هذا الصحابي عظيمة! الرفقة النبويـــة في الجنـــة!! ولـــذلك قـــال لـــه محمـــدε – وهـــو الشـــفيع المشـــفع – (أو غير ذلك؟) أي لو تطلب أمرا آخر غير هذا!؟ فلما أصر الصحابي على الرفقة السنية ؛ قال لهε: (أعِنِّـــي علـــى نفســـك بكثـــرة الســـجود!) أعِنِّـــي علـــى نفســـك؛ طلبا لرضى الله واستجابته لهما!

لـــــــــــــــيس المقـــــــــــــــام عاديـــــــــــــــا!

بل إنها لمترلة من منازل الجنة العليا، التي لا تُرى من جنان عامة المؤمنين إلا كما يُرى الكوكـــب الـــدري في الفضـــاء..! وقـــد ســـبق قـــول الـــنبيε: (إن أهل الجنة لَيَتَرَاءَوْنَ أهلَ الغُرَفِ من فوقهم، كما تَرَاءَوْنَ الكوكبَ الدُّرِّيَ الغابرَ في ا

[212] رواه مسلم.

لأفـــــــــــق! مـــــــــــــــن المشـــــــــــــــرق أو المغــــــــــــــــرب! لِتَفَاضُلِ ما بينهم!)([213]) ذلك أن: (الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض! والفردوس أعلى الجنة، وأوسطها، وفوقه عرش الرحمن، ومنها يتفجر أنهار الجنة! فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس!)([214])

ولكن كان من تيسير الله على عباده، وتوسعته سبحانه، وهو الحليم الكريم، أن يوسع باب الإحسان، فجعل منه رتبة ثانية أقل جهدا من الأولى، حتى يشمل كل ذي نية صالحة ومحبة صادقة من المؤمنين، وهو قوله: (فإن لم تكن تراه فهو يراك!) إنه تعبير عن استشعار وجداني أكثر منه عن أمر تصوري. أعني أن إمكان استشعار رؤية العبد لله أمر يحتـــــــــــاج إلى مجاهـــــــــــــدة - كمـــــــــــــا قلـــــــــــــت - وتفريغ وتهذيب وتصفية، بينما استشعار رؤية الله للعبد أمر ميسور؛ لأنه أقرب إلى التصور العقدي العام منه إلى الاستشعار الوجداني، وإن كانت حقيقته إنما هي راجعة إلى الوجدان؛ إذ إمكان أن يشعر العبد بمراقبة الله له أسهل من أن يشعر هو بمراقبته لله. وبينهما فـــــــــــــــــــــرق كـــــــــــــــــــــــبير..

إن الأول أقرب إلى حادي الرجاء، بينما الثـــاني هـــو أقـــرب إلى حـــادي الخـــوف! ولكن المحبة جامعة لهمـــا معـــا! ولـــذلك جُعِـــلاَ مـــن الإحسـان علـــى العمـــوم. قلـــت وهـــذه المرتبـــة الثانيـــة هـــي في متنـــاول كـــل مـــن بـــذل جهـــدا، مَهْمَـــــا كـــــان بســـــيطا مـــــن التقـــــرب الصـــــادق لله، مستشعرا معية الله على كل حال، ناظرا إلى نظر ربه إليه، ورقابته عليه سبحانه وتعالى. ذلك أن الله تعالى لم يشدد على عباده المحبين بل يسر هـــذا الـــدين تيســـيرا.. قال المصطفى الحبيبε : (إن الـــدين يســـر، ولا يُشَـــادُّ الـــدينَ أحـــدٌ إلا غلبـــه! فسددوا، وقاربوا، وأبشروا..! واستعينوا بالغدوة والروحة! وشيءٍ من الدُّلْجَة!)([215])

---

[213] تقدم تخريجه.

[214] رواه ابن ماجه، والحاكم، وابن عساكر عن أربعة من الصحابة، وصححه الألباني في (ص.ج.ص): 3121.

[215] رواه البخاري.

إن الإحسان برتبتيه هو قمة الجمع بين الشكل والمضمون، وبين الظاهر والباطن في أعمال الـــدين. إنـــه الصـــدق إذن! وإن الصـــدق لمقـــام رفيـــع، حـــق رفيـــع! وهو أعلى مراتب (التقرب)! ومن الصدق ينبع التصديق؛ إذ يترقى الصادق في صدقه حـ تـــــــى يكـــــــون عنـــــــــد الله صِـــــــدّيقا! قـــــــال الـــــــنبيε: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عنـ د الله صِدّيقا!)([216])، والصِّدِّيق: هو المحسن في محبته وتقربه. ولذلك كان التصديق إحسا نا في خلة إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّـــا كَذَلِكَ نَجْـــزِي الْمُحْسِـــنِينَ. إِنَّ هَـــذَا لَهُـــوَ الْـــبَلاءُ الْمُـــبِينُ!)(الصـــافات:105-106)، أي إن هذا (الإحسان) بلاء شديد، بمعنى أنه لا يدرك إلا بمجاهدة ومصابرة! و قال عز وجل: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـــاتٍ وَنَهَـــرٍ. فِـــي مَقْعَـــدِ صِـــدْقٍ عِنْـــدَ مَلِيـــكٍ مُقْتَدِرٍ)(القمر:55)، و(العِنْدِيَّةُ) في الآية مشعرة بالقرب القريب، والخصوصية الكريمة! و أنت ترى أنها ارتبطت بمقعد الصدق الرفيع هذا! وقال سبحانه: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَـــالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِـــنْهُمْ مَـــنْ يَنْتَظِـــرُ وَمَـــا بَـــدَّلُوا تَبْدِيلا!)(الأحزاب:23).

ومن هنا فقد تضمنت منزلة المحبة أغلب مقامات الإيمان، التي فصل فيها القوم، و ذكروها مفردة في كثير من الأحوال، حتى بلغوا بها أزيد من مائة مقام! ولو تأملتها لوجـ دت أغلبـــــــــــها راجعـــــــــــا إلى معـــــــــــنى المحبـــــــــــة. فانظر إذن؛ كم يحوز المحب من حال ومقام عند الله تعالى!

نعـــم!

إن منـــزلة المحبة لهي باب صحبة الملأ الأعلى في السماء، وعنوان القبول في الأرض! فيا لجمـــال الأنـــس، ويـــا لجـــلال القـــرب! قـــال عليـــه الصـــلاة والســـلام: (إذا أحب الله العبد دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانا؛ فأحبه! فيحبه جبريل! ثم ينادي

---

[216] متفق عليه.

في السماء فيقول:
إن الله يحب فلانا فأحبوه! فيحبه أهل السماء! ثم يوضع له القبول في الأرض!)([217])
ذلك هو الإسلام دين المحبة العليا!

[217] متفق عليه.

خاتِـــمَةُ الْمَشَاهِد

وبعد، فقد كانت تلك إشراقات.. حاولتُ خلالهـــا أن أُذَكِّـــر بحقيقـــة مـــن حقائق الدين الجوهرية، غطاها النسيان في زمننا هذا، زمن الهـــرج والمـــرج.. وشـــتى ضروب الصراع وردود الأفعال! وهي أن جمالية الدين راجعة إلى ما بُنِيَ عليه الإسلام – عقيـــدةً وشـــريعةً – مـــن معـــاني المحبـــة والخـــير للنـــاس.. فيكون التدين الأجمل والأحسن، هو ذلك الذي يصدر عن قلب مشبوب بالشوق إلى ا لله!

ولقد وددتُ لو بَقِيَتْ هذه المعاني في تعاملنا مع الدين صافيةً نقية، لا تتأثر سلبا ب أوضاعنا السياسية والاجتماعية؛ فتؤثر على تصور الناس للدين نفسه؛ ويُظَنَّ به ما لا يلي ق به من صفات القبح والضلال! لقـــد كـــان الأليـــق بـــالمؤمن – بَلْـــهَ الدَّاعيـــة – ألا يصبغ تدينه بما هو عليه شخصه من أوضـــاع نفســـية واجتماعيـــة وسياســـية، ثم يظن أن الدين نفسه هو كذلك! فيجني على الدين وعلى نفسه وعلى الآخرين!

ذلـــــــــــــك هـــــــــــــو التحـــــــــــــدي!

وإننا يجب أن ننتصر في هذا التحدى! وإنما يكون الانتصار بأن نستجيب للمدافعة الحضا رية، مع الالتزام بمقاصد الدين في تديننا؛ حتى يكون ما يشع من قلوبنا من مشاعر المحبة صافيا نقيا، في أحوال الرضى والسخط على السواء! إنها مسألة تحتاج إلى تربية ذوقية و صبر ومصابرة؛ كي لا يتأثر سلوكُنا بما قد يسكن قلوبنَا – في لحظات الضعف النفسي – مـــــن مشـــــاعر الحقـــــد والكراهيـــــة! فتكـــــون هـــــذه هي المقياس الخفي الذي نزن به الأشياء والأعمال والتصرفات!

وإن يكن من نتائج لهذه المشاهَدَات فهي أن (الجمالية) في الإسلام اهتمت أساسا بإنتاج (جمال الروح)، وتزكيته صقلاً وترقيةً؛ إلى أعلـــى مســـتوى ممكـــن في التجربـــة الإنسانية! ولم تستغرق كلَّ جهدها في تلميع (جمال الصورة) بأصباغ (الْحَمَأِ الْمَسْنُونِ)! كما هو الشأن في الجمالية الغربية! وإنما جعلت الصورة تابعة للروح لا العكس! تَجْمُـــلُ

بجمالها وتَقْبُحُ بِقُبْحِهَا! ومن هنا كان قول الرسولε في حكمته البالغة: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَىَ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ. وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىَ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ!)([218])

ذلك أن إنتاج (الإنسان الجميل) كفيل بإنتاج الحياة الجميلة، والعمران الجميل! والعكس بالعكس قطعا! ومن هنا كانت كل أصول الدين وفروعه - كما تَجَلَّتْ لك مَشَاهِدُهُ - تسعى إلى تربية الإنسان على استشعار الأذواق الجميلة، في الاعتقاد والعبادة والسلوك. ولو استقرينا هذه الحقيقة في فروع الشريعة لما وسعتنا المجلداتُ الضِّخام. وإنما كان غرض هذا الكتاب بيان المنطلقات الجمالية في الإسلام وأصولها.

إن الروح إذا جَمُلَتْ جَمُلَ كُلُّ شيء صدر عنها! من الترتيل إلى التشكيل، أي من الاشتغال بالقرآن إلى الاشتغال بالعمران! وما بين هذا وذاك من شتى ضروب السلوك البشري، والمعاملات الاجتماعية، وسائر ما تقوم عليه الحضارة من مقومات!

ولنا أن نختم هذه الإشراقات بنموذج من النبوة في بناء جمالية الروح! وصرف الناس عن خداع الصورة! فعن أنس - رضي الله عنه — (أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زَاهِراً، وكان يهدي إلى النبيε الهدية؛ فيجهزه رسول اللهε إذا أراد أن يخرج. فقال رسول اللهε: "إنَّ زَاهِراً بَادِيَتُنَا ونحنُ حَاضِرُوهُ!" وكان النبيε يحبه. وكان ذميماً. فأتى النبيُّε يوماً وهو يبيع متاعَه، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره؛ فقال: أرسلني! من هذا؟ فالتفتَ فعرف النبيَّε؛ فجعل لا يَأْلُو مَا أَلصَقَ ظهرَهُ بصَدْرِ النبيε حين عرفَه! وجعل النبيε يقول: "من يشتري العبد؟". فقال: يا رسول الله إذاً تجدني كَاسِداً! فقال النبيε: "لكنَّكَ عند الله لستَ بِكَاسِدٍ!". أو قال: "لكنْ عند الله أنتَ غَالٍ!")([219])

ما الجمالُ إذن؟.. (زاهر) هذا الرجل البدوي، ذو الصورة الذميمة، ممن يتحاشى الناس ملاقاته وصحبته! يختاره رسول اللهε أساسا — من دون كثير من البدو - ليكون له صاحبا محبوبا! وكان القومُ من الْحَضَرِ آنئذ يتخذون لهم من أهل البادية أصدقاء، يتبادلون معهم المنافع المختلفة، فلا يختار رسول اللهε لنفسه منهم إلا هذا الرجل الذميم: (إن زَاهِراً

---

[218] رواه مسلم.

[219] قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح. مجمع الزوائد: 616/9: كتاب البيوع، رقم الحديث: 15979.

بَادِيَتُنَا ونحنُ حَاضِرُوهُ!) ويفاجئه مرة في السوق يبيع متاعه فيداعبه هذه المداعبة الطريفة، التي قلما حظي به أحد من أصحابه الْخُلَّصِ جداً! وما كان ذلك منه – عليه الصلاة والسلام – إلا تنبيها وتربية للآخرين: أنْ انتبهوا..! إنَّ الجمال الحق ههنا..! تفيض أنواره مشعشعة من هذا الإناء البالي الذي زهدتم فيه: (زاهر)!.. أجل! وإنَّ جَرَّةً من الفخَّارِ القَدِيم لَتَعْلُو قيمتُها وتَغْلُو؛ إذا كانت تَكْتَنِزُ في باطنها ذهباً خالصاً!

إن جمال الروح هو الأصل في جمال الوجود كله! وكل شيء بعده تَبَعٌ له! تلك هي النتيجة العامة إذن لهذه الروقات.

وأخيرا فإنني لم أقصد أن أقول بهذا البحث الصغير: إن الحل هو أن نلتجئ إلى الاعتزال في المحاريب والزوايا، بعيدا عن المجتمع وقضاياه، قصد المحافظة على صفاء الدين وجمالية التدين. وإنما القصد أن نحقق شهادة المحبة: (لا إله إلا الله) بكل تجلياتها النورانية، ومشاهدها الروحانية، حركةً حيَّةً في المجتمع! ساريةً في كل كسبنا، وحركاتنا الاجتماعية، القائمة على قصد تنزيل الدين مَنَازِلَهُ الجميلةَ في الواقع، عسى أن نقترب في تدييننا – ونحن نمارس حياتنا العامة – من رونق الدين، وجماله العالي الرفيع.

ذلك؛ وإنه لأمر عظيم! ولكنه سهل على من سهله الله عليه.

فعسى الله أن يوفقنا إلى التي هي أقوم، ويهدينا في أمرنا هذا رشدا. وصلى الله عل ى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكتبه عبد ربه، راجي عفوه وغفرانه، الفقير إلى رحمته ورضوانه: فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي السجلماسي، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين. وقد وافق تمام تبييضه وتصحيحه – بمكناسة الزيتون، من حواضر المغرب الأقصى – يوم الخميس 29 محرم: 1426هـ 2005/03/10م.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- آداب النفوس لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ت: 243هـ)، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الجيل، بيروت، ط: الثانية: 1408هـ /1987م.
- الأحاديث القدسية للإمام المحدث أبي زكرياء يحيى بن شرف النووي،تحقيق مصطفى عاشور، طبع وتوزيع مكتبة القرآن، بالقاهرة.
-أساس البلاغة للإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، نشر: دار بيروت للطباعة والنشر: 1404ه، /1984م.
-بغية السالك في أشرف المسالك، لأبي عبد الله الساحلي المالقي الأندلسي(754هـ). تحقيق د. عبد الرحيم العلمي. نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب. ط. الأولى: 1424هـ/2003م.
-البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي تأليف فريد الأنصاري. منشورات ألوان مغربية، ط. دار النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط. الأولى: 1424هـ/2003م.
-التصوف بين الإفراط والتفريط، للدكتور عمر عبد الله كامل. نشر دار ابن حزم، بيروت. ط. الأولى: 1422هـ/2001م.
-التعرف لمذهب أهل التصوف: تأليف أبي بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي (ت: 380هـ) ضبطه وعلق عليه وخرج أحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى 1413هـ/1993م
-التوحيد والو ساطة في التربية الدعوية، فريد الأنصاري، نشر دار الكلمة، مصر المنصورة. ط. الثانية: 1423هـ/ 2002م. وقد طبع قبل ذلك ضمن سلسلة كتاب الأمة في جزأين. عدد: 47 و48.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت 1408هـ /1988م.

- جمالية الأدب الإسلامي للأستاذ محمد إقبال عروي، نشر المكتبة السلفية، الدار البيضاء، المغرب، ط: الأولى: 1986م.
- الجمالية عبر العصور، تأليف إتيان سوريو، ترجمة الدكتور ميشال عاصي، سلسلة "زدني علما" منشورات عويدات، بيروت. ط. الثانية: 1982م.
- الداء والدواء لشمس الدين محمد بن القيم الجوزية، نشر: مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة.
- دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية: (هيدجر، سارتر، ميرلو بونتي، دوفرين، إنجاردن)، تأليف سعيد توفيق. نشر المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت. ط. الأولى: 1412هـ/1992م.
- رسالة المسترشدين لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري (ت: 243هـ) تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الخامسة بالقاهرة: 1409هـ/1988م.
- الرعاية لحقوق الله لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ت: 243هـ) تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط: الرابعة: 1405هـ /1985 م، دار الكتب العلمية بيروت.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة للعلامة محمد ناصر الدين الألباني، نشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد – الرياض، ط: الأولى 1417هـ/ 1996 م.
- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي، تحقيق أحمد شاكر وآخرين، نشر دار إحياء التراث العربي.
- شرح العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفر الطحاوي، بتخريج محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط: السادسة 1400هـ.
- شرح النووي على صحيح مسلم. نشر دار إحياء التراث العربي بيروت. ط. الثانية: 1392هـ.

- صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. شرح وتحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي. دار القلم بيروت. ط. الأولى: 1407هـ/1987م.
-صحيح الجامع الصغير وزياداته = (ص.ج.ص) للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت – دمشق، ط: الثالثة 1408هـ/1988م.
- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث بالقاهرة. ط. الأولى: 1412هـ/1991م.
-صفة صلاة النبي ρ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها للعلامة محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت ط: السادسة 1391 هـ.
-عُدَّةُ المريد الصادق للشيخ أحمد زروق، نشر ضمن كتاب (الشيخ أحمد زروق وآراؤه الإصلاحية)، للباحث إدريس عزوزي. نشر وزراة الأوقاف المغربية. ط. الأولى: 1419هـ/1998م.
- علم الجمال، تأليف ريني هويسمان، ترجمة ظافر الحسن، سلسلة "زدني علما" منشورات عويدات، بيروت. ط. الثالثة: 1980م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني. نشر دار المعرفة بيروت: 1379هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، راجعه وعلق عليه الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، طبعه دار الفكر، بيروت 1412هـ /1992 م.
- فلسفة الجمال: أعلامها ومذاهبها، للدكتورة أميرة حلمي مطر. نشر دار قباء للنشر والتوزيع القاهرة الطبعة الأولى: 1998.
- فلسفة الجمال في الفكر المعاصر الدكتور محمد زكي العشماوي. دار النهضة العربية بيروت: 1980.
- فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء للشيخ محمد الغزالي رحمه الله، دار القلم – دمشق، الطبعة الرابعة: 1418هـ/1997 م.

–في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب رحمه الله، طبعة دار الشروق، الطبعة الشرعية التاسعة: 1400هـ /1980 م .

– القاموس المحيط للإمام مجد الدين الفيروزأبادي. نشر دار الجيل بيروت.

– قناديل الصلاة: مشاهدات في منازل الجمال، فريد الأنصاري، نشر دار الكلمة مصر/المنصورة. ط. الثانية:1422هـ/2002م.

–كشف المحجوب لأبي الحسن الهجويري، ترجمة الدكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل. نشر دار النهضة العربية بيروت. ط. الأولى: 1393هـ/1973م.

– كليات رسائل النور تأليف بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار (سوزلر) للنشر، فرع القاهرة ط 2 بمصر 1412 ه-/ الموافق 1992 م.

– الجزء الأول : الكلمات

– " الثاني : المكتوبات

– " الثالث : اللمعات .

– " الرابع : الشعاعات

– " الخامس: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز.

– " السادس : المثنوي العربي النوري .

– " السابع : الملاحق .

– " الثامن : صيقل الإسلام .

– " التاسع : سيرة ذاتية .

–لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر بيروت.

–اللُّمَع لأبي نصر السرَّاج الطوسي، تحقيق شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود. نشر مكتبة الثقافة الدينية، مصر: 1423هـ/2002م.

–مجمع الزوائد للإمام علي بن أبي بكر الهيثمي نشر دار الريان للتراث/القاهرة، ودار الكتاب العربي/بيروت: 1407هـ.

-مجموع فتاوى ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني). نشـــر دار عـــالم الكتب، الرياض.
- مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين للإمام ابن القيم، تحقيق محمد حامـــد الفقي، توزيع دار الرشاد الحديثة – الدار البيضاء – المغرب.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضع محمد فؤاد عبد الباقي، دار القلم بيروت.
-معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد ابن فارس تحقيق عبد السلام هـــارون، دار الجيل بيروت، ط: الأولى: 1411هـ/1991 م.
-معنى الجمال: نظرية في الاستطيقا. تأليف ولترت ستيس، ترجمة إمام عبد الفتـــاح إمام. نشر المجلس الأعلى للثقافة، مصر: 2000. طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
-مفاتح النور (نحو معجم شامل للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي)، تأليف فريد الأنصاري، نشر مركز النور للدراسات والبحـــوث بإستانبول، بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس/المغرب. مطابع نيسيل بإستانبول/ تركيا. ط. الأولى: 2004.
-الموافقات للإمام أبي إسحاق الشاطبي، نشر دار المعرفة، بيروت، بشرح الشيخ عبد الله دراز.
- نزهة المتقين شرح رياض الصالحين للإمام النووي: تأليف الدكتور مصطفى ســعيد الخن، والدكتور مصطفى البغا، والأساتذة محيي الدين مستو، وعلي الشربجي، ومحمـــد أمين لطفي، نشر مؤسسة الرسالة – بيروت.

فهرس المحتويات

ـــانتهى.